

مقالات (2)

د. سهيل زكار

1980 التشريع الاقتصادي الإسلامي ودور الإمام محمد بن الحسن الشيباني في إرساء دعائمه

1983 الدولة الرستمية في تيهزت

2013 القدس من بعد وفاة صلاح الدين حتى الحملة الصليبية السابعة

2015 رحلة المهدي الفاطمي من السلمية إلى المهدية

2019 العلاقات بين الدولة العربية الإسلامية والخزرية وموقف بيزنطة منها

2019 أوضاع شبه جزيرة المورة بين عامي (1382-1460م)

2019 حصار مدينة سالونيك وسقوطها بيد العثمانيين

التشريع الاقتصادي الإسلامي

ودور الإمام محمد بن الحسن الشيباني في إرساء دعائمه

د . سهيل زكار
جامعة دمشق

تميز المجتمع الأول الذي قام الاسلام في وسطه بسيطرة الروح التجارية عليه ، والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفسه شارك قبل البعثة بالأعمال التجارية ، ويلاحظ من قراءة السور المكية في القرآن مع مختلف مصادر تاريخ مكة قبل الاسلام وأثناء الدعوة اليه قبل الهجرة ، مدى انغماس المكيين في أعمال التجارة ، وكيف أن السعي وراء الكسب كان هدف جل رجالاتهم ، وذلك بلا ضوابط أو روادع ، ولهذا يمكن القول بأن الفترة المكية من تاريخ الاسلام كانت فترة صراع ضد التجار أكثر منها صراعاً دينياً ، ذلك أن مكة لم يكن فيها رجال دين ، ولا حكومة منظمة بل أديرت من قبل التجار وأصحاب الأموال ·

هذا وقد أسهم المكيون في عدد من الأعمال ذات الصلة المباشرة بالتجارة ، مثل بعض الأعمال الزراعية خارج مكة ، وبعض الأعمال الصناعية مثل دباغة الجلود ، كما عقدوا المعاهدات التجارية واتفاقات للمرور ·

وبعد الهجرة الى المدينة تغيرت طبيعة الأجواء التي عاشها المسلمون ، فالمدينة تميزت بطبيعتها الزراعية مع وجود بعض الحرف فيها التي مارسها اليهود من حدادة وصياغة وما ناظرها ·

وعلى هذا الأساس عاش الاسلام في تاريخه المبكر تجربة اقتصادية شبه كاملة ، فيها تجارة وصناعة وزراعة وتربية مواشي وحيوانات ، وقام هذا الدين الحنيف بالتشريع لهذه الجوانب الاقتصادية ، ودون الوقوف طويلا عند مدى التجديد في التشريع الجديد ومدى الفوارق بينه وبين الأعراف التي كانت سائدة من قبل ، يكفينا القول أنه وجد في الاسلام أسس تشريع كامل منظم للحياة الاقتصادية ، كما أن قانون الحرب في

الاسلام قد تولى مسألة توزيع الغنائم وموارد الحرب ، ثم ان النظام الضرائبي قد عالج مسائل الجباية مع أوجه الصرف ٠

وهكذا عندما تأسست نواة الأمة الاسلامية الأولى في التاريخ ، وقام لها دولة الاسلام المركزية الأولى في المدينة كان هناك نظام اقتصادي شامل منظم لجميع أوجه الحياة ، وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي عهد الخلفاء الراشدين ، ألم بهذا النظام بعض التطور ، خاصة اثر نجاح أعمال الفتوحات الكبرى ، فقد أزالت هذه الفتوحات الامبراطورية الساسانية من الوجود ، وحررت الشام ومصر ثم الشمال الافريقي من الحكم البيزنطي ، ونتيجة لهذا تبدلت صورة العالم سياسياً وعسكرياً ، وتغيرت معالمه الاقتصادية ، حيث تغيرت طرق التجارة ، وتبدلت مقاصد التجار وغاياتهم مع أنواع البضائع المتاجر بها ، فلم تعد كل الطرق تقود الى روما بل الى حواضر الاسلام ٠

لقد اعتبر بعض المؤرخين هذا الحدث من أخطر ما وقع في التاريخ الانساني ، وعده هنري بيرين البداية الحقة لقيام العصور الوسطى في أوربة ، ذلك أن أوزوبة طوقت الآن بحزام امتد عبر البحر المتوسط من الشرق الى الغرب ، وكانت طبيعة هذا الحزام جديدة من كافة الجوانب : الاقتصادية ، والثقافية ، والقانونية ، والبشرية ، واللغوية والحضارية العامة ٠

* * *

ومن المعلوم أن النظام البيزنطي كان قد اعتمد في العمل التجاري والاقتصادي على قواعد اختلفت عما كان موجوداً لدى الامبراطورية الساسانية ، ثم ان البيزنطيين تعاملوا بالوحدة النقدية الذهبية ، وفي المقابل تعامل الساسانيون بالوحدة النقدية الفضية ، ومع اتساع رقعة الدولة الاسلامية وبداية الاستقرار خاصة مع عصر عبدالملك بن مروان ظهرت الحاجة الى وحدة نقدية رسمية اسلامية ، وهكذا قام عبدالملك بن مروان بتعريب الدنانير مع الدواوين ٠

فعبد الملك بن مروان الذي يعد عن جدارة المؤسس الثاني للخلافة الأموية ، أدرك أن دولته التي أعاد توحيدها سياسياً ينبغي أن ترتبط بوحدة نقدية ، ونظام اداري واحد ، لهذا شرع في تعريب الدواوين ، وبهذا العمل يمكن القول بأن الدولة العربية المستقلة، أو بالحري المتميزة ،

جاءت فعلا الى الوجود ، وأن عمليات الفتح العسكري قد بدأت تتحول الى تغيير للأرض والانسان ، وهكذا حلت العربية الشمالية محل الاغريقية واللاتينية والفارسية ، وبذلك طويت صفحة طويلة من صفحات التاريخ القديم ، وبدأت صفحة جديدة ، هي صفحة العروبة وحضارة الاسلام .

وتعريب الدواوين كان من معانيه أيضاً ايجاد طبقة ادارية عربية مثقفة وآذن ذلك ببداية عصر التدوين للأثار العربية والثقافة الاسلامية ، كما آذن بتعريب البلدان الاسلامية ، وساعد على ترويج دعوات المساواة واقامة الأمة الاسلامية الجديدة .

وتوحيد المعاملات النقدية ، وايجاد صيغة تعادلية ثابتة بين الذهب والفضة وهو ما عرف عادة باسم « تعريب الدنانير » لا يقل أهمية عن مسالة تعريب الدواوين ، فالبلاد التي دخلت في حوزة المسلمين انتهى فيها الآن العمل بالأنظمة النقدية المختلفة ، ولقد كان لهذه الأنظمة قبل الغائها أسوأ الآثار على المعاملات التجارية والحياة الاقتصادية عامة ، كما كانت حائلا دون زوال الحواجز الاقتصادية وبالتالي معيقاً دون قيام وحدة اقتصادية للبلاد الاسلامية ، كما كان للاختلاف بالتعامل النقدي آثار سيئة على عمليات الجباية والصرف داخل الدولة ، ثم ان توضع معالم الاستقرار في الدولة الاسلامية ، والشروع في التميز الحضاري كشرط لنجاح التميز الديني فرض عدم متابعة ضرب النقود حسب طرائق الحكومات البائدة ، فالاسلام يجبُ ما قبله . ثم ان تحديد التعامل النقدي، وضرب الدينار من قبل الدولة أنهى فترة من الفوضى والاستغلال قامت بسبب الأعمال العسكرية ونتيجة لها .

من هنا يمكن أن نرى بداية تغير الصورة الاقتصادية والحضارية للعالم القديم ، وتطويق أوربة الغربية حيث غرقت في ظلام العصور الوسطى ، بينما عاش سواها في ظل الحضارة العربية الاسلامية الوارف .

ولقد فرض تطور الدولة الاسلامية ، واتساع رقعتها تطوير النظام الاقتصادي فيها ، ولا شك أن الخلفاء مع الفقهاء ورجال الشريعة والادارة قد تعاونوا في هذه المجالات ، وفي نفس الوقت حدثت تجاوزات اقتصادية كبيرة لروح الشريعة الاسلامية ، وقف الفقهاء منها موقف الناقد والمقوم ، وهكذا تجمع مع الأيام لدى المسلمين تراث تشريعي اقتصادي كبير ، ومع قيام حركة جمع التراث الاسلامي والعربي وتدوينه نالت المواد المتعلقة

بالجوانب الاقتصادية حظها ، وصنفت في أبواب خاصة في داخل المدونات من كتب الحديث وسواها، ومع قيام مدارس التشريع الاسلامية في القرن الثاني للهجرة وما رافق ذلك من انقلابات اقتصادية ، اهتم بعض المحدثين والفقهاء من هذه المدارس بالجوانب المتعلقة بالحياة الاقتصادية ككل أو جزء ، وهكذا جاء الى الوجود كتب الخراج والأموال ، مثل خراج يحيى بن آدم القرشي ، وخراج أبي يوسف ، والأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام ، والصبغة العامة التي اتسمت هذه الكتب بها هي سمة مصنفات الحديث ، ورواية الآثار ، وارتبطت بالمواضيع الجبائية للدولة ، ولهذا نجد الحاجة كانت قائمة للتصنيف في ميادين الاقتصاد العامة ذات المساس بحياة الناس بشكل عام ، ولعل أشهر من كتب في هذا الميدان محمد بن الحسن الشيباني ، الذي قام في أواخر حياته بتصنيف رسالة في ميدان الاقتصاد العام ، عرفت فيما بعد باسم « كتاب الكسب » . وجاءت هذه الرسالة كأول محاولة في هذا الميدان باللغة العربية .

* * *

محمد بن الحسن الشيباني : وهو أبو عبدالله محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني ولاءاً ، كان أصل والده من منطقة الجزيرة حيث كانت ديار شيبان ، لكنه لم يعش في الجزيرة ، بل في بلدة حرستا في أحواز مدينة دمشق ، ذلك أنه كان من الجند الشامي . وفي أواخر العصر الأموي انتقل الى مدينة واسط عاصمة العراق الأموي الأخيرة ، وفيها ولد له ولده محمد سنة اثنتين وثلاثين ومائة (٧٥٠ م) .

ويبدو أن والد محمد بن الحسن كان ثرياً ، وقد ترك سكنى مدينة واسط ، واستقر في مدينة الكوفة ، ويبدو أن ذلك كان اثر سقوط الخلافة الأموية وقيام الخلافة العباسية ، وفي كوفة النصف الثاني للقرن الثاني للهجرة ، كوفة أبي حنيفة النعمان بن ثابت ، وكبار العلماء والفقهاء ورجال الأدب واللغة والحديث نشأ محمد بن الحسن الشيباني ، فلقي كبار رجال الفكر فأخذ عنهم ، ويروى أنه عندما «بلغت سنه أربع عشرة سنة حضر مجلس الامام أبي حنيفة ، ليسأله عن مسألة نزلت به ، فسأله قائلا : ما تقول في غلام احتلم بالليل بعدما صلى العشاء ، هل يعيد العشاء ؟ قال : نعم ، فقام وأخذ نعله ، وأعاد العشاء في زاوية المسجد » وكان هذا أول شيء تعلمه من أبي حنيفة ، ويروى بأن الامام عندما رآه يعيد الصلاة

أعجبه ذلك ، وقال : « ان هذا الصبي يفلح ان شاء الله تعالى » وكان الأمر كما قال ٠٠٠

حيث « ألقى الله تعالى في قلبه حب التفقه في دين الاسلام » ودخل في روعه جلال مجلس الفقه ، فعاد الى حلقة أبي حنيفة يريد التفقه والتعلم ، فقال له أبو حنيفة : « استظهر القرآن أولا » لأن المتفقه في الشريعة الاسلامية في حاجة ماسة للقرآن والاحتجاج بآياته لأن للقرآن المنزلة الأولى في العقيدة الاسلامية ٠

وغاب محمد بن الحسن عدة أيام عاد بعدها الى مجلس الامام أبي حنيفة وقد استظهر القرآن ، وابتدأ حظه بتوجيه سؤال جديد الى الامام ، فقال له الامام : أخذت هذه المسألة من غيرك أم أنشأتها من نفسك ؟ فقال محمد بن الحسن : بل من عندي فقال له أبو حنيفة : سألت سؤال الرجال ، أدم الاختلاف الينا والى الحلقة ٠

من ذلك الحين بدأ محمد بن الحسن حياته العلمية ، فأقبل بكليته على فقه أبي حنيفة ، ووقف جل وقته على ملازمة حلقته يكتب المسائل وأجوبتها ، واستمر في حاله هذا أربع سنوات حتى توفي الامام أبو حنيفة ، وبعد ذلك تابع نيله لفقه أبي حنيفة على تلميذه وخليفته من بعده أبو يوسف ٠

وكان أثناء هذا كله يختلف الى حلقات المحدثين وسواهم في الكوفة ، ويأخذ عنهم ، وعندما شعر بأنه استنفذ تحصيل معارف أهل الكوفة ، قرر الرحلة في طلب العلم ، وكانت شهرة امام أهل المدينة مالك بن أنس قد طارت ومعها شهرة كتابه الموطأ ، لذلك اتجه نحو شبه الجزيرة ، وفي المدينة تعرف الى الامام مالك وأخذ عنه ، وسمع منه الموطأ ودونه من سماعه ، وتعتبر رواية محمد بن الحسن للموطأ من أفضل الروايات له قدماً وصحة وضبطاً ، وحين دوّن محمد بن الحسن الموطأ دوّنه بترو في مدة ثلاث سنوات ، وذكر بعد كل حديث أو فقرة فقهية ما اذا كان ذلك يتفق مع فقه أبي حنيفة أم يختلف ـ وقد أتيح لي تفحص هذا العمل الجليل في نسخة خطية شبه كاملة من هذا الموطأ هي في حوزتي حيث يمكن وصف عمل محمد بن الحسن فيها بأنه محاولة رائدة في باب الخلاف الفقهي العالي ٠

ومفيد أن نشير هنا أنه أثناء أخذ محمد بن الحسن على الامام مالك

جاء محمد بن ادريس الشافعي للأخذ على الامام مالك ، وبذلك حدث التعارف الأول بين الشيباني والشافعي ٠

وحج الشيباني الى مكة ، وهناك لزم كبار العلماء ، وأخذ عنهم مثل سفيان ابن عيينة وسواه ، كما أنه رحل الى الشام فأخذ عن الامام الأوزاعي ، وزار البصرة وخراسان آخذاً عن كبار العلماء ٠

وبعدما استكمل رحلاته عاد الى عراق الخلافة العباسية فاستقر في بغداد ، وطارت شهرته ، واختلف التلاميذ اليه ينهلون من علمه ، وقام الخليفة الرشيد بتوليته القضاء ، وأثناء ولايته لهذا المنصب لقيه الامام الشافعي ثانية ، حيث حدث أن الشافعي حمل من نجران الى الرشيد مكبلا بالحديد متهماً بالتآمر السياسي ، وجرت محاكمته بحضرة الخليفة وحضور القاضي محمد بن الحسن الشيباني مما سهل أمر اطلاق سراحه ، وانقاذه من ظلام الوظيفة واعادته الى نور العلم حيث أن الشافعي قام بالتزام الشيباني لمدة عامين تقريباً أخذ عنه فيهما فقه أهل العراق ٠

ويبدو أن الامام محمد بن الحسن لم يمكث في القضاء طويلا حيث تخلى عنه واعتزل العمل الاداري ، ووقف نفسه على الفقه تعليماً وتصنيفاً ، وبعمله هذا بنى عملياً مذهب أبي حنيفة ، ذلك أن التراث الفكري المدون لفقه أهل العراق جله من انتاج الامام الشيباني الذي يمكن اعتباره لهذا الباني الفعلي للمذهب الحنفي ٠

لقد جاء طلاب العلم الى الامام الشيباني من مشارق العالم الاسلامي ومغاربه، وكان أبرز من أخذ عليه من أهل الغرب الاسلامي أسدبن الفرات، فاتح صقلية ، وصاحب المدونة الأولى في تاريخ الفقه المالكي ، حيث أن مدونته هي أصل مدونة الامام سحنون الشهيرة ٠

لقد تحدث أسد بن الفرات عن اتصاله بالامام مالك ثم سفره الى العراق حيث لزم محمد بن الحسن الشيباني ، وذكر أنه قال في احدى المناسبات : « اني غريب قليل النفقة ، والسماع منك نزر والطلب عندك كثير فما حيلتي » ؟ فقال لي : « اسمع من العراقيين بالنهار وقد جعلت لك الليل وحدك فتأتي فتبيت عندي وأسمعك » قال أسد : « فكنت أبيت عنده، وكنت (معه) في بيت في سقيفة ، وكان يسكن العلو ، فكان ينزل الي ، ويجعل بين يديه قدحاً فيه ماء ثم يأخذ في القراءة ، فاذا طال عليه الليل

ورآني قد نعست ، ملأ يده ونضح به في وجهي ، فأنتبه ، وكان ذلك دأبي ودأبه حتى أتيت على ما أريد من السماع عليه » ٠

في هذا الحديث صورة رائعة تعبر عن مدى حرص الامام محمد بن الحسن الشيباني على مساعدة طلاب العلم خاصة الغرباء منهم ، وتكتمل بعض جوانب هذه الصورة وتزداد روعة فيما ذكره أيضاً أسد بن الفرات بقوله : وكنت يوماً جالساً في حلقة محمد بن الحسن ، حتى صاح صائح الماء للسبيل ، فقمت مبادراً فشربت من الماء ، ثم رجعت الى الحلقة ، فقال لي محمد بن الحسن : يا مغربي شربت ماء السبيل ؟ فقلت : أصلحك الله ، وأنا ابن سبيل ، قال : ثم انصرفت ، فلما كان الليل اذا بانسان يدق الباب فخرجت اليه ، فاذا خادم محمد بن الحسن ، فقال : مولاي يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : ما علمت أنك ابن سبيل الا في يومي ، فخذ هذه النفقة فاستعن بها على حاجتك ، ثم دفع الي صرة ثقيلة ، فقلت في نفسي : هذه كلها دراهم ، ففرحت بها ، فلما دخلت منزلي فتحتها فاذا فيها ثمانون ديناراً(١) ٠

لا يعلم بين سير الأئمة الا ندرة صبروا صبر محمد بن الحسن في تعليم تلاميذه ، وآثروهم في الانفاق والوقت ، ولا عجب ، فالشيباني كان اماماً عاملا آمن بالاسلام عن فهم وعقل، واتخذ سيرة النبي المصطفى مثله الأعلى٠

لقد زق محمد بن الحسن أسد بن الفرات بالعلم زقاً ، وكان الامام مالك قد توفي ٠ وفي طريق عودته الى القيروان حمل معه زاداً عظيماً دونه في كتاب عُرف بالمدونة الأسدية ، وهي كما أشرت أصل مدونة سحنون، وعليها قام فقه المالكية ، وهكذا نرى الأثر العظيم لمحمد بن الحسن اسلامياً شاملا ، فهو الباني الفعلي للمذهب الحنفي ، وهو من جهة ثانية أستاذ الامام الشافعي ، ومن طرف ثالث أستاذ أسد بن الفرات ، ولا عجب أن قال عنه الامام الشافعي : « لو أشاء أن أقول نزل القرآن بلغة محمد بن الحسن لقلت ، لفصاحته، وقد حملت عنه وقر بختي كتباً» وقال : «مارأيت أحداً يُسأل عن مسألة فيها نظر الا تبينت الكراهة في وجهه الا محمد بن الحسن »(٢) ٠

---

١ ــ رياض النفوس للمالكي ــ ط ٠ القاهرة : ١/١٧٣ ــ ١٧٦ ٠
٢ ــ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي : ٢/١٧٥ ٠ فوات الوفيات لابن أيبك : ٢/٣٣٣ ٠

وكما سلفت الاشارة عمل الامام محمد بن الحسن في القضاء فتـرة وجيزة ، وكان له علاقات بالخليفة الرشيد ، انما يلاحظ أن هذه العلاقات ظلت متوازنة ، حافظ فيها على رونق العلم ، وجلالـة العلماء ، فقـد ذكر أحد معاصريه قال : « كنا مع محمد بن الحسن ، اذ أقبل الرشيد ، فقام اليه الناس كلهم الا محمد بن الحسن ، فانه لم يقم ، وكان الحسن بن زياد ثقيل القلب ، ممتلىء البطن على محمد بن الحسن ، فقام ودخل الناس من أصحاب الخليفة ، فأمهل الرشيد يسيراً ، ثم خرج الآذن ، فقال : محمد بن الحسن ، فجزع أصحابه له ، فأدخل فأمهل ، ثم خرج طيب النفس مسروراً ، فقال : قال لي : مالك لم تقم مع الناس ؟ قلت كرهت أن أخرج عن الطبقة التي جعلتني فيها ، انك أهلتني للعلم ، فكرهت أن أخرج منه الى طبقة الخدمة التي هي خارجة منه ، وان ابن عمك صلى الله عليه وسلم قال : « من أحب أن يتمثل له الرجال قيامـاً ، فليتبوأ مقعده من النـار » وأنه انما أراد بذلك العلماء ، فمن قام بحق الخدمة واعزاز الملك فهـو هيبة للعدو ، ومن قعد اتبع السنة التي عنكم أخذت ، فهو زين لكم ، قال : صـدقت يا محمـد » .

كان محمد بن الحسن قوي الذاكرة ، شديد الوعي ، سريع البديهة ، أتقن صناعة القياس واستخدام الرأي بشكل بارع للغاية ، انما في حدود الشريعة وفي نطاق معطياتها ، قبل بأنـه لما اتصل بالامـام مالك سألـه : « ما تقول في جنب لا يجد الماء الا في المسجد ؟ فقال مالك : لا يدخل الجنب المسجد ، قال : فكيف يصنع وقد حضرت الصلاة ، وهو يرى الماء ؟ قال : فجعل مالك يكرر : لا يدخل الجنب المسجد ، فلما أكثر عليه : قال له مالك : فما تقول أنت في هذا ؟ قال : يتيمـم ويدخل فيأخـذ الماء من المسـجد ، ويخرج فيغتسل . قال : من أين أنت ؟ قال : من أهل هذه ـ وأشار الـى الأرض ـ فقال : ما من أهل المدينة أحد لا أعرفه ، فقال : ما أكثر مـن لا تعرف ، ثم نهض ، قالوا لمالك : هذا محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة ، فقال مالك : محمد بن الحسن كيف يكذب ، وقد ذكر أنه من أهل المدينة ؟ فقالوا : انما قال : من أهل هذه ، وأشار الى الأرض ، قال : هذا أشد علي من ذاك »(٣) .

توفي محمد بن الحسن سنة تسع وثمانين ومائة (٨٠٤ م) في مدينة الري ـ قرب طهران الحالية ـ وقد كان خصب الانتاج ، وهو بسبب ذلك

٣ ـ تاريخ بغداد : ١٧٤ ـ ١٧٥ .

اعتبر فقيه مدرسة العراق الأعظم مكانة ، ومدون تراث هذه المدرسة ، وقد كتب محمد بن الحسن عدداً كبيراً من الكتب وقفها على مواضيع فقهية عامة متعددة ، كما كتب بعض الرسائل وقف كل منها لموضوع فقهي خاص ، وكان آخر ما كتبه قبيل وفاته كتاب الكسب ·

★ ★ ★

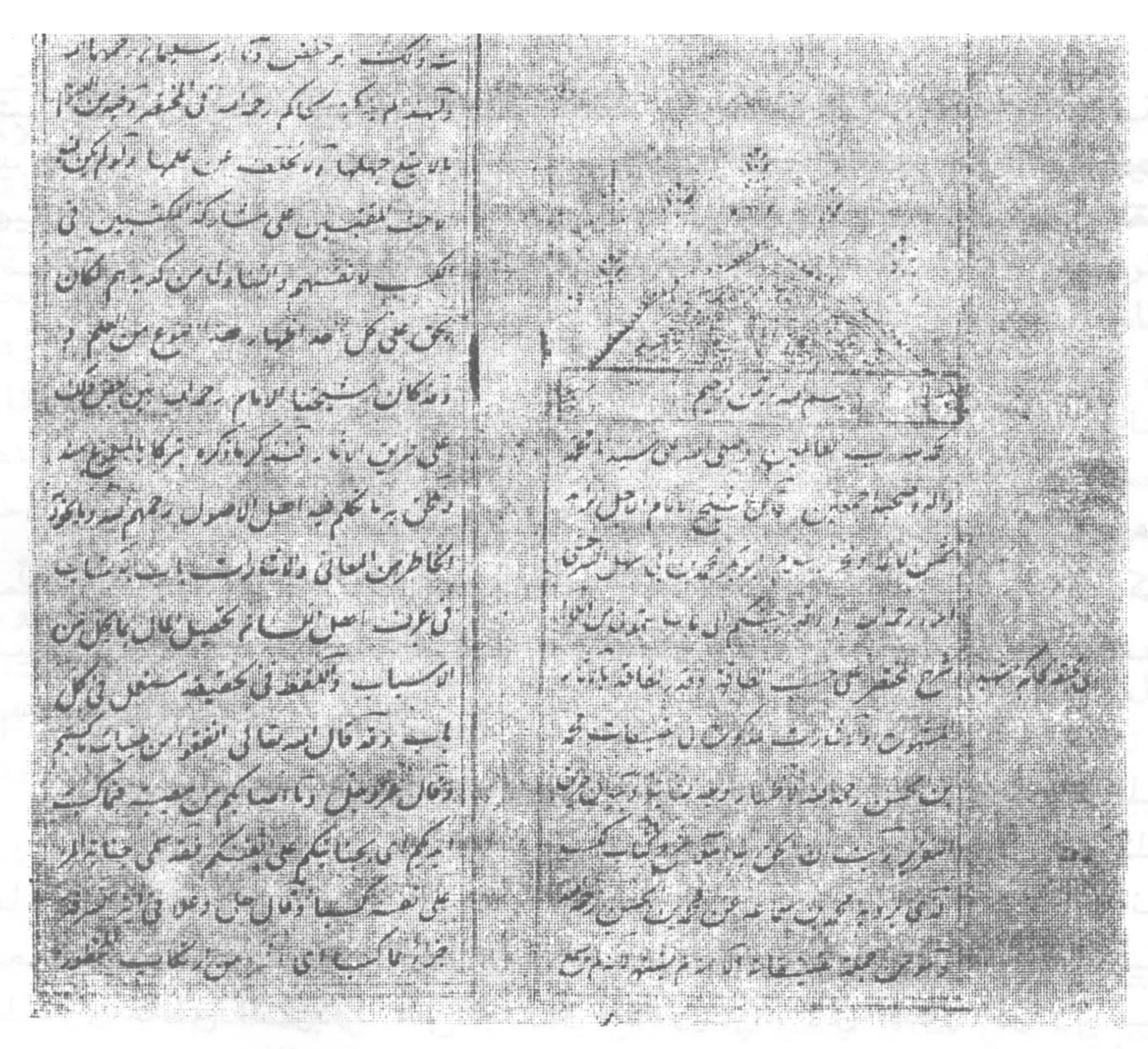
كتاب الكسب

روى هذا الكتاب عن محمد بن الحسن تلميذه محمد بن سماعة التميمي ، كما شرحه فيما بعد الامام السرخسي كما شرح غيره من كتب الشيباني ، لكن جاء شرحه منفصلا ولم يدخله في مجموعة المبسوط العملاقة ·

لقد جاء هذا الكتاب بالأصل صغير الحجم ، أملاه صاحبه على طريقة الآثار ، وكان من دوافعه الى تصنيفه ، وذلك بالاضافة الى تلبية الحاجة ، الرد على حركة الزهد الأعجمي التي نشطت في القرن الثاني للهجرة مع نشاط الديانة المنانية (حركة الزندقة) والحركة الشعوبية ، كما حوى بعض الردود على جماعة القدرية ، وفي مسار الردود هذه استعرض الشيباني مشكلة الكسب وموقف الشريعة منها ، مبينا أوجه الحلال والحرام مع طرائق وقوانين الكسب ، مستشهداً خلال ذلك كله بالعديد من الآيات والأحاديث والآثار المروية ·

ولعل من الأفضل قبل الاستطراد في الحديث عن محتويات هذا الكتاب بشكل مفصل أن نبين ، أن كتاب الشيباني هذا عظيم القيمة ، لأنه يحوي خلاصة فكر باني المذهب الحنفي ، ومواقفه خاصة مشكلة الحرية في التصرف الاقتصادي وحق السلطة في التدخل والتسعير ، ثم كما قلت سابقا هذا الكتاب المبكر التاريخ هو المحاولة الأولى في العربية في بابه ·

لقد صنف هذا الكتاب في مرحلة مبكرة للغاية في تاريخ الأدب العربي، لهذا تميز بعدة مزايا ، فجاء عرض موضوعاته كتلة واحدة ، ثم ان المصنف لم يقم بتقسيم الكتاب الى عدة أقسام يتناول في كل منها واحداً من المواضيع ، بل نراه يقوم بتناول الموضوع الواحد في أكثر من مكان ، وعدة مرات بشكل موجز أو واسع ·



الصفحة الأولى من المخطوط

في مطلع الكتاب تعرض المصنف الى تعريف « الكسب » فقال : الاكتساب « تحصيل المال بما يحل من الأسباب » وهنا تحدث بشكل عام عن جوانب الاكتساب وضرورة القيام به ، كما بين أنواع المكتسبات بشكل عام ، ودعم ما ذهب اليه بعدد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، مبيناً أن لفظ « الاكتساب » بشكل عام يتناول المال ، ولكن الانسان قد يكسب أشياء كثيرة غير المال منها ما يفيد بها نفسه ، ومنها ما يضرها به ٠

ان العصر الذي عاش فيه محمد بن الحسن الشيباني قد تميز بالصراعات بين عدة تيارات دينية وفكرية ، فقد شهد هذا العصر محاولات الديانات التي كانت موجودة قبل الاسلام للعودة الى النشاط بشكل صريح ومباشر أو شكل غير مباشر ، وكان من أهم هذه الديانات « الديانة المنانية »

التي جاء بها ماني في القرن الثالث للميلاد ، والتي مزج فيها بين تعاليم الزرادشتية والمسيحية والغنوصية واليهودية وسواها ، وعرف نشاط هذه الديانة عند المسلمين باسم حركة الزندقة ، وحاربت الزندقة ضد الاسلام بشكل مباشر ، أو عن طريق الشعوبية ، أو بواسطة ايجاد حركة زهد منانية المحتوى ، اسلامية المظهر ، سلبية السلوك ، تريد انهاء الحياة بالغاء العمل والكسب ، وبالأخذ بعدم الحركة والخمول الى غير ذلك ٠٠٠

وقد تجرد عدد كبير من علماء العرب للرد على « المنانية » والتصدي لما قدمته بشكل مباشر أو غير مباشر من أفكار ، ويمكن أن ننظر الى كتاب الكسب ومشكلة المحرض على تصنيفه من هذه الزاوية ٠

روى المصنف في مطلع الكتاب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « طلب الكسب فريضة على كل مسلم كما أن طلب العلم فريضة » وبين بشكل فيه نظرة اجتماعية واسعة قائمة على المزج بين المفاهيم الدينية والدنيوية فقال : طلب الكسب يمكن من أداء الفرائض بقوة البدن ، لأن الكسب يجلب القوت ، ولتحصيل القوت طرق هي : « الاكتساب ، أو التغالب أو الانتهاب » وبالانتهاب يستوجب الانسان العقاب ، وفي التغالب فساد ، وعلى هذا « في الكسب نظام العالم » « وفي تركه تخريب نظامه » ٠

ويتم الاكتساب بالكد والتعب ، وهنا تأتي منافع الاكتساب عامة وضرورية ، فالزارع يكسب لنفسه ، لكنه يفيد بانتاجه الجماعة ، والصانع يفعل نفس الشيء ، ولا يمكن أداء العبادات بدون كسب ، فالصلاة مثلا تقتضي الوضوء ، والمتوضيء يحتاج الى الماء ، والماء لا بد له من وعاء يوضع به ، كما أن المصلي يحتاج الى الثوب لأنه لا يمكنه أداء الصلاة عارياً ، وعلى هذا كان العمل للكسب فرضاً « لأن مالا يتأتى اقامة الفرض الا به يكون فرضاً في نفسه » ٠

والكسب يكون بواسطة أربعة أصناف من العمل هي « الاجارة والتجارة ، والزراعة والصناعة » وقد بين ابن الحسن أن بعض الناس يفاضل بين هذه الأصناف ، والبعض الآخر يراها متساوية ، ومسألة المفاضلة هذه يمكن أن نرى فيها صدى للصراع بين طبقات المجتمع أيام تصنيف الكتاب ٠

وقد أوضح الامام الشيباني بأن المجتمع بحاجة الى جميع الأصناف ،

ونظرا لذلك فالمفاضلة باطلة ، وهنا تعرض المصنف الى مسألة خطيرة ، وخاصة على صعيد الحرية المطلقة في المذهب الحنفي ٠

فأبو حنيفة مؤسس هذا المذهب كان بالأصل تاجراً ، ولهذا آمن بالحرية التجارية ، وبعدم جواز تدخل الدولة في أي جانب من جوانب العمل التجاري ، خاصة قضية التسعير حيث أن المسعر هو الله ٠

بعدما بين الامام الشيباني أن الكسب مباح ، لا بل هو فرض ، طرح سؤالا محتواه : الى أي حد على الانسان أن يعمل ليكسب ؟ فقال : ان البعض يرى أن الكسب مباح بلا حدود ، وقام هو برفض هذا الرأي ، وبين أن رأي جمهورالفقهاء آن الكسب ينبغي أن يكون فقطفي حدود الحاجة والمنفعة الخاصة العامة ، وأوضح أن في انصراف الانسان في جميع أوقاته للكسب خروج على أوامر الله وما تحتاجه الحياة من توازن وتوزيع للجهود والوقت ، فالانسان مندوب للعبادة مفروض عليه التفرغ للعلم ، والاقبال على العلم فيه عظيم المنافع للناس جميعاً ٠

وفقط « الكسب بقدر ما لا بد منه فريضة » وما تجاوز الحاجة يغدو جناية ، وما لا بد منه هو تأمين الكفاية للنفس والعيال والأهل ، بما يقيم الأود ويسد الحاجة ، ويزيل الدَّين ، وفي هذا المقصد روى المصنف عن أبي ذر الغفاري قوله : « أفضل الأعمال بعد الايمان الصلاة وأكل الخبز ، ولولا الخبز ما عبد الله تعالى » ٠

ان الانصراف المطلق الى الكسب أي تحصيل المال وجمعه فيه اخلال بنظام الحياة ، ذلك أن ثروات الدنيا تكفي فقط الناس جميعاً ، واحتكار البعض زيادة عن الآخرين فيه اخلال بالتوازن لا يجوز الرضى به والسكوت عنه ، وبعد هذا استطرد الامام الشيباني ليوازن بين الفقر والغنى ، فبين أن كثيراً من الناس يفضل الغنى والأغنياء ، وهنا أوضح أن هذا انحراف ذلك أن في الغنى طغيان ، واستشهد بقوله تعالى : « كلا ان الانسان ليطغى » (العلق : ٦) وقوله سبحانه : «الذين طغوا في البلاد»(الفجر:١١) وقال : ان القناعة خير من الفقر والغنى « ولو أن الناس قنعوا بما يكفيهم وعمدوا الى الفضول فوجهوها لأمر آخرتهم كان خيراً لهم » ذلك أن « ما زاد على ما لا بد منه يحاسب المرء عليه » وفي جميع الأحوال في الكسب لتحصيل الغنى استرسال في اتباع الشهوات ، وصحيح أنه « زين للناس حب الشهوات » (آل عمران : ١٤) ولكن الذين « اتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً » (مريم : ٥٩) ٠

ان في هذا التفكير ليس عدول منهجي عظيم في فقه المذهب الحنفي وانما ريادة مبكرة في التشريع الاجتماعي ـ أو ما يدعى حالياً باسم النظرة الاشتراكية ـ وهي نظرة اسلامية أصيلة ، قدم المصنف بعض جوانبها الأخرى حين تحدث عن أن المجتمع لا بد من أن يوجد فيه من يحتاج الى اطعام وكساء وغير ذلك ، نظراً لعجزه لاقعاد السن له ، أو لمرض معوق ، وهنا قال كما يفترض على امة فداء من يقع من أفرادها في أسر الأعداء عليها « اطعام المحتاج في الوقت الذي يعجز عن الخروج والطلب » وأوضح ابن الحسن في هذا المجال أنه « لا يجوز للقادر السؤال ولا الأخذ » بل عليه الكسب ·

وبعد ما عرض لمسائل الكسب ، تعرض الامام الشيباني لقضايا الانفاق ، فالله تعالى بعد ما حض على الكسب ، أمر عباده بالانفاق بقوله : « أنفقوا من طيبات ما كسبتم » (البقرة : ٢٦٧) وهنا على الانسان عدم الاسراف في الطعام والاستكثار من المباحات والألوان ، فمن « الاسراف أن يضع المرء على المائدة من ألوان الطعام فوق ما يحتاج اليه للأكل ··· ومن الاسراف أن يأكل وسط الخبز ويدع حواشيه ، أو يأكل ما انتفخ من الخبز ··· ومن الاسراف التمسح بالخبز عند الفراغ من الطعام » ···

وكما يتصرف المرء تجاه الطعام عليه أن يفعل في الملبس والمسكن وغير ذلك مما يرتبط بالحياة ، فالنبي صلى الله عليه وسلم قد « نهى أن يلبس نهاية ما يكون من الحسن والجودة في الثياب على وجه يشار اليه بالأصابع » بل أوصى بلبس الثوب الجيد وترك السيء لأن الأصل في الثوب ستر العورة ودفع أذى الحر والبرد ، وكان صلى الله عليه وسلم يهتم في عامة أوقاته بالنظافة والانسجام ، ويرتدي في المناسبات من أعياد ومواسم بعض الثياب الرائعة ·

وأثناء عرض المؤلف لمشكلة الطعام واللباس يمكن استخلاص بعض الصور الحضارية عن حال المسلمين في القرن الثاني للهجرة والتعرف الى أنماط من مشاكلهم آنذاك ، فهم مثلا كانوا يتجادلون حول بناء المساجد وزخرفتها والتأنق في المآذن مع مشاكل التجصيص للبيوت والمساجد ومشاكل استخدام الأثاث وأنواعه الى غير ذلك مما هو ثمين للغاية للمؤرخ الحضاري ·

وكما سلفت الاشارة ان جميع ما عرضه الامام ابن الحسن جاء من آحد الجوانب رداً على أصحاب تيار الزهد الأعجمي ، لم يكتف بهذا بل قام بالرد المباشر وذلك بعد عرض لأقوالهم وأفكارهم بقوله : « وقال قوم من جهال أهل التقشف وحماقى أهل التصوف : ان الكسب حرام لا يحل الا عند الضرورة بمنزلة تناول الميتة ... » .

ولقد جاءت ردوده المباشرة مفحمة اعتمد فيها النقل والعقل حيث قدم عدداً من الآيات والأحاديث النبوية التي تأمر بالكسب وتحض عليه ، ثم ذكر بأن الكسب هو طريق المرسلين ، ونحن قد أمرنا بالاقتداء بهم ، فآدم كان مزارعاً ، ونوح كان نجاراً ، وابراهيم كان بزازاً ، وداود عمل في صناعة الدروع ، وزكريا كان نجاراً ، وعيسى كان يأكل من أجر غزل أمه ، والنبي محمد عمل في التجارة وغير ذلك مثل رعاية الأغنام ، ثم ان الصحابة جميعاً كانوا يكسبون ، فأبو بكر كان بزازاً ، وكان عمر يعمل بالأدم (الجلد) وعثمان كان تاجراً ، وقد أجر علي نفسه أكثر من مرة ليكسب قوت يومه .

والانسان على الرغم من الاقرار بأن الله قد قدر رزقه ، ولاراد لقدر الله ، يفترض عليه الكسب ، فالمؤمن مطلوب منه الدعاء مع القدر ، والنبي كان يدعو الله لنفسه ولأصحابه بالمغفرة والجنة رغم معرفته بأنه سيدخل الجنة ، ومعلوم أننا مطلوب منا استعمال الدواء أثناء المرض ، رغم أن الشافي هو الله جلت قدرته .

وبعد هذا التفت الى أهل الزهد الأعجمي وخاطبهم بهزء وازدراء ونعى عليهم قبولهم طعام من أطعمهم من أهل الكسب ، كل هذا رغم أن الكاسب قد اقترف الحرام بكسبه ... المسألة ليست كذلك ، انها كسل وذل ، وسعي ليدخل الى الاسلام ما ليس منه .

★ ★ ★

ومن قراءة أواخر رسالة الكسب يلاحظ أن الامام ابن الحسن بعدما فرغ من تصنيف رسالته في « الكسب » أراد أن يصنف رسالة خاصة في الورع ، وبالفعل شرع بذلك لكن بعدما مضى في عمله قليلا « اعترض له داء فجف دماغه ولم يتم مراده » ...

الدولة الرستمية في تيهرت

د . سهيل زكار

جامعة دمشق

بعدما قامت الخلافة العباسية ، وقعت هذه الدولة أسيرة لمشاكل الشرق الاسلامي ، مما اضطرها في كثير من الاحيان الى عدم الاهتمام بمشاكل الغرب الاسلامي ، ولهذا نلاحظ أن قوى كثيرة نشطت في أجزاء من الغرب ، واستطاعت اقامة دول مستقلة عن الخلافة العباسية .

ومن الملاحظ أن الغرب الاسلامي ، بعدما دخل في الاسلام ، قامت فيه حركات كبيرة معارضة للحكم الاموي ، وكان جل هذه الحركات في بداية القرن الثاني يؤمن بأفكار الخوارج ، وينتسب الى احدى فرقهم ، وقد نجم عن حركات الخوارج نتائج كبيرة ، كان أبرزها قيام دولة الائمة الرستميين في تيهرت (بعمالة وهران الحالية في الجزائر) ودولة بني مدرار في سجلماسة في المغرب الاقصى ، ويمكن أن نضيف اليهما دولة برغواطة في المغرب الاقصى على شواطىء الاطلسي ، ايضا .

ودولة الائمة الرستميين الخارجية ، هي أول دولة « فارسية » تأسست في الاسلام ، وقد أسس هذه الدولة سنة ١٤٤ هـ/٧٦١ م عبد الرحمن بن رستم ، الذي كان ايراني الاصل ، قدم المغرب بعد فتحه ، والتحق بجماعات الاباضية من خوارج المغرب ، وكان رأسهم يعرف بأبي الخطاب ، وقد استقر أبو الخطاب في وقت تأسيس الدولة العباسية في طرابلس الغرب .

وفي هذا الوقت كان قد تغلب على جزء كبير من المغرب حبيب بن عبد الرحمن الفهري ، وظل هكذا حتى قهرته قبيلة ورفجومة البربرية ، وغلبته على أمره ، وقامت هذه القبيلة بزعامة عاصم بن جميل باقتحام مدينة القيروان ، فقتلت كل قرشي كان فيها ، واستباحتها واستهانت بحرمة مساجدها .

وأغضبت هذه الفعلة الشنعاء أبو الخطاب الاباضي ، فتحرك من طرابلس الى القيروان فاحتلها ، وجاء هذا في وقت وصلت فيه أخبار افريقية الى مسامع أبي

جعفر المنصور ، فقام بارسال جيش كبير بقيادة محمد بن الاشعث ، نحو المغرب ، وكلفه بابعاد خطر الخوارج عن مصر ، والعمل على تشتيت قواهم في المغرب .

وحين علم ابو الخطاب بأخبار حملة ابن الاشعث ، غادر القيروان نحو طرابلس، واناب في القيروان عبد الرحمن بن رستم ، وبعد معارك طاحنة هزم ابن الاشعث جيوش الاباضية ، وقتل زعيمهم أبو الخطاب ، ثم توجه نحو القيروان ، فخرج منها ابن رستم فارا مع ثلة من رجال الاباضية ، ولاحقته قوات ابن الاشعث ، ولم يكن معه ورجاله الا فرس واحد ، فمات ببعض الطريق ، ودفنوه مخافة ان يقتفى اثرهم ، فيطمع فيهم من يتبعهم ، ويجتهد في طلبهم ، ان علم بموت فرسهم ، وقد ضعفت قوة الشيخ عبد الرحمن فصار يحمله عبده تارة وابنه تارة ، فـاذا حمله العبد قال له عبد الوهاب : ان أدركنا العدو فلا تضعن أبي الا دون خمسمائة أو نحوها ، فاذا أعيا العبد حمله عبد الوهاب ، فقال له العبد مثل ذلك » .

وتابع عبد الرحمن فراره حتى التجأ الى جبل اسمه « سوف اجج » وكـان جبلا منيعا ، ومن هناك راسل بقايا أباضية افريقية واباضية نفوسة طرابلس ، فلحقوا به ، وكثر من جديد عدد أتباعه « وتسامع ابن الاشعث بخبر عبد الرحمن ، واجتماع الناس عليه فأقبل مجدا في طلبه ، فأخبر أنه في جبل منيع يقال له سوف أجج ، فقصده حتى وصله ، وحاصر عبد الرحمن بن رستم وأحدق على عسكره في حصاره اياه ، مخافة أن يفاجئهم عبد الرحمن ومن معه ... ويطرق عليهم بليل ، فأطال المقام تحته ، فوخم عسكر ابن الاشعث ، ووقع فيه الجدري ، فمات منهم بشر كثير ، وجمع ابن الاشعث أصحابه وقال لهم : ان هؤلاء القوم في جبل منيع .. لا يدخله الا دارع ، أو مدجج ، ماذا ترون فاشار عليه بعضهم بالاقامة ، وأشـار عليه آخرون بالارتحال عنهم ، فأخذ برأي الذين أشاروا عليه بالارتحال ، فارتحل الى مدينة القيروان ، وقد أيس من عبد الرحمن وأصحابه » .

وبعد رحيل ابن الاشعث نزل عبد الرحمن بن رستم من الجبل ، وشـرع بارتياد مكان في الداخل يتخذه الاباضية مقرا لهم ، بعيدا عن القيروان وغيرها من الحواضر ، قريبا من منازل القبائل . لذلك اتجه نحو الغرب ، وارسل رجالا مـن ذوي المعرفة وفرقهم في الجهات ، ولدى استكمال عملية البحث هذه نزل كما هو مرجح سنة ١٦١ هـ/٧٧٨ في غيضه في سفح جبل جزول ، فاختار منها موضعا مربعا لا شعراء فيه ، فنزل فيه ، فقالت البربر : نزل تيهرت (وتفسيره الدف لتربيعه) . واختط عبد الرحمن موضع مدينة جديدة ، أو بشكل أدق موضع معسكر جديد للاباضية ، واستعمل خشب الغابة في بناء المسجد وأكواخ المعسكر ، وسرعـان

ما تطور هذا المعسكر وتحول الى مدينة ذات منازل واسعة وقصور واسواق ، وطارت شهرتها .

وفي الادب التاريخي للاباضية روايات ضافية التفاصيل حول تأسيس تيهرت ، متأثرة بالروايات التي تحدثت عن تأسيس القيروان من قبل عقبة بن نافع ، ففي كتاب طبقات المشايخ للدرجيني ، أن الاباضية عندما « اتفقوا على عمارتها (تيهرت) أمروا مناديا ينادي بسباعها ووحوشها وهوامها أن اخرجوا ، فانا أردنا عمارة هذه الارض ، فأجلوها ثلاثة أيام ، وبلغنا انهم رأوا وحوشها تحمل أولادها خارجة بها منها ، فكان ذلك سما رغبهم في عمارتها ، وقوى عزمهم على انشائها » . ولعل الذي سبب خروج الحيوانات من وسط الغابة التي اختيرت لتكون أرض معسكر ، ثم مدينة جديدة ، هو أن الاباضية « أطلقوا النيران فاحترقت أشجارها » والطريف هنا ما تجمع المصادر المبكرة في الحديث حوله : مسالة التخلص من جذور الاشجار بعد احراق جذوعها ، فقد جاء أن الاباضية « عمدوا الى حيس (دقيق) فلثوه بعسل وجعلوا تحت أصل كل شجرة منها شيئا قليلا ، فلما جن الليل طرقت الخنازير تلك الاصول ، فجعلت تتبع رائحة الحيس ، وتحفر تحت الاصول ، حتى أتت على آخرها ، فلما أصبحوا وجدوها مقتلعة ، فعمدوا الى مكان فأصلحوه لصلاتهم ، فلما أرادوا بناءه ، وقع اختيارهم على أربعة مواضع فأقرعوا عليها ، أيها يجعل المسجد الجامع ، فوقعت القرعة على المكان الاول ، الذي أصلحوا الصلاتهم ، فبنوا الجامع به» .

وعندما وقع الاختيار على موقع المدينة الجديدة ، روعيت مسألة توافر المياه ، ولهذا وصفت فيما بعد بأنها واقعة « على نهر يأتيها من جهة القبلة ، ونهر آخر يجري من عيون تجتمع ، تسمى (نافس) ومنها شرب بساتينها ، وهي في شيء ، وفيها جميع الثمار ، وهي شديدة البرد كثيرة الغيوم ، والثلج » وقد وصف أحد شعراء تيهرت مدينته في القرن الثالث بقوله :

ما أحسن البرد وريعانه	وأطرف الشمس بتاهرت
تبدو من الغيم اذا ما بدت	كأنها تنشر من تحت
فنحن في بحر بلالجة	تجري بنا الريح على السمت
نفرح بالشمس اذا ما بدت	كفرحة الذمي بالسبت

وبرد تيهرت مرده الى أنها تقع على ارتفاع /١١٠٠ م/ وكانت تشرف على منطقة سهول منداس ، وعلى الطريق الموصلة من هذه المنطقة الى ساحل البحر الابيض المتوسط ، عابرة لسهول وادي شلف . وجعل منها وجودها قرب منطقة سباسب

شاسعة صالحة للرعي ، مركزا لاتصال مستمر بين البدو الرحل ، وسكان المدن والبلدان والقرى . وكان هذا من العوامل التي ساعدت فيما بعد على ازدهار الحركة التجارية فيها . يضاف الى هذا أنه انتهى قرب تيهرت طرف جبل ونشريس ، الذي سكنته قبائل من البربر كثيرة .

خطط للمدينة الجديدة أربعة أبواب ، وواضح أن عبد الرحمن بن رستم لم يؤسس مدينته الجديدة في بقعة غير مأهولة ، بل في منطقة كثيفة السكان ، لكن بلا حواضر كبيرة ، يضاف الى هذا أن اختيار عبد الرحمن لموقع مدينته لم يأت بدعا ، فعلى بعد خمسة أميال فقط من مدينته الجديدة ، كان يوجد بقايا مدينة عرفت في عهود ما قبل الاسلام ، وربما في العصر الروماني ، وباتت تدعى الان باسم تيهرت القديمة .

لحسن الحظ أن الادب الاباضي غني بالكتابات التاريخية المفيدة ، لكن من المفيد ان نبين هنا أنه على أهمية المواد الاباضية ، فان أحسن المواد عن تيهرت وتطور تاريخها نجده لدى واحد من المؤرخين الافارقة من غير الاباضية ، وهو ابن الصغير المالكي القيرواني . عاش ابن الصغير بين الاباضية ، وجمع أخبار دولة تيهرت ، وتحرى في سردها الصدق والحياد ، بعدما أخذ على نفسه : « لا أحرفها عن معانيها ، ولا أزيد فيها ولا أنقص منها اذ النقص في الخبر والزيادة فيه ليس من شيم ذوي المروءات ، ولا من أخلاق ذوي الديانات ، وان كنا للقوم مبغضين ، ولسيرهم كارهين ، ولمذاهبهم مستقلين ، فنحن وان ذكرنا سيرهم على ما اتصل بنا ، وعدلهم فيما ولوه فلسنا ممن تعجبه طلاوة أفعالهم ، ولا حسن سيرهم ، لما نعلمه من براءتهم ممن والاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : من كنت مولاه فعلي مولاه » .

وبعدما استقرت أحوال الاباضية في تيهرت « اجتمع رؤساؤهم فقالوا : قد علمتم أنه لا يقيم امرنا الا امام نرجع اليه في أحكامنا ، وينصف مظلومنامن ظالمنا ، ويقيم لنا صلاتنا ، ونؤدي اليه زكاتنا ، ويقسم فيئنا ، فقلبوا أمرهم فيما بينهم فوجدوا كل قبيل منهم فيه رأس أو رأسان ، أو أكثر يدبر أمر القبيل ، ويستحق أمر الامامة ، وقال بعضهم لبعض أنتم رؤساء ولا نأمن من أن يتقدم واحد على صاحبه فتفسد نيته ، ولعل المقدم أن يرفع أهل بيته وعشيرته على غيرهم ، فتفسد النيات ، ويكثر الاختلاف ، ويقل الائتلاف ، ولكن هذا عبد الرحمن بن رستم لا قبيلة له يشرف بها ، ولا عشيرة له تحميه ، وقد كان الامام أبو الخطاب رضي لكم عبد الرحمن قاضيا وناظرا ، فقلدوه أموركم ، فان عدل فذلك الذي أردتم ، وان سار فيكم بغير عدل عزلتموه ، ولم تكن له قبيلة تمنعه » .

وهكذا قام خوارج تيهرت بمبايعة عبد الرحمن بن رستم بالامامة ، وعلى هذا اسس ابن رستم في آن واحد مدينة جديدة ، ودولة جديدة ، وحتى أسرة حاكمة جديدة .

وانتشرت بسرعة أخبار تأسيس الامامة الجديدة مع قيام تيهرت ، فنالت الولاء من خوارج المغرب الادنى والاوسط ، خاصة من سكان جبال نفوسة وأهل جزيرة جربة ، وبلغت هذه الاخبار مسامع الخوارج في المشرق ، خاصة في البصرة وعمان ، فجمع خوارج البصرة « أموالا عظيمة وبعثوا بها مع نفر من ثقاتهم ، وقال بعضهم لبعض : قد ظهر بالمغرب امام ملأه عدلا ، وسوف يملك المشرق ويملأه عدلا ، فانهضوا اليه بما معكم من هذه الاموال ، حتى تردوا المدينة التي سكنها ، فان كان على ما نقل لنا من حسن طريقته ، وصحة سيرته ، فادفعوها اليه ، وان كان على غير ذلك فانظروا الى أفعاله وما يتولاه من الاحكام بين رعيته ، ثم اتونا بذلك كله ، فمضى القوم حتى أتوا المدينة ... فأناخوا جمالهم ، ووضعوا أحمالهم ، وتقدموا .. يسألون كل من لقوه من الناس عن دار الامام عبد الرحمن حتى وقفوا عليها ، وأصابوا عند بابها غلاما يعجن طينا ، ورجلا على سطح يصلح شقاقا فيه ، والغلام يناوله ما يصلح به ، فسلموا على الغلام ، فرد السلام ، ثم قالوا : هذه دار الامام ؟ فقال : نعم ، فقالوا له : استأذن لنا ، وأعلمه أنا رسل اخوانه اليه من البصرة ، فرفع الغلام رأسه الى سيده ، وقد علم أنه سمع كلامهم ، فقال قل للقوم يصبرون قليلا ، ثم أقبل على ما كان عليه من اصلاح عمله ، حتى انقضى ، والقوم ينظرون اليه ، وهم شاكون فيه هل هو صاحبهم أم لا ، حتى نزل عن سطحه الى داره ، فغسل ما كان بيديه من أثر الطين ، ثم توضأ وضوء الصلاة فأذن للقوم ، فدخلوا عليه ، فوجدوا رجلا جالسا على حصير فوقه جلد ، وليس في بيته شيء سوى وسادته التي ينام عليها وسيفه ورمحه ، وفرس مربوط في ناحية من داره ، فسلموا عليه وأعلموه أنهم رسل اخوانه اليه ، فأمر غلامه باحضار طعامه ، فأتاه بمائدة عليها قرص سخنت وسمن وشيء من ملح ، فأمر بتلك القرص فهشمت ، وأمر بالسمن فلثت به ، ثم قال على اسم الله ادنوا ، وكلوا ، ثم اكل معهم بأكلهم ، فلما انقضى طعامهم قال : ما مرادكم ، وما جاء بكم ؟ » وقبل أن يجيبوه « استأذنوا للتنحي عنه للنجوى ، فأذن لهم ، فتناجوا واتفقوا أن يدفعوا له المال ، وأنهم بما عاينوه من أحواله راضون » فلما وصلت الاموال أعطيت لعبد الرحمن ، فقام بناء على مشورة أصحابه بتوزيع بعضها على الفقراء واشترى بالباقي سلاحا ومعدات .

وكان لهذه الصورة العمرية بمثاليتها عظيم الآثار ، حيث لما رجعت الرسل الى المشرق طارت أخبار عبد الرحمن وامامته ومدينته ، فقصدها مجموعات كبيرة

من خوارج المشرق ، مع جماعات من الايرانيين ، الى دعاة لمختلف أحزاب وفرق العالم الاسلامي ، وخاصة الواصلية من المعتزلة ، الى بعض التجار وأصحاب الصناعات وأرباب الحرف .

ونشطت حركة الهجرة الى هذه المدينة الناشئة ، وعظم عدد المهاجرين اليها من غير الخوارج ، وصار المهاجرون والتجار يبنون فيها البيوت الضخمة والقصور والاسواق ، والمتاجر . وصحيح أن المدينة قامت في الاصل لتلبية حاجات الاباضية ، لكن سرعان ما استقر بها فئات من السنة والمعتزلة ، خاصة الواصلية ، وبنى هؤلاء مساكنهم ومساجدهم . ويقول ابن الصغير واصفا سرعة تطور تيهرت : « وأتتهم الوفود والرفاق من كل الامصار ، وأقاصي الاقطار ، فقال ليس أحد ينزل بهم من الغرباء الا استوطن معهم وابتنى بين أظهارهم لما يرى من رخاء البلد ، وحسن سيرة امامه وعدله في رعيته ، وأمانه على نفسه وماله ، حتى لا ترى دارا الا قيل هذه لفلان الكوفي ، وهذه لفلان البصري ، وهذه لفلان القروي ، وهذا مسجد القرويين ورحبتهم ، وهذا مسجد البصريين ، وهذا مسجد الكوفيين ، واستعملت السبل الى بلد السودان والى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الامتعة» .

وبسرعة مدهشة تحولت المدينة الجديدة من معسكر عبد الرحمن الى مدينة كبيرة ، ومن مقر امامة مثالية زاهدة الى مقر دولة ودار ملك فخم ، وكثرت الاموال وعظمت الثروات ، وبينما هذا كله يحدث في المغرب ، كان خوارج المشرق يعيشون مع الصورة التي حملها اليهم الرسل ، وكانوا يقولون بعضهم لبعض : « امامكم بالمغرب ، خلف من ابي بلال مرداس بن ادبه ، ومن أبي حمزة الشاري » . واستمرت أعمال جمع الاموال لتبعث الى تيهرت للمساعدة ، وبالفعل تجمعت لدى خوارج البصرة كمية من المال قرروا مجددا ارسالها الى المغرب .

وحين قرر البصريون بعث المال : « أرسلوا الى رسلهم الاولين وأعلموهم بما جمعوه من المال ، وأن ذلك كله في سر وخفاء من العمال والاجناد ، لئلا يطلعوا عليهم ، فيهلكوهم ، وسألوهم كتمان ذلك ، فأجابتهم الرسل الى ما دعوهم اليه من حمل الاحمال وتوجيههم بها الى عبد الرحمن ، فلم تزل بذلك حتى أتت البلد ، ونزلت بالموضع الذي نزلت به أولا ، ثم توجهت نحو عبد الرحمن ، فوجدوا الامور قد تبدلت ، وأحوال المدينة والاشياء قد حالت ، وذلك انهم نظروا الى قصور قد بنيت ، والى بساتين قد غرست ، والى ارحاء قد نصبت ، والى خيول قد ركبت ، والى حفدة قد اتخذت الستور والعبيد ، والخدام قد كثرت ، فلما رأوا ذلك تحولت نياتهم » . ومع ذلك قصد الرسل دار عبد الرحمن فوجدوها قد تحولت

الى قصر منيف ، ومع هذا فقد لقوا عبد الرحمن « على ما عرفوا من التواضع » وتيقنوا بعد السؤال أنه « ما تغير ولا تبدل » فعند ذلك اعلموه بسبب قدومهم ، وما حملوه معهم من الاموال ، فرفض قبولها ، وطلب ردها لتصرف بين فقراء خوارج المشرق وقال : « انما كنا قبلنا ما قبلنا ... للحاجة التي كانت بنا .. والفاقة التي لزمت عوام اخواننا ، فالان اننا مستغنون عن أموال غيرهم » .

وتبعا لما لحق تيهرت من تطور تطورت فيها الحياة الاجتماعية ، وقام فيها نشاط تجاري وزراعي كبير ، وازدهرت فيها الحياة الاقتصادية ، وتطورت بها في نفس الوقت حركة ثقافية واسعة ، فغدت مركز اشعاع حضاري نحو قلب أفريقيا ، وباتت تعرف باسم « عراق المغرب » و « بلخ المغرب » .

وسادت الحرية الدينية في عاصمة الاباضية ، ومع ذلك لم ينس عبد الرحمن ابن رستم تعاليم دعوته ، والمخاطر القادمة من القيروان ، لذلك استمر يحارب حكام القيروان ، وقام بانشاء حلف مع خوارج سجلماسة على أطراف صحراء المغرب الاقصى ، وحقق بذلك ، وبحسن سياسته ، وبفضل سلوكه الشخصي ، وتقشفه في ملبسه ومأكله ومسكنه وتواضعه ، وكفاءة ادارته ، الاستقرار والقوة لدولته ، فتألفت عليها القلوب ، وتجمعت فيها فرق اسلامية مختلفة النزعات والاصول ، فكان بها خوارج من اباضية وصفرية ، كما كان فيها شيعة وسنة ومعتزلة ، يمثلون مختلف قبائل البربر مع جماعات من العرب والعجم .

ولما أدركت عبد الرحمن الوفاة سنة ١٦٨ هـ/٧٨٤ م جعل الامر من بعده «شورى في ستة نفر كصنع عمر بن الخطاب رضي الله عنه» وكماأدخل عمر بن الخطاب ابنه عبد الله معالشورى له حق الترجيح دون الترشيح ، أدخل عبد الرحمن ابنه عبد الوهاب انما مع حق الرشيح والانتخاب . فلما توفي عبد الرحمن ، وتداول القوم فيما بينهم ، أختار اكثريتهم ابنه عبد الوهاب وهكذا تغلبت فكرة التوريث على فكرة الانتخاب . وانكر بعض الاباضية ذلك ، فانفصلوا عن اباضية تيهرت ، فعرفوا بعد ذلك بالنكار . وسيكون لهؤلاء دور كبير جدا فيما بعد في الثورة ضد الخلافة الفاطمية في المهدية .

وفي عودة الى الادب التاريخي الاباضي ، وهو أدب غني فيه مواد رفيعة ، نجد أن النكار أعلنوا أولا عن معارضتهم لبيعة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم كلاميا فقالوا : « نبايعه على شرط أن لايقضي أمرا دون جماعة معلومة » فقيل لهم « لانعلم في الامامة شرطا غير أن يحكم فينا بكتاب الله وسنة نبيه » . ولم يقنع النكار وأثاروا

جدلا طويلا حول مسألة الامامة وأحقية الوصول اليها ، والشروط التي ينبغي أن يتمتع بها الامام . لقد كان الصراع بين الاباضية صراع بين الخوارج « الجمهوريين » والخوارج « الملكيين » ، ومثل الفئة الاولى رجال القبائل ، ومثل الفئة الثانية غالبية أهل مدينة تيهرت .

وكان من عادة قبائل البربر الانتجاع في مطلع الربيع من كل سنة نحو تيهرت . فلما كان ربيع السنة التي اختير فيها عبد الوهاب انتجعوا « أكمل انتجاع انتجعوه قط » وكان على رأس القبائل المنتجعة مزاته وسدراته ، ودخل زعماء هذه القبائل الى تيهرت فاجتمع اليهم زعماء المعارضة ، وقالوا لهم : « ان الامور قد تغيرت ، والاحوال قد تبدلت ، قاضينا جائر ، وصاحب بيت مالنا خائن ، وصاحب شرطتنا فاسق ، وامامنا لايغيرن من ذلك شيئا » وذهب زعماء القبائل الى الامام عبد الوهاب ورفعوا اليه ما سمعوه فتجاوب معهم وأظهر أنه على استعداد لتغيير سياسته وعزل من رغبوا بعزله ، وقال لهم : « قدموا من رأيتم واخروا من رأيتم ، فدعوا لـه وأثنوا عليه ، فقالوا خيرا ، ثم انصرفوا ، فلما انصرفوا دخل على عبد الوهاب وجوه رجاله وقواده وأهل بطانته ، فقالوا : ما بال اخواننا أتوك اليوم باجمعهم ، فأخليت لهم مجلسك ، وحجبت من سواهم ، فذكر لهم ما قالوا له ، وما أشاروا عليه ، فقالوا له : وما أجبتهم به فذكر لهم جوابه ، فقالوا له : أسأت الى نفسك والينا ، والى جميع اخوانك ورجالك ، فقال : وكيف ذلك ، وما سألوا شططا ، وما قالوا الا خيرا فقالوا : ليس نظرهم عندما قلت ، ولا معناهم عندما رأيت ، ولكن سألوك أن تعزل قاضيك وصاحب بيت مالك ، والقائم بشرطتك ، فاذا فعلت ذلك شكروك وحمدوك ، ثم أتوك بعد ذلك ، فقالوا لك : ان المسلمين قد نقموا عليك أشياء ، أو على ولديك ، فان أجبتهم الى ذلك شكروك وحمدوك ، وان أبيت لهم من ذلك خلعوك ونبذوك ، ثم لا تأمن ، ولو اجبتهم الى كل ما سألوك أن يأتوك فيقولوا لك : ان المسلمين في ابتداء امرك لم يجتمعوا عليك ، فانخلع واردد اليهم امرهم ، فـان اجتمعوا عليك جملة فزت بحظك ، وكان ذلك زيادة لك في شرفك » .

وانصت عبد الوهاب لهذه الآراء وبدل مواقفه ، وهكذا اشتد الجدل بين الاباضية وقاد ذلك الى انشطارهم الى فئتين : وهبية ، ونكارية ، وتزعم النكارية احد رجال الستة من الشورى واسمه يزيد بن فندين ، وكان يزيد هذا من كبار شيوخ الخوارج ، وممن عارض بيعة عبد الوهاب ، وطالب بتأسيس مجلس من أهل الحل والعقد يعهد اليه بمهمة اختيار الامام ، الذي عليه أن يخضع لاوامره ، وهكذا لما رفض رأيه ، وأخفقت ضغوطه القبلية حمل هو وأنصاره السلاح في وجه عبد

الوهاب وشيعته . والمدهش في هذا النزاع هو تورط الفئات الاخرى من غير الاباضية فيه .

فقد كان من أكبر الفئات في ضواحي تيهرت جماعة الواصلية من المعتزلة ، وقد رأى الواصلية ما رآه النكار وابن فندين ، وجرت بين ابن فندين وبين عبد الوهاب معارك طاحنة قتل فيها ابن لعبد الوهاب ، وكاد ابن فندين أن ينتصر فيها ، لولا أن تجارب التاريخ الاسلامي أعادت هنا نفسها ثانية بشكل غريب جدا ، فمسألة الشورى العمرية نالها بعض التعديل ، لكن المسألة الان هي أن الاباضية استعاروا تجربة التحكيم ، وهي تجربة رفضت من قبل أسلاف الخوارج ، لقد لجأ عبد الوهاب ابن رستم الى التحكيم ، ناسيا وشيعته أو متناسيا أن الاصل في قيام الخوارج ، هو الخروج على قرار التحكيم يوم صفين . وكما حدث في التحكيم الاول حين رجحت كفة البراعة السياسية المدعومة بالقوة المنظمة ، رجحت الان كفة عبد الوهاب ، وانهزم المنشقون مستنكرين لما حصل ، متنكرين لامامة عبد الوهاب ، وانعزلوا عن الامامة الرستمية ، وهكذا غلب عليهم اسم « النكار » .

لقد انتصر عبد الوهاب بن رستم ، بدهائه وحنكته وقوته ، على خصومه ، وكما قال ابن الصغير : « استملك الامر لعبد الوهاب ، وبقيت حزازات النفوس في قلوب عشائر من قتل ، ثم اشتد أمر عبد الوهاب ، وقوى عليه ، وانتقل من حال الامامة الى حال الملك » . .

ومع تحول عبد الوهاب « من حال الامامة الى حال الملك » عمل على معالجة مشكلة القبائل البربرية التي اشار ابن الصغير الى بقاء حزازات في قلوبها ، معالجة سياسية بارعة ، فسعى الى اخضاع جميع القبائل التي ، رغم هزيمتها ، رفضت الاعتراف به ، وظلت شاهرة السلاح في وجهه . وحسب الاعراف البدوية فان القبائل تتكتل باحلاف مصالح ومصاهرة لا بعقائد ، وكان عبد الوهاب يدرك هذا ، وكان يعرف الوضع القبلي حول تيهرت ، فقد كانت أعظم القبائل حول المدينة كل من : هوارة ولواته . وعرف عبد الوهاب بمحاولات لانشاء حلف بين هاتين القبيلتين ، فخاف ذلك ، وعلم أيضا أن زعيم هوارة خطب ابنة زعيم لواته لنفسه ، فسارع عبد الوهاب ، فأحضر شيخ لواته « وخطب اليه ابنته ، فزوجه اياها » واغضب هذا زعيم هواره « فقال : عمل علي في جارية خطبتها ورضي الى بتزويجها ، فانتزعها مني بسلطانه ، لاسكنت بأرض هو بها ، وغضبت عشيرته لغضبه ، فارتحل نحو المغرب حتى نزل بوادي هوارة ، وبينه وبين المدينة نحو من عشرة أميال أو أكثر » .

اقامت هوارة معسكرا كبيرا انحشرت اليه جميع فروع القبيلة ، وتحـول هذا المعسكر الى شبه مدينة جديدة مهددة لحياة ووجود تيهرت . وقام عبد الوهاب بحشد الجيوش ضد هوارة ، وزحف ضد معسكرها ، وكانت معركة دموية . ويقول ابن الصغير الذي شهد هذه الاحداث : « فكان قتال شديد ، له غبار سد ما بين الخافقين ، قال : وعبد الوهاب ينظر يمينا وشمالا أو قلبا ، فاذا صرف نظره ذات اليمين رأى فارسا ، فيقول : من الفارس هذا قد جفل الناس ؟ فيقال له : ابنك أفلح ، قال : واذا صرف بصره ذات اليسار رأى مثل ذلك ، فيقول : من الفارس ، فيقال له : ابنك أفلح ، قالوا : اذا صرف بصره في القلب رأى مثل ذلك فيقول : من الفارس ، فيقال له : ابنك أفلح ، قال : لقد استحق أفلح الامامة ، فكان أول يوم عقدت له الامامة » ، وبعد طول قتال انتصر عبد الوهاب ، « وقتل في ذلك اليوم خلق كثير وامم من الامم ، وكان القتل في هوارة أفضح وأشنع » .

لقد رأينا حتى الان كيف تطور الحال بهذه الدولة ، فبعد ماكان عبد الرحمن بن رستم قد بدأ بمثالية عمرية ، تحول وتغير ، انما ظل يختار لدولته ذوي المقـدرة والكفاءة من الرجال المتصفين بالعدل والانصاف ، صار ابنه عبد الوهاب لا يهمه من هذا كله الا ما كان فيه التدغيم لسلطانه ودولته التي قبض على ناصيتها بكلتا اليدين ، ومع أنه كان في عهد أبيه مثالا للرجل الصالح ، لدرجة أنه كان قد رشح الى منصب الامامة عن جدارة منذ أيام أبيه ، لكنه ما أن ولي الحكم ، وقامت في وجهه أعمـال المعارضة والثورات حتى خلع عن نفسه جلباب المثالية ، وتحول من الامامة الى الملك ، فتدرع بدرع السياسة الفولاذي الذي لا مكان للعواطف لديه ، ولا يتأثر الا بما تمليه المصلحة ، ولا تنفذ فيه سهام الخلق والضمير وغير ذلك من أسلحة الضعفاء ، فبرز عبد الوهاب على المسرح رجلا جبارا عنيدا ، وسياسيا قويا لا يتريث ولا يتردد في ضرب الرؤوس بعضها ببعض ، ولا يتورع عن الاعتماد على سياسة فرق تسد ، فهو على هذا حين حول الامامة الرستمية الى ملك مثل غيره ، سهل عليه السير على طريق الملوك الذين ترتبط سياستهم بمصالح الملك لا بمبادىء العقيدة ، ذلك أن السياسة لدى الائمة مفترض أنها ترتبط بمثل العقيدة ، وهذا التحول يجعل المؤرخ يواجه مشكلة تحتاج الى حل مقنع وتفسير مسوغ بشكل منطقي : هل تحول السلطة الرجال وتقلبهم مما يشبه الايمان الى مايشبهالكفر ، من الاستقامة الى الاعوجاج ، من المثل الى الدهاء والبراعة ؟

المفترض أن السلطة وسيلة لتنفيذ المبادىء وطريق نحو العدالة والمساواة ورفع الحيف ! واذا كان التأريخ تدوين أخبار ما وقع لا ما يتمناه المرء لو أنه وقع ، فهذا ماحصل في تجربة الامامة الاباضية ، وقد حدث نظيره في مختلف بقاع وادوار تاريخ العرب والاسلام . . .

لقد حارب عبد الوهاب بن رستم المنشقين عليه من الاباضية ، وهادن في نفس الوقت السلطات العباسية في القيروان ، فوادع روح بن حاتم بن قبيصة المهلبي سنة أحدى وسبعين ومائة (٧٨٧ م) ، وبذلك أمن على دولته من ولاة أفريقية، وتفرغ لجمع جيش خاص به ولتنظيمه ، حتى « اجتمع له من أمر الاباضية وغيرهم مالم يجتمع للاباضية قبله ، ودان له مالم يدن لغيره واجتمع له من الجيوش والحفدة مالم يجتمع لاحد قبله » وامتد ملكه من طرابلس الى تلمسان ، فكان ملكه « ملكا ضخما ، وسلطانا قاهرا » .

ولدى شعور عبد الوهاب بأنه بات لديه ما يكفي من القوة والاستقرار ، تخلى عن موادعة أمراء افريقية ، وكان قد تأسس في القيروان ملك الاغالبة ، فقام عبد الوهاب سنة ١٦٩هـ/٨١٢م بمداهمة أبي العباس عبد الله بن ابراهيم الاغلبي أمير افريقية ، وحاصره في مدينة طرابلس ، وشدد عليه الحصار وأطاله حتى توفي الامير ابراهيم الاغلبي ، فقام ابنه وخليفته المحاصر بالتفاوض مع عبد الوهاب ، وتم الاتفاق على رفع الحصار عن طرابلس على أن تبقى المدينة وبحرها للاغالبة ، وما وراء ذلك لعبد الوهاب ، وعاد عبد الوهاب بعد ذلك الى جبال نفوسة ، وقد امتد سلطانه ، وانطوت القبائل البربرية تحت سلطانه ، حتى قبيلة هوراة نفسها التي كانت تحاربه أخذت تستنجد به في حروبها ضد الاغالبة ، وعلى الرغم مما حققه عبد الوهاب من انتصارات على الاغالبة ، فقدظل يخشاهم ، لذلك سعى الى حصار دولتهم بعدد من التحالفات ، فمد يده أولا الى دولة بني مدرار في سجلماسة ، ثم راسل الدولة الاموية في قرطبة الاندلس واتفق معها ضد الاغالبة ، وأرسل سفارة من لدنه الى قرطبة ، استقبلت لدى وصولها استقبالا حافلا .

وكانت مملكة الادارسة قد تأسست في المغرب الاقصى سنة اثنتين وسبعين ومائة (٧٨٨م) وفي سنة / ١٧٣هـ / استولى ادريس الاول على تلمسان ووصل الى تخوم دولة تيهرت ، وفي هذا الوقت قامت بعض فروع قبيلة زناته البربرية بالعرض على عبد الوهاب بأن ينضم الى المولى ادريس ، ويوحد دولته ويدمجها في الدولة الادريسية الجديدة ، فرفض ذلك ، وكان بعد ما وصل ادريس الى منطقة جبال زرهون في المغرب الاقصى ، وصل أخوه سليمان من مصر ، وحل بتلمسان ، وأنشأ امارة صغيرة ، وشغلت دولة تلمسان وظيفة الحجز ما بين الدولة الرستمية ودولة الادارسة، أي كانت أشبه بما يسمى الان Buffer state لذلك لم يسجل لنا المؤرخون أخبار مصادمات بين الرستميين والادارسة ، وعلى العموم دام أيضا السلم بين عبدالوهاب بن رستم وأمير القيروان أبو العباس عبد الله الاغلبي .

لقد توسطت دولة تيهرت الان بين الاغالبة والادارسة وآل سليمان ، وتحالفت مع الامويين الذي راوا في نشاط هذه الدولة ما يدفع عنهم خطر الاغالبة ولاة الدولة العباسية ، وكان الاغالبة بدورهم وسط حصار بربري قبلي وسياسي دولي ، فدول المغرب الاربع : الرستميون . بنو مدرار ، السليمانيون ، الادارسة ، لم تدن بالولاء للعباسيين ، وكان بنو الاغلب قد مارسوا البربر في حروبهم ضدهم ، فأدركوا منها أن لا طاقة لهم بحصد شوكة القبائل البربرية ، لذلك تركوها وشأنها ، وانصرفوا عن محاربتها ، مما أعطى الفرصة بعد فترة لدعاة الاسماعيلية للنشاط وسط كتامة ، القبيلة القوية ، واثارتها لاسقاط دولة الاغالبة ، واقامة الخلافة الفاطمية .

لقد انصرف الاغالبة الى اصلاح شؤون دولتهم في الداخل ، بدلا من اضاعة جهودهم في وسط المغرب بدون جدوى ، وتوجهوا باهتماماتهم ، كما فعلت قرطاج من قبل ، نحو البحر الابيض المتوسط ، وركزوا خططهم على فتح جزيرة صقلية وكان لهم ذلك ، وكانت الخلافة العباسية في بغداد راضية عن سياسة الاغالبة ، قانعة بدورها بأن تظل سدا بين ولاياتها في المشرق وبين الاندلس والدويلات المغربية الخارجة عن سلطانها ، لهذا شجع العباسيون الاغالبة ، وسمحوا لهم بالحكم على قاعدة قريبة من الاستقلال ، وفي هذا الوسط السياسي المتداخل كان وجود الدولة الرستمية لازما للحفاظ على التوازن بين دول المغرب وقبائله ، وعلى هذا الاساس نفهم رغبة عبد الوهاب بن رستم في موادعة حكام القيروان ومشاركة الاغالبة له في نفس الرغبة ومشاطرتهم له .

وكان عبد الوهاب بن رستم كأبيه عالما متضلعا في شؤون الدين ، وبذلك احتفظ بمركزه في امامة الاباضية ــ ماعدا النكار ــ وقد صنف كتابا اسمه « مسائل نفوسة الجبل » وكان هذا الكتاب أساسا للمدرسة الاباضية الرستمية ، وكان الى جانب ذلك يشجع الحركة العلمية في دولته ، ويجلب الكتب من الشرق ، وصار لديه مكتبة زاخرة بنفائس الكتب المتعددة الشاملة لمختلف الفنون والعلوم .

وبعد ماقضى عبد الوهاب أيام حكمه ــ وكانت زاخرة بجلائل الاعمال ــ توفي سنة ثمان ومائتين (٨٢٣م) فبويع ابنه ميمون أبو سعيد الافلح بالامامة بعده ، وكان كذلك مرشحا للامامة في حياة أبيه ، فلم يكن يقل عنه دهاء ومكرا وسعة حيلة ، وعلى ذلك استطاع ــ باتباع تعاليم أبيه وسياسته المتقلبة ــ أن يقبض على زمام الملك طيلة خمسين سنة .

وفي البداية سالم الافلح جيرانه الاغالبة ، لكن أبا العباس محمد بن الاغاب بن ابراهيم تصور أن بامكانه التغلب على دوله تيهرت ، ووفقا لذلك أقدم على بناء مدينة

بجوارها وسماها « بالعباسية » نسبة اليه ، وأراد منها ان يأخذ بمخنق تيهرت ، فتوجه اليها الافلح واخربها سنة سبع وعشرين ومائتين (٨٤٢م) .

لقد سلف وأشرنا الى ان الاغالبة بعدما مارسوا البربر في الحروب الرستمية والادريسية أدركوا أن لاجدوى من محاربة هؤلاء ، وانه من الانفع لهم مسالمتهم والانصراف نحو اصلاح شؤونهم الداخلية ، فعملوا على ذلك ، ووطدوا العزم على اقرار دولتهم التي صارت تستقل عن بغداد شيئا فشيئا ، وتخلل ذلك بعض الفتن داخل البيت المالك ، لكن هذه القلاقل لم يطل بها الامد ، وسرعان ما رجعت الامور الى نصابها، واستعاد الاغالبة نشاطهم ، وثبتوا دعائم دولتهم من جديد ، وهنا امتدت انظارهم عبر البحار ، وصارت أساطيلهم تداهم بعض جزر البحر المتوسط مع شواطىء ايطاليا ، وقلبها حتى روما أحيانا ، ونشطت أساطيل الاغالبة القوية ضد صقلية فسردينية وكورسيكا ولا شك أن هذا النشاط بعث السرور لدى العباسيين ونال رضاهم سيما والعلاقات العباسية البيزنطية كانت في غاية السوء ، والحروب بين الطرفين شديدة .

وفي هذا الوقت تمكنت جماعة اندلسية الاصل من احتلال جزيرة كريت ، واعترفت بسلطان الخليفة العباسي ، لكراهتها للحكم في قرطبة الذي أجبرها على الهجرة منها اثر حادثة الربض المشهورة .

وكان للنشاط الاغلبي في البحر المتوسط ردات فعل حذره لدى الامويين في الاندلس ، فهم باتوا يخشون على شواطئهم ، وخافوا أن يستولي الاغالبة على جزر البليارد التي دانت بالطاعة لهم ، لهذا نجد الامير الحكم الربضي واصل الادارسة فبعث بوفد الى المولى ادريس الثاني هنأه بمبايعته بالخلافة والامامة، وفاتحه بالتحالف ضد الاغالبة والعباسيين ، لكن العلاقة بين الادارسة والامويين لم يتح لها التطور والتعمق ، فالمولى ادريس الثاني قام بانشاء مدينة فاس في بقعة كانت موطنا لجماعات من اهل ربض قرطبة الذين ثاروا على الامير الحكم وطردوا من الأندلس . ثم ان مدينة فاس — أو بالحري شطر من شطريها — صاردار هجرة لجماعات قدمت من القيروان (هي التي أسست جامع القرويين الشهير) ، وقد عادى هؤلاء الحكم الاموي في قرطبة .

وبعد وفاة الحكم الربضي (٢٠٦هـ/٨٢١م) ثم المولى ادريس الثاني (٢١٣هـ/ ٨٢٨م) تحسنت العلاقات بين الاندلس ودول الشمال الافريقي : الادارسة ، الرستميون، برغواطه، سجلماسة ، النكور ، وصار هناك تفاهم سياسي ضد الاغالبة ، وكان الوضع الداخلي في الاندلس يعاني من الاضطرابات ، ولم يكن الامويون يملكون

قوة بحرية تعادل قوة الاغالبة ، وباتت شواطىء الاندلس معرضه لخطر الاغالبة ، وخطر أوربي جديد جاء مع أساطيل الفيكونغ ، لهذا جهدت قرطبة في الضغط على الاغالبة من داخل المغرب .

ويروى أنه عندما اخرب الرستميون مدينة العباسية سارعوا الى اخبار قرطبة وزفوا اليها البشرى ، فبعثت بمعونة مالية قدرها /مائة الف دينار/ للامير الرستمي مكافأة له على الايقاع بالاغالبة .

وسلف بنا القول بأن أفلح بن عبد الوهاب كان لايقل في دهائه عن ابيه ، ومفيد ان نضيف الى هذا أنه كان لايقل عنه علما ، وانه اشتهر بالادب وتذوقه أكثرمنه . وتحدث الدرجيني في كتابه طبقات المشايخ عن هذا بشكل مفصل ، وأثبت له الباروني قصيدة طويلة في فضل العلم ومزاياه والحض على نيل العلم واكتساب المعرفة ، وبعلمه صار أفلح رأسا للخوارج الاباضية والصفرية بالمغرب ، وبالعلم أيضا صار رأسا للواصلية المعتزلة .

ووادع افاح جيرانه ماوادعوه وتقرب من حكام الاندلس ، واعتمد في سلطانه وادارته على الفرس الذين كثرت أعدادهم في تيهرت ، وأسند لهؤلاء الفرس قيادة قواته مع أسمى المناصب في الدولة ، كما أن المرافق الاقتصادية والتجارية والاموال صارت حكرا على الفرس ، وكون الفرس في هذا الوسط الغريب نوعا من الاستقلال الخاص ، حتى أن أحد التجار منهم واسمه ابن وردة بنى سوقا سماه باسمه ، وكان له حرسه الخاص ، وتمتع في نفس الوقت بمنصب رئيس الشرطة لذلك سخر فرقة من الشرطة لحماية سوقه وحراسته .

واعتماده على الفرس أفاده كثيرا ، ومكنه من النجاح السياسي والاستقرار الداخلي ، فنعم بالهناء والرخاء في قصده ، وشمل هذا الهناء شعب تيهرت ، واتباع الدولة فركنوا الى الراحة والدعة ، وانتشر في تيهرت البذخ ، وعم الترف ، فقاد ذلك الى حياة اللهو والمجون ، وانغمس الناس في هذه الحياة ، مما كان له سيء الآثار . فقد بدأت بوادر الانحلال تلوح في الافق ، ولحق هذا ظهور الخصومات خاصة بين الفرس ورجال قبائل زناته ، وهنا عادت تلك السياسة التي خطها أبوه عليه وعلى الدولة بالوبال ، ذلك أنه لم يتمكن من الافادة منها كما فعل أبوه ، لانه كان يعوزه تلك الشخصية القوية التي تركب الصعاب وتواجه معقدات الامور بعزم وقوة وثبات وصرامة ، فالدهاء لوحده مدعوما بالمكر غالبا مايأتي على صاحبه بأسوأ العواقب ، ومع هذا واجه أفلح بدايات المشاكل واستطاع ان يؤجل انفجارها لكنه ما أن قضى

نحبه حتى ثار بركان الفتن ، وصار ملوك تيهرت في وسط تيار الخصومات تتقاذفهم الامواج وتعبث بهم أيدي المتخاصمين والمتآمرين ، وانبعثت الخصومات القبلية من جديد وبشكل حاد ، وقويت القبائل بعضها على بعض ، ففرض المنتصر ملكا جديدا بعدما عزل واحدا قديما ، وذلك بصرف النظر عما تمتع به هؤلاءالملوكمن مواهب، ان وجدت المواهب ، لهذا عجز ملوك تيهرت بعد أفلح عن السيطرة على المواقف ولم يستطيعوا الصمود في وجه الحوادث والتصدي لها .

توفي أبو سعيد ميمون الافلح سنة ٢٥٨هـ/٨٧٢م ، فقام بالامر من بعده ابنه ابو بكر ، وكان هذا الامام ميالا الى الراحة والدعة مولعا بالادب ، لهذا ترك لاخيه أبي اليقظان وصهره محمد بن عرفة أمر تسيير دفة الدولة ، فكانت النتيجة عدم رضا رؤساء الدولة من المشايخ ، فعملوا على اغتياله ، بعدما فجروا ضده فتنة أخرجته من تيهرت ، فاستولى عليها محمد بن مسالة الهواري بعد حروب شديدة ، وكان أصل هذه الفتن أن حاشية أبي بكر وبطانته نفسوا على صهره ابن عرفة مكانته من الدولة ، فأوعزوا الى ابي بكر أن يتخلص منه بحجة الخيانة ، فلما كان في أحد الايام في صلاة المغرب طعنه خادم لابي بكر ، فاستفظع الناس هذه الفعلة ، وثاروا بأبي بكر ، وقامت الحرب بين أنصار الحكومة وخصومها ، وكان بجانب الحكومة قبيلة نفوسه الجبل والفرس ، فتغلب عليهم خصوم الحكومة ، وعليه تفرق رجال الدولة في أقاصي البلاد، واستولى ابن مسالة على تيهرت ، فأجلى لواته عن المدينة ، فاجتمعت هذه القبيلة بقواها حول أبي اليقظان ، فذهب بهم مع أنصاره نحو تيهرت ، وانضمت اليه نفوسه طرابلس ، فتقوى بها ، وحاصر المدينة التي فتحت له أبوابها بعد سبع سنين من الحصار ، وبذلك فقد أبو بكر امامته بعدما مكث بها مدة عامين .

وتولى الامامة ابو اليقظان ، وكان ابو اليقظان قد ذهب في أيام أبيه الى المشرق بقصد الحج ونيل المعرفة ، فقبضعليه العباسيون، وأودعه الخليفة الواثق في السجن، وهناك تعرف الى المتوكل ، فلما آلت الخلافة الى المتوكل أطلق سراحه وأحسن اليه ، فعاد الى تيهرت ، واستولى عليها كما رأينا ، وامسك مجددا بزمام السلطة ، وظل في مركز الامامة مدة اربعين سنة ، كان خلالها مثلا أعلى للعلماء الزهاد ، فافتتنت به نفوسة الجبل ، وصار رجالها يعتقدون فيه أعتقادات ساعدته على أن يحتفظ بمنصبه ومكنته من صيانة الدولة ، وهكذا مكث مقدسا مبجلا حتى توفي سنة ٢٨١هـ/٨٩٤م بعد ماعمر مائة سنة .

وبويع ابنه أبو حاتم يوسف بالامامة ، وكان أبو حاتم يوسف كثير المروءة واسع الاحسان ، ومع ذلك اضطربت عليه الامور ، فأخرج من المدينة ، ثم عاد اليها ، وائتمر

به بعض قرابته فقتاوه سنة ٢٩٤هـ / ٩٠٧م ، وكان بكر بن حماد ، وهو من أكبر علماء عصره ، ممن أوضعوا في الفتنة أول الامر ، لكنه عاد واعتذر اليه بقصيدة وذلك بعدما عاد الى تيهرت ، كما نازعه عمه يعقوب في الحكم ، فارتحل الى قبيلة زواغة ، رافضا بيعة ابن أخيه ، وبعد ما أخرج أبو حاتم من تيهرت استقدم أهل المدينة العم يعقوب وبايعوه ، فوقعت الحرب بينه وبين ابن أخيه ، وتدخل شيوخ الاباضية بين الامام وعمه فتوقف القتال ، وتألف الامام الناس فتمكن من العودة الى تيهرت التي غادرها يعقوب الى زواغة مرة جديدة بعدما اقام أميرا أربع سنوات ، وكان يوسف بعيد الهمة ، نزيه النفس ، عاش حتى استولى الفاطميون على تيهرت ، فارتحل الى برقة وهناك عرض عليه أهلها البيعة فرفض قائلا « لايستتر الجمل بالغنم » ، ثم توجه الى مصر ليستقر نهائيا بعدما أقام بجبال نفوسه وافريقية ضاربا في البلاد متنقلا ، ولم تطل الحياة بأبي حاتم حيث قتله بعض قرابته سنة ٢٩٤هـ / ٩٠٧ ، فخلفه بالامامة أخوه أبو اليقظان بن أبي اليقظان الذي لاحقته الجيوش الفاطمية حتى تمكنت من قتله سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٩م وبذلك انطوت آخر صفحات تاريخ الامامة الرستمية في تيهرت ، انما كدولة فقط ، حيث انتشرت فلول الرستميين في انحاء البلاد ، واحتفظ بعضهم بمكانة دينية وقدسية خاصة .

لقد انطوت صفحة دولة الائمة الرستميين في تيهرت انما ليس معنى هذا أن السلالة الرستمية قد اندثرت وانقضى أمرها من الشمال الافريقي ، لكننا نجد أفرادا منها يتجهون ، بسبب الملاحقة الفاطمية ، نحو الشرق ، حيث تمركزوا وأتباعهم في واحة ورجلة ، وظل نشاطهم مستمرا هناك حتى داهمتهم جيوش المرابطين ، فهجروها واستقروا في « مزاب » حيث شمروا عن سواعد الجد ، وحفروا الابار وبنوا الدور ، فحولوا تلك الصحراء الى واحات غنية ، ولم يمض طويل وقت حتى صارت واحات الاباضية أشبه بالقرى العظيمة وبذلك نالت اسم « سبع مدن » .

ونجد ابن خلدون يتحدث عنهم في أكثر من مكان من تاريخه ، ويستخلص من كلامه انهم في أيامه كانوا قائمين في بعض الجهات يعيشون في شبه استقلال ، وفي القرن التاسع هـ/الخامس عشر م نجد بعض الرحالة يسميهم « المرتجين المحمديين » ويسجل لهم أن « الامانة هي الطابع الخلقي في تجارتهم ، والايمان يجعل من لهجتهم ومن حياتهم الاجتماعية مغزى نبيلا » وما زالت دول : ليبيا ، تونس والجزائر فيها أعداد كبيرة من الاباضية ، لهم نشاط متميز ، وادوار خاصة .

لقد كانت دولة الائمة الرستميين أباضية المنشأ والعقيدة ، ومع هذا آمنت بحرية المعتقد ، فتألفت حولها القوب ، وتجمعت فيها فرق اسلامية مختلفة النزعات

والجنسيات ، فكان فيها خوارج من اباضية وصفرية ، كما كان فيها شيعة وسنة ومعتزله مثلوا جميعا قبائل من البربر كان على راسها زناته مع جماعات من الفرس والعرب عاش الجميع في وئام ، حتى راينا بعض الائمة الرستميين لاتقتصر امامتهم على الاباضية بل تزعموا الصفرية والواصلية من المعتزلة في ذات الوقت .

ولقد كان الدور الحضاري للدولة الرستمية عظيما ، لم يقتصر تأثيره على الشمال الافريقي بل امتد الى قلب القارة الافريقية .

ومن المفيد ان نشير في نهاية هذا البحث الى انه في الوقت الذي كانت فيه المملكة الرستمية تلفظ أنفاسها تحت ضربات جيوش الخلافة الفاطمية الناشئة ، كانت جماعات النكار الاباضية تجمع قواها وتلتف حول زعيم لها اسمه أبو يزيد مخلد بن كيداد الملقب « بصاحب الحمار » فقد ثار أبو يزيد على الفاطميين أيام القائم ، الخليفة الفاطمي الثاني واستولى على معظم الاراضي الفاطمية ، وحصر الفاطميين في مدينة المهدية ، وحاول اعادة بناء الدولة الاباضية ، وبعد جهود تمكن المنصور اسماعيل الخليفة الفاطمي الثالث من القضاء على هذه الثورة ، حيث قبض على زعيمها فقتله وشتت أتباعه . وفي الحقيقة ان الحديث عن ثورة ابي يزيد مخلد بن كيداد موضوع مستقل ، يحتاج الى مكان مستقل غير هذا المكان ، ولربما يتاح لنا ذلك في المستقبل ان شاء الله تعالى وييسر(*) .



(*) أخبار الدولة الرستمية موزعة في التواريخ العامة للشمال الافريقي وخاصة تاريخ ابن خلدون انما نجد في الادب الاباضي كتابات تاريخية عالية القيمة تقدم لنا صورة مشرفة لتاريخ الدولة الاباضية في تيهرت ، ويتقدم المصادر الخاصة لهذه الدولة ما كتبه ابن الصغير القيرواني ، ويلي ذلك كتاب سير الائمة وأخبارهم لابي زكريا يحيى بن أبي بكر ، ثم كتاب طبقات المشاريخ للدرجيني ، ثم السير للشماخي ، وكلها مطبوعة ، ولدى الباروني وهو كاتب حديث ، مواد جيدة عن الرستميين اودعها في أكثر من كتاب تاريخي له .

القدس من بعد وفاة صلاح الدين حتّى الحملة الصليبيّة السابعة

أ.د. سهيل زكّار[١]

توفّي صلاح الدين يوسف بن أيّوب في صباح يوم الأربعاء في السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمئة للهجرة (٤ آذار ١١٩٣م)، «فغشي القلعة والبلد والدنيا من الحزن ما لا يعلمه إلّا الله»، وجُهّز صلاح الدين ودُفن أوّلًا في قلعة دمشق، ثمّ نُقل بعد ذلك إلى موقع قريب من الجدار الشماليّ للمسجد الجامع الأموي، ودُفن هناك، وكان اسم المنطقة الكلّاسة، وبوفاته طُويت صفحة كانت الأهمّ في صفحات تاريخ الحروب الصليبيّة.

وخلّف صلاح الدين عددًا كبيرًا من الأولاد، وكانت أهمّيّة أخيه العادل قد ازدادت قبل وفاته، ويُلاحظ أنّ الدولة التي أسّسها صلاح الدين أخذت تتفكّك عراها قبل وفاته، فقد تصارع أولاده من بعده، واستفاد من ذلك أخوه العادل، فجرّدهم من أملاكهم إلى أن أصبح سيّد السلطنة الأيّوبيّة، وامتلك العادل أيضًا عددًا كبيرًا من الأولاد، وزّع فيما بينهم ممالكه، فدخلوا في صراعات مميتة أفادت الصليبيّين كثيرًا.

وكان أبرز أولاد العادل الكامل محمّد، الذي ولي مصر وسعى إلى تجريد إخوانه من أملاكهم، فخاض ضدّهم حروبًا قاسيةً، كما أنّه واجه

---

(١) محقّق وباحث سوريّ متخصّص بالتاريخ ولا سيّما تاريخ الحروب الصليبيّة، نال شهادة الدكتوراه في التاريخ وعمل كمدرّس جامعيّ في جامعات لبنان وسوريا والمغرب. أبرز مؤلّفاته موسوعة تاريخ الحروب الصليبيّة التي تقع في٩٥ مجلّدًا. له دراسات عديدة منها: «مدخل إلى الحروب الصليبيّة»، «أخبار القرامطة»، «تاريخ الإسلام»، «تاريخ يهود الغجر»، بالإضافة الى العديد من الترجمات.

الحملتَين الصليبيّتَين الخامسة والسادسة، وفي الحقيقة كان له شأن خاصّ مع الحملة السادسة التي قادها الإمبراطور الألمانيّ فردريك الثاني.

وغالبًا ما عرض الملوك من بني أيّوب القدس وفتوحات صلاح الدين على الصليبيّين للحصول على المساعدة في صراعاتهم الداخليّة، وفي أثناء عمليّات الحملة الخامسة في مصر، هدم الملك المعظّم ابن العادل دفاعات القدس وقسمًا كبيرًا من المدينة، وكان لعمله هذا وقعه القاتل المميت، وأخفقت الحملة الخامسة، وإثر ذلك استأنف أبناء الملك العادل حروبهم الداخليّة، ووجد الكامل نفسه في وضع صعب، فتوجّه بناظرَيه نحو الإمبراطور فردريك الثاني، الذي كان آنذاك داخلًا في صراع مع البابويّة، ومحرومًا كنسيًّا، فكتب إليه سنة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م بأن يحضر إلى الشام والساحل فيعطيه بيت المقدس وجميع فتوح صلاح الدين بالساحل، ووجد هذا الإمبراطور فرصةً ذهبيّةً في هذه الدعوة، فلبّاها.

وفي هذه الآونة كان جنكيز خان قد أسّس إمبراطوريّته، واجتاح الأراضي الإسلاميّة في بلاد ما وراء النهر، ودمّر دولة خوارزم شاه، فهرب سلطانها جلال الدين منبكرتي إلى أعالي الجزيرة وأرمينية، وهناك امتلك جيوشًا كبيرة، ولذلك راسله الملك المعظّم عيسى أخو الكامل، صاحب دمشق، يطلب منه نجدته ضدّ أخيه وضدّ الإمبراطور فردريك، وهكذا تعقّدت العلاقات بين الإخوة الأيّوبيّين، وتجهّز الملك الكامل وخرج من مصر بعساكره ليستولي على دمشق، ولكن حدث أثناء قصده لدمشق حوادث كبيرة، فقد توفّي الملك المعظّم عيسى في هذا العام[٢]،

(٢) ابن واصل الحموي، **مفرّج الكروب في أخبار بني أيّوب**، تحقيق جمال الدين الشيّال (القاهرة: ١٩٥٣)، الجزء ٤، الصفحات ١٧٩ إلى ١٨١ و٢٠٤ إلى ٢١٨؛ أحمد بن إبراهيم الحنبلي، **شفاء القلوب في مناقب بني أيّوب** (بغداد: ١٩٧٨)، الصفحات ٢٧٦ إلى ٢٨٩؛ سبط ابن الجوزي (أبو المظفّر يوسف بن قزاوغلي)، **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، نسخة المتحف البريطانيّ، الرقم ٤٦٤، الجزء ٢، الصفحات ٦٤٤ إلى ٦٥٢. ومات منكبرتي بعد هذا مقتولًا، لكنّ جيوشه بقيت

وربّما مات مسمومًا، فطويت بعد وفاته صفحة من صفحات الصراعات الأيّوبيّة الداخليّة، وفُتحت صفحة جديدة أكثر حدّةً، وأشدّ تعقيدًا، والمهمّ، لنقف أوّلًا هنا، عند ما عُرف باسم الحملة الصليبيّة السادسة.

وكان فردريك الثاني قد جرى تتويجه ملكًا على ألمانيا في ٢٥ تمّوز ١٢١٥م، وفي يوم تتويجه حمل شارة الصليب، وكان من المفترض أن يرافق الحملة الخامسة، لكنّه أجّل ذلك مرارًا، وبعدما أخفقت هذه الحملة، رفع قادتها أصواتهم عاليةً ضدّ فردريك، ووجّهوا إليه اللوم لتوانيه في تقديم الدعم لهم، وبناءً عليه أمر البابا بعقد مجمع دينيّ عام في فيرينتينو Ferentino في آذار عام ١٢٢٣م لمناقشة خطط صليبيّة جديدة، وحضر المؤتمر البابا هونوريوس الثالث [١٢١٦ – ١٢٢٧م] والملك فردريك والكاردينال بيلاغوس، قائد الحملة الصليبيّة الخامسة المخفقة، وجون برين ملك مملكة القدس في عكّا، ورالف بطريرك القدس، مع مقدّمي فرسان التيوتون الألمان، والداوية والإسبتاريّة، وتمّ الاتّفاق في هذا المؤتمر على أخذ مدّة عامَين للاستعدادات، وخطب فردريك إيزابيلا دي برين، ابنة جون والوارثة لعرش القدس من خلال أمّها، ولم يقم فريدريك بالمغادرة كما وعد في عام ١٢٢٥م، واكتفى بإرسال أسطول مكوّن من أربعة عشر غليونًا إلى عكا، وحمل هذا الأسطول جيمس أسقف باتي، الذي عمل بمثابة وكيل له، وتولّى هذا الأسقف عقد قران الأميرة إيزابيلا على فردريك في كنيسة الصليب المقدّس في عكّا، وبعد مراسم الزواج حُملت إلى صور حيث جرى تتويجها ملكةً على القدس، وبعد ذلك حُملت في سفينة إلى زوجها في الغرب.

واستمرّ فردريك يؤجّل سفره حتّى ضمِن لنفسه تاج مملكة القدس، على أساس أنّ زواجه أفقد جون دي برين حقّه، لأنّه كان نائبًا لزوجته،

في المنطقة وصارت تُعرف باسم الخوارزميّة.

واحتجّ جون وسانده البابا، ورفض الاعتراف بفريدريك ملكًا على القدس، وكان على فريدريك الظهور خلال عام في عكّا، وتشجّع فريدريك الآن باتّفاقاته مع الملك الكامل، ووجد نفسه أنّه ليس بحاجة لاصطحاب قوّة عسكريّة كبيرة معه، وقرّر التوجّه نحو عكّا عام ١٢٢٧م، وتمّ إقلاعه بالفعل في الثامن من أيلول من العام، لكنّه ما لبث أن عاد، وأجّل ذلك حتّى حزيران من عام ١٢٢٨م، ممّا أغضب البابا الجديد غريغوري التاسع [١٢٢٧ – ١٢٤١م]، وكانت زوجته إيزابيلا، ابنة السابعة عشرة من عمرها، قد ولدت لفردريك ولدًا ذكرًا، حمل اسم كونراد، ثمّ توفّيت بعد ذلك بأيّام، ممّا جعل عرش القدس يؤول شرعيًّا إلى ابنها، وصار فريدريك الآن الوصيّ على عرش القدس.

وقبل قدوم فردريك إلى عكّا، كان الملك المعظّم عيسى ما يزال حيًّا، وكان يُعدّ الملك الشرعيّ للقدس وفلسطين بحكم كونه ملك دمشق، ولذلك لم يمتلك الكامل محمّد حقّ التصرّف بالقدس، ولكي يؤكّد المعظّم على اهتمامه بالقدس، وتملّكه لها زار القدس قبل وفاته بعام، وبصحبته لفيف من العلماء، وفي العام الذي توفّي به قدم إليه رسول الإمبراطور فردريك «بعد اجتماعه بالكامل يطلب الفتوح، فأغلظ عليه، وقال: قل لصاحبك، ما أنا مثل الغير، ما له عندي سوى السيف»، وبعد هذا بأمد وجيز توفّي المعظّم[٣]، وقيل كان ذلك بسبب الإسهال الشديد، فهل مات مسمومًا؟

---

(٣) **مفرّج الكروب في أخبار بني أيّوب**، مصدر سابق، الجزء ٤، الصفحات ٢١٥ إلى ٢٣٤؛ **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحات ٦٣٤ إلى ٦٥٢؛ سهيل زكّار، **الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبيّة** (دمشق: ١٩٩٣)، الجزء ٣٥، «الحملة الصليبيّة السادسة»، الصفحات ٣٢ إلى ٣٩؛ عبد الرحمن بن إسماعيل أبو شامة، **الروضتَين في أخبار الدولتَين النوريّة والصلاحيّة** (مع الذيل)، ضمن سلسلة **الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبيّة**، مصدر سابق، الجزء ٢٠، الصفحات ٢٩٢ إلى ٢٩٤.

وفي الوقت الذي وصل فيه الإمبراطور فردريك، كان الملك الكامل في نابلس يريد التوجّه إلى دمشق لانتزاعها من ابن المعظّم عيسى «وبلغه أنّ الأنبروز وصل إلى يافا في ميعاده، فعاد السلطان من نابلس إلى تلّ العجول [قرب عكّا]، ونزل عليه، وتردّدت الرسل بين السلطان والأنبروز، وكان السفير بينهما الأمير فخر الدين ابن الشيخ، فلم يزل يتردّد إلى الأنبروز تارةً بمفرده، وتارةً يأخذ معه الصلاح الإربلي، إلى أن تقرّر الصلح، أن يعطي الأنبروز: البيت المقدّس والقرى التي على طريقه من يافا إلى القدس، ومدينة لدّ، ودخلت سنة ست وعشرين وستمائة، وفيها انتظم الصلح عشر سنين، وخمسة أشهر وأربعين يومًا».

وبعد توقيع الاتّفاق، طلب الكامل من أهل القدس مغادرة المدينة وتسليمها إلى الصليبيّين، ولم يتأثّر بأصوات المعارضة والتشهير، فقد كان في نيّته الفراغ من هذا الأمر للتوجّه إلى دمشق لانتزاعها من ابن المعظّم، ففي اليوم الذي نودي فيه بخروج المسلمين من مدينة القدس وتسليمها إلى الصليبيّين، «وقع في أهل القدس الضجيج والبكاء، وعظم ذلك على المسلمين، وحزنوا لخروج القدس من أيديهم، وأنكروا على الملك الكامل هذا الفعل واستشنعوه منه، إذ كان فتح هذا البلد الشريف واستنقاذه من الكفّار من أعظم مآثر عمّه الملك الناصر صلاح الدين».

وبعد تسليم القدس «حضر الأئمّة والمؤذّنون الذين كانوا في الصخرة والمسجد الأقصى إلى باب دهليز الملك الكامل، فأذّنوا على باب الدهليز، في غير وقت الأذان، فعسر ذلك على الملك الكامل، وأمر أن يؤخذ منهم ما معهم من الستور والقناديل الفضّيّة وجميع الآلات، ويتوجّهوا إلى حال سبيلهم».

ووقف أهل دمشق ضدّ تسليم الكامل للقدس، واحتشد جمهور كبير جدًّا منهم في المسجد الأمويّ، حيث تولّى وعظهم سبط ابن الجوزي،

وكان عظيم المكانة مؤثرًا في وعظه، وأثار السبط الناس، وأبكاهم، بعدما تحدّث عن فضائل القدس، وعن الجريمة التي اقترفها الكامل، ووصف شاهد عيان ما حدث فقال: «وكان يومًا مشهودًا، وعلا يومئذٍ ضجيج الناس، وبكاؤهم وعويلهم».

وحدث هذا والكامل محاصر لدمشق يريد انتزاعها من ابن أخيه الناصر داود بن عيسى، ونجح بذلك، حيث سلّمه الناصر داود دمشق وأخذ عوضًا عنها الكرك، وأعطى الكامل دمشق إلى أخيه الأشرف موسى.

وفي تلك الأثناء دخل فريدريك إلى القدس، حيث توّج نفسه ملكًا عليها في كنيسة القيامة، وبقي في المدينة يومَين، ثمّ عاد إلى عكّا، وكان عليه تسوية بعض الأمور المستعجلة، والإسراع بالعودة إلى مملكته التي كاد أن يفقدها لصالح البابويّة أثناء غيابه.

هذا وسوّغ الملك الكامل تسليم القدس بأنّ الضرورات الداخليّة فرضت عليه ذلك، وأعلن أنّ الصليبيّين لا يمكنهم الامتناع بالقدس لأنّ أسوار المدينة مهدّمة، وقال: «إنّا لم نسمح لهم إلّا بالكنائس، وآدر خراب، والحرم وما فيه من الصخرة المقدّسة، وسائر المزارات بأيدي المسلمين على حاله، وشعار الإسلام قائم على ما كان عليه، ووالي المسلمين متحكّم على رساتيقه وأعماله».

وهذا تسويغ سلطويّ ضعيف، وفي الحقيقة حقّق فردريك الثاني في حملته سلمًا، ما لم يحقّقه غيره من الصليبيّين منذ الحملة الأولى، ولم ينقل الصليبيّون إداراتهم من عكّا إلى القدس، ذلك أنّه قبل أن يغادر فردريك عائدًا إلى أوروبا نشبت بين قوى الصليبيّين صراعات عنيفة جدًا، لم يحاول أيّ من الأيّوبيّين الإفادة منها لاستعادة القدس ولتصفية الوجود

الصليبيّ في المشرق[٤].

وكان الكامل محمّد أثناء غيابه عن مصر قد استناب ابنه الصالح أيّوب، لكن بعد عودته إلى القاهرة شعر بأنّ ابنه قد تآمر ضدّه، فنفاه إلى الجزيرة، وفي الجزيرة اطّلع الصالح أيّوب على نشاطات الخوارزميّة، وظلّ يفكر وينتظر فرصته للعودة إلى القاهرة، وانتعشت هذه الفرصة إثر وفاة والده في دمشق، بعد وفاة عمّه الأشرف موسى، وخلافة العادل الثاني ابن الكامل في مصر، وكان ذلك سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م، ورأى الصالح أيّوب أنّ عرش القاهرة حقّ له، على أساس أنّه كان أسنّ أولاد أبيه الكامل، ودون الدخول في كثير من التفاصيل، وصل الصالح أيّوب إلى حكم دمشق، ثمّ تحرّك للاستيلاء على مصر وخلع العادل الثاني [٦٣٥ - ٦٣٧هـ/ ١٢٣٨ - ١٢٤١م]، فسُجن بعض الوقت في الكرك لدى الناصر داود، ثمّ تعاون مع الناصر داود وبعض قادة جيش مصر، وبذلك دخل القاهرة في ذي الحجّة سنة ٦٣٧هـ/ حزيران ١٢٤٠م، وبعدما صار سلطان مصر انقلبت من جديد التحالفات وفُتحت في هذه الآونة صفحات جديدة من الصراعات الأيّوبيّة-الأيّوبيّة، وحدث في الغالب أن تحالف أكثريّة الأيّوبيّين في بلاد الشام ضدّ الصالح أيّوب، ودخلت بعض المجموعات الصليبيّة في هذه التحالفات، ممّا دفع الصالح أيّوب إلى الإكثار من الاستعانة بالخوارزميّة[٥].

(٤) روى فيليب دين وفار أخبار حروب فردريك ضدّ الفئات الصليبيّة في بلاد الشام، انظر كتابه في **الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبيّة**، الجزء ٣٥؛ **مفرّج الكروب في أخبار بني أيّوب**، مصدر سابق، الجزء ٤، الصفحات ٢٢٥ إلى ٢٥٩؛ **الروضتَين في أخبار الدولتَين النوريّة والصلاحيّة** (مع الذيل)، ضمن سلسلة **الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبيّة**، مصدر سابق، الجزء ٢٠، الصفحات ٢٩٩ إلى ٣٠٧؛ **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحات ٦٥٢ إلى ٦٥٨.

(٥) ابن واصل الحموي، **التاريخ الصالحي**، ضمن سلسلة **الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبيّة**، مصدر سابق، الجزء ٢١، الصفحات ٦٠٤ إلى ٦٠٧؛ ابن واصل الحموي، **مفرّج الكروب في أخبار بني أيّوب** (القاهرة: ١٩٧٧)، الجزء ٥، الصفحات ٢٣٠ إلى ٢٧٣؛ إبراهيم ابن أبي الدم،

وكان الصليبيّون في القدس قد استغلّوا انشغال الأيّوبيّين بالصراعات على السلطة فعمّروا «في القدس قلعةً، وجعلوا برج داود أحد أبراجها، وكان قد تُرك لمّا خرّب الملك المعظّم أسوار القدس»[٦]، وفي عام ١٢٣٩م، تشكّلت في فرنسا بشكل رئيسيّ حملة صليبيّة بقيادة ثيوبولد الثالث كونت شامبين وملك نافار [١٢٠١ - ١٢٥٣م]، ومن المرجّح أنّ أخبار هذه الحملة قد وصلت إلى بلاد الشام، وكان من الذين قلقوا من أجلها الناصر داود بن عيسى صاحب الكرك، فقام في هذا العام عندما أخذت طلائع القوى الصليبيّة تصل إلى عكّا بقيادة قوّاته وقوّات الصالح أيّوب؛ سجينه في الكرك، نحو القدس، فهاجمها فجأةً من عدّة جهات، واجتاح الدفاعات التي كان الصليبيّون قد أقاموها، ثمّ تفرّغ لحصار قلعة برج داود، وعرض بالوقت نفسه على الصليبيّين أنّهم إذا استسلموا سوف يسمح لهم بالمغادرة آمنين إلى عكّا أو صور، أو الممتلكات الصليبيّة الأخرى، واستجاب الصليبيّون وسلّموا القلعة، فسمح لهم بالمغادرة بأمان، وقام الناصر بتخريب القلعة مع برج داود، ثمّ غادر عائدًا إلى الكرك، فقد كانت جموع الحملة الصليبيّة قد احتشدت في عكّا، ولم يكن باستطاعته الوقوف ضدّها، لكنّ هذه الحملة لم تقصد القدس، بل قرّر قادتها بعد مداولات طويلة التوجّه لحصار دمشق، لكنّهم وجدوا أنّ عليهم قبل ذلك تحصين مدينة عسقلان، ووضع حامية كبيرة فيها تعترض القوّات المصرية التي قد تحاول نجدة دمشق،

تاريخ ابن أبي الدم، ضمن سلسلة الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبيّة، مصدر سابق، الجزء ٢١، الصفحات ٢٨٩ إلى ٢٩٤؛ ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوريّ، ضمن سلسلة الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبيّة، مصدر سابق، الجزء ٢١، الصفحات ٤٣٨ إلى ٤٤٧؛ مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحات ٧٠٤ إلى ٧٣٧؛ شفاء القلوب في مناقب بني أيّوب، مصدر سابق، الصفحات ٣٦٧ إلى ٣٧٨؛ الروضتَين في أخبار الدولتَين النوريّة والصلاحيّة (مع الذيل)، ضمن سلسلة الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبيّة، مصدر سابق، الجزء ٢٠، الصفحات ٣٢٤ إلى ٣٣٣؛ أحمد بن علي المقريزي، السلوك (القاهرة: ١٩٣٤)، الجزء ١، القسم ١، الصفحات ٢٩٩ إلى ٣٠٣، والقسم ٢، الصفحات ٢٦٧ إلى ٣٠٠.

(٦) السلوك، مصدر سابق، الجزء ١، القسم ٢، الصفحة ٢٩١.

وفي عسقلان انجذب الصليبيّون نحو غزّة، فواجهوا الدمار، لذلك قرّر قادتهم العودة إلى عكا، لكنّ ذلك لم يحدث إلّا بعد غارات متفرّقة وبعد التوصّل إلى عقد هدنة مع العادل الثاني سلطان مصر، ولم ينتظر ملك نافار تنفيذ شروط الهدنة وغادر عائدًا إلى أوروبا[٧].

وإثر هذا قرّر الناصر داود التفاوض مع الصالح أيّوب، فاتّفقا على التعاون للإطاحة بالعادل الثاني لصالح أيّوب، وأن يصبح الناصر داود بالمقابل ملكا على جميع بلاد الشام، وقد ذهب الصالح أيّوب مع الناصر داود «إلى القدس، واجتمعا عند الصخرة المقدّسة وتحالفا، فيُقال إنّهما اتفقا على أن تكون الديار المصريّة للملك الصالح نجم الدين أيّوب، والشرق للملك الناصر، وكان الملك الصالح يتأوّل بعد أن ملك ديار مصر أنّه حلف مكرهًا، إذا كان في الحقيقة في حكم الملك الناصر داود، ثمّ سارا بعد توكيد الأيمان بينهما إلى غزّة» وتمكن الصالح أيّوب من دخول القاهرة، واعتقال أخيه العادل الثاني، وفي أواخر ذي القعدة لسنة ٦٣٧هـ/ أواخر حزيران ١٢٤٠م، صار السلطان الأعظم للأيّوبيّين، لكنّه لم يتمكن من ناصية الأمور، وخشي من مؤامرات قادة الجيش، كما أنّ الخلاف نشب بينه وبين حليفه الناصر داوود، وتقلّبت الأوضاع، واضطربت كثيرًا في بلاد الشام[٨]، وأهملت شؤون القدس.

وكان لإخفاق صليبيّة ثوبولد ملك نافار الآثار في أوروبا، وفي الوقت الذي تبادل فيه البابا والإمبراطور فردريك الاتّهامات حول المسؤوليّة

---

(٧) **تاريخ متّي باريس**، ضمن **الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبيّة**، مصدر سابق، الجزء ٤٦، الصفحات ٣٣٥ إلى ٣٣٩؛ **السلوك**، مصدر سابق، الجزء ١، القسم ٢، الصفحتان ٢٩١ و٢٩٢؛ أحمد بن علي السيوطي، **إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى** (القاهرة: ١٩٨٢)، الجزء ١، الصفحتان ٢٨٨ و٢٨٩؛ **مفرّج الكروب في أخبار بني أيّوب**، مصدر سابق، الجزء ٥، الصفحات ٢٤٦ إلى ٢٤٨.

(٨) **السلوك**، مصدر سابق، الجزء ١، القسم ٢، الصفحة ٣٠٥.

عن هذا الإخفاق، أخذ ملك فرنسا يعدّ العدّة لحملة صليبيّة كبيرة يقودها بنفسه، لكن كان أسرع منه الإيرل رتشارد أخو ملك إنكلترا هنري الثاني، حيث وصل على رأس قوّة كبيرة إلى عكّا في الثامن من تشرين الأوّل لعام ١٢٤٠م، وما أن استراح قليلًا في عكّا حتّى توجّه إلى عسقلان لإكمال تحصينها، وحدثت آنذاك مفاوضات بينه وبين الصالح أيّوب أسفرت عن عقد هدنة، تجاهل خبرها المؤرّخون المسلمون وأشار إليها المقريزي إشارةً عابرةً بقوله أثناء حديثه عن وقائع سنة ٦٣٨هـ: «وفيها تمّ الصلح مع الفرنج، وأطلق الملك الصالح الأسرى بمصر من الكنود، والفرسان والرجال»[٩]، وحفظ لنا المؤرّخ الإنكليزيّ متّى باريس الذي عاصر هذه الأحداث نصّ تقرير كان رتشارد قد بعث به إلى إنكلترا، حكى فيه عن مفاوضاته مع مندوب أرسله إليه الصالح أيّوب، ثمّ ذكر تفاصيل الهدنة التي أبرمها مع الصالح أيّوب وقضت بإعادة المنطقة الجبليّة والساحليّة العائدة إلى بيروت امتدادًا حتّى ما قبل قلعة شقيف أرنون، وبعد ذلك صفد، وجبل الطور، واللجون، وبيت لحم «وكذلك جميع الأراضي القائمة على الطريق التي تقود من القدس إلى بيت لحم، ومن القدس إلى لدّ راما، ومن اللدّ إلى يافا... وجرى أيضًا تسليم مدينة القدس إلى الصليبيّين، ومثل ذلك بيت لحم أيضًا، وجميع الأراضي التي من حول القدس»، أي أنّ هذا الاتّفاق جاء إحياءً لاتّفاق الكامل–فردريك، وزيادةً بالسماح للصليبيّين بإعادة تحصين ما أعيد إليهم، وكان هذا يعني الإلغاء الكامل لجميع جهود صلاح الدين، وأنّ الذي قام به الناصر داود بات بدون قيمة، وفي شباط ١٢١٤، أبرمت الهدنة وأقسم الطرفان على تطبيقها، ثمّ في مطلع أيّار غادر رتشارد عائدًا إلى أوروبا، بعدما عاد الصليبيّون إلى سكنى القدس، وبعد إطلاق سراح الأسرى الذين كانوا في مصر، وإرجاع جثث قتلى الصليبيّين الذين قتلوا في غزّة وفي أماكن

(٩) المصدر نفسه، الجزء ١، القسم ٢، الصفحة ٣٠٥.

أخرى، وفي الحقيقة حقّق الشابّ الإنكليزيّ ما لم يستطع تحقيقه عمّه وسميّه رتشارد الأوّل في الحملة الصليبيّة الثالثة؛ لأنّ هذا الملك الدمويّ الشرس واجه صلاح الدين في العقد الأخير من أيّامه حين وهب نفسه للجهاد وأوقفها عليه، لكنّ الصالح أيّوب كان من معدنٍ آخر، تغلب عليه الشابّ الإنكليزيّ الغرير، ذلك أنّه كان مثل أبيه من قبله، يريد الآن امتلاك الكرك، ودمشق وحمص، وجميع أطراف بلاد الشام[١٠].

ولسنوات خاض كثيرًا من المعارك، نَعِم أثناءها الصليبيّون بالعيش في القدس وسواها، لكنّ القاعدة أنّ نار الفتنة عندما تستعر في منطقة من المناطق لا يمكن لأحد أن يعيش بمنجاة منها، فقد جاء وقت وجد الصالح أيّوب نفسه وقد تحالف ضدّه ملوك دمشق وحمص والكرك مع الصليبيّين، لذلك التجأ إلى الخوارزميّة واستعان بهم، وحرّضهم على مهاجمة القدس حتّى يخذّل الصليبيّين ويمنعهم من الوقوف ضده، وكان الخوارزميّة بحاجة لمن يكتريهم، ويدفع إليهم المال والمؤن، ويغريهم بامتلاك وطن والحصول على أسلاب وغنائم، وهذا كلّه يمكن أن يكون حاملًا لعنوان من عناوين الجهاد، ولا تعنينا هنا إسهامات الخوارزميّة في الحروب الأيّوبيّة الأيّوبيّة[١١]، بل سنتفرّغ فقط لحديث القدس:

بعدما أدّى الخوارزميّة خدماتهم الكبيرة للصالح أيّوب طلبوا منه منحهم أرضًا يسكنون فيها، وهدّدوه أنّه إذا لم يستجب فسوف يستولون

---

(١٠) **تاريخ متّى باريس**، ضمن **الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبيّة**، مصدر سابق، الجزء ٤٦، الصفحات ٣٥٤ إلى ٣٧٦، والصفحتان ٣٨٢ و٣٨٣، والصفحتان ٣٩٠ و٣٩١، والجزء ٤٧، الصفحات ٤٥٣ إلى ٤٦١.

(١١) انظر، **السلوك**، مصدر سابق، الجزء ١، القسم ٢، الصفحات ٣١٦ إلى ٣٢٩؛ **الروضتَين في أخبار الدولتَين النوريّة والصلاحيّة (مع الذيل)**، ضمن سلسلة **الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبيّة**، مصدر سابق، الجزء ٢٠، الصفحات ٣٤٢ إلى ٣٥١؛ **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحات ٧٤٥ إلى ٧٤٧، والصفحات ٧٥٢ إلى ٧٥٤؛ **مفرّج الكروب في أخبار بني أيّوب**، مصدر سابق، الجزء ٥، الصفحة ٣٣٢.

بحدّ السيف على الذي يرغبون به، فما كان من الصالح أيّوب إلّا أن قال:

«هناك على مسافة ليست بعيدة عن هذا المكان، يوجد بعض الناس، الذين يدعون باسم الصليبيّين، وهم يسكنون في الأماكن الساحليّة، وهم يزدرون شريعتنا، وهم مثيرين للمتاعب لنا، ويسبّبون الأضرار لنا، ويهدّدون بالبقاء هكذا والاستمرار، ومركزهم المهمّ ومقرّهم الرئيسيّ هو مدينة القدس، اذهبوا بناءً عليه، واطردوهم وعيشوا حيث يعيشون الآن، وهذا عندما تحصلون عليه، سوف تصبحون أثرياء بالأسلاب الثمينة، وسوف تمتلكون أراض خصبةً، وستبتهجون بالقلاع والمدن التي تتمنّاها قلوبكم، وسوف تكوًنون من ذلك الوقت سعداء في ظلّ حمايتي، وظلّ حماية جميع شعبي». وبناءً عليه فرحوا كثيرًا بهذا الكلام، وهاجموا أوّلًا القدس وقتلوا عددًا كبيرًا من الصليبيّين.

ولعلّ هذا العرض جاء من الصالح أيّوب حتّى يكسب هو الوقت، ثمّ يقوم بعد ذلك باستغلال الخوارزميّة في صراعاته الشاميّة، أو أنّ احتلال الخوارزميّة للقدس وفلسطين كان سيمنحه قوّةً دوليّةً حاجزةً تقف بينه وبين الممالك الأيّوبيّة الشاميّة والجزريّة، لا بل لعلّه أراد أكثر من ذلك، وقد رأى الاجتياح المغوليّ للمنطقة، أن يقف الخوارزميّة حاجزًا في وجه المغول إذا ما أرادوا الزحف نحو مصر، وحين أورد متّى باريس أخبار استيلاء الخوارزميّة على القدس اعتمد على ثلاث رسائل أرسل أولاها الإمبراطور فريدريك الثاني، الذي كان يعدّ نفسه ملك القدس، إلى الأمير رتشارد الذي سلف له عقد الهدنة مع الصالح أيّوب، وتبيّن من هذه الرسائل أنّ النشاط الخوارزميّ ضدّ القدس وانتزاعها من الصليبيّين وطردهم منها كان عام ١٢٤٤م، وجمع الإمبراطور معلوماته من تقارير نوّابه في فلسطين، وأكثر أهمّيّةً من رسالة الإمبراطور، وأعظم تفصيلًا رسالةً بعث بها مقدّم الإسبتاريّة في القدس، وأمّا الرسالة الثالثة فبعث

بها بطريرك القدس مع أساقفة مدن فلسطين التي كانت محتلّةً من قبل الصليبيّين، إلى رجال اللاهوت في فرنسا وإنكلترا، وللأهمّيّة القصوى لهذه الرسائل، آثرتُ إثباتها هنا بالنصّ، حيث جرى نشرها للمّرة الأولى بالعربيّة، وهي تحكي كيف أُعيد فتح القدس الذي يُنسب عادةً إلى الصالح أيّوب.

رسالة الإمبراطور حول إفراغ الأرض المقدّسة من السكّان

من فردريك، الذي هو بنعمة الربّ، إمبراطور الرومان، والأغسطس الدائم، وملك القدس وصقلية، إلى ابن ختنه المحبوب، رتشارد، إيرل أوف كورنوول، تحيّات، وعواطف خالصة أكيدة:

في راما سُمع صوت بكاء ونحيب، وعويل، وحزن عظيم، وهو صوت انتشر، كما أفادت الأخبار، مثل انتشار أخبار حزننا، وهو صوت، كما يبدو، يدفعه تيّار الخطّ المعاكس إلى آذاننا، ليوضّح أنّ الشرور لا تأتي لوحدها، فهناك أخبار تجلجل مثل أصوات الرعد، ويتردّد صداها حول القدس، وتعلن عن العاصفة المقبلة، التي فيها إفناء دمويّ لأتباع المسيح، وعن الخسارة المؤلمة لضريح الربّ، ثمّ عن التدمير المريع للمدينة المقدّسة، وهذا في أيّامنا! وفتحت هذه البروق سحب السماء، ليس من أجل تساقط الندى، أو زخّات مطر خفيفة، بل لتهطل علينا بفيض من المصائب، ولبعض الوقت أنعش الحبُّ والإيمان الصحيح المسيحيّين الذين نجوا من المذبحة التي عملها الخوارزميّة، ليقوموا بالانتقال لذلك الدمار، ولتلك الفاجعة الكبرى، ففي اللحظة نفسها لمؤتمرات القادة، ومع رغبة كلّ عسكريّ خاصّ أُلهِم لأن يفعل شيئًا ما، ردًّا على تلك الانتكاسة، كان بطريرك القدس يأمل بأن يحصل لنفسه على مجد النصر كلّه، وكان

يبحث عن كلّ أمير آخر، وشريك هناك غير جدير ليكون شريكًا معه، وهنا بدأ يبشّر بصليبيّة الربّ، ورفع من معنويّات الذين سمعوه، وألهبهم بشجاعة وصلت إلى حدّ الطيش، وبناءً عليه قام الجيش الصليبيّ، من دون انتظار للساعة الموائمة، وهي القاعدة الأكثر أهمّيّةً في الحرب، في يوم الاثنين قبل عيد القدّيس لوقا الإنجيلي، وهو مكوّن من جميع أنواع الفرسان الأجانب، قام أفراده بإلقاء أنفسهم على الخوارزميّة المتقدّم ذكرهم، الذين كانوا متوقّعين للهجوم، وكانوا مستعدّين للمقاومة، وهكذا حدث في هذه المعركة السيّئة الطالع، أنّه لم ينجُ أحدٌ من جميع الصليبيّن من القتل، أو من الوقوع بالأسر، ونجا آخرون - وكانوا قلّةً قليلةً - بفضل وسائل التفريج التي واجهوها أثناء فرارهم، وكان معظم هؤلاء الذين لم يندفعوا بطيش إلى وسط حومة القتال، حيث كان هناك قرع للسلاح، وزمجرة ضربات المتنازلين، وكان الذين نجوا من بين جميع بارونات الأرض المقدّسة، ومن عساكر مملكة القدس، ومن بين جميع عسكريّي رهبان الداوية، الذين بعثوا ثلاثمائة، ومن إسبتاريّة القدّيس يوحنا، الذين كانوا قد أُرسلوا مائتين، ومن بين جميع الذين حشدهم فرسان رهبان القدّيسة مريم للتيوتون، كان الذين نجوا من هؤلاء ليس أحدًا، إلّا البطريرك المتقدّم الذكر، واللورد سيمون دي مونتفورت (الذي كان حاملَ علم المملكة، وقائدَ المقدّمة) وأربعة من فرسان، وعدد ضئيل جدًّا من خدم الداوية، وتسعة عشر من الإسبتاريّة، وثلاثة خدم فقط من خدم الفرسان التيوتون، فهؤلاء فقط الذين عادوا، ولقد عادوا إمّا لحسن حظّهم، أو بوساطة الفرار، وكان هناك رجل من ذوي الشهرة مثل أسقف اللد، وصاحب حيفا، قد سقطا على أرض المعركة، وقد أصيبا بجراحة مميتة، وقد أصيب وولتر أسقف يافا بجراحة قاتلة، أمّا رئيس أساقفة صور الذي لم يمت من جراحاته، فقد ألقي به في السجن، وقد علم سموّنا بهذه الأشياء كلّها، من الرسائل التي أرسلت إلينا من

بيت رهبان القدّيسة مريم للتيوتون.

وتسبّب هذه المحصّلة المحزنة للأشياء، وتقدّم في ذاتها سببًا للأسى، وتسحب المرارة من قلوبنا، ومن قلوب جميع أمراء الإيمان المسيحيّ، وهي تستحقّ انهمار فيض من الدموع من أعيننا، بسبب طبيعة الفاجعة، لأنّه تقدّم عليها خطأ كبير، وتبعها كثير من الإهمال، لأنّه بالإضافة إلى إثارة هياج الفخار الدينيّ للداوية، الذين عاشوا على موارد بارونات الأرض، لقد أرغموا بحرب غير عادلة وغير حكيمة سلطان مصر على طلب مساعدة الخوارزميّة، وذلك في ازدراء كامل لمعاهدتنا الملكيّة التي عقدناها مع ذلك السلطان، ومع بيتي رهبان القدّيس يوحنا، والفرسان التيوتون للقدّيسة مريم، وقد أظهر هؤلاء الذين تقدّم ذكرهم سذاجةً طفوليّةً، ودليلًا على الحماقة، وذلك عندما وضعوا ثقتهم في البرابرة المتذبذبين، متوقّعين أن يجدوا الوفاء لدى الخونة، فباستخدامهم لوسائل غير أمينة، اتّحدوا مع سلطانَي دمشق والكرك، اللذين لم يختلفا عنهم بالعقيدة فقط، لا بل تفاوتا معهم بالمصالح، وكان الهدف من ذلك تقديم العون ضدّ الخوارزميّة والسلطان، وكانوا بهذا كمن أرسل بكمّيّات من الزيت لصبّها فوق النار الملتهبة.

وبناءً عليه، حسبما سمعنا بشكل واضح ورُويَ لنا من بعض الرهبان الذين قاموا من المناطق الأجنبيّة، استقبل الداوية السلطانَين المتقدّمَي الذكر، مع أتباعهما في أرباض بيوتهم، أي بيوت الداوية مع الفرح والاحتفالات، وسمحوا لهم بممارسة شعائرهم الوهميّة، وأبّهتهم المدنيّة، مع الدعاء باسم محمّد، ولم يعد من الممكن إبعاد هؤلاء الذين وُجّهت إليهم الدعوة، ولا بأيّ شكل من الأشكال، ولا باللطف من طبيعتهم، كما أنّهم لم ينثنوا عن البقاء بوساطة وعد التحالف الذي أقسموا عليه، وذلك عن متابعة ميولهم العدوانيّة، لا بل أظهروا بشكل واضح جدًا أنّ

الحنث باليمين ليس بالحريّ الوفاء به. أمّا سلطان حمص، الذي أرسله سلطان دمشق لمساعدة الذين عملوا تحالفًا للقتال ضدّ سلطان مصر، والذي لم تكن لديه آمال بنيل الخير على يدَي سلطان مصر، فقد هرب، ونجا من المعركة مع خمسة فقط من رجاله، أمّا بالنسبة للبقيّة، فإنّهم بعد صراع قصير تظاهروا فيه بالقتال، ذهبوا سالمين مع رجالهم كلّهم إلى سلطان الكرك من دون قتال، ولا حتّى ما يشبه القتال، وهكذا صفّوا أنفسهم إلى جانب الذين اقترنوا بهم في قلوبهم، وعلاوةً على ذلك، إنّ الإهمال الشديد الذي هو الخطوة الأخيرة نحو الدمار، عندما تكون سلامة واحد معلّقةً على عصا، ويلفظ كلّ خطر، ويهدّدنا بدمار سريع، وبالنسبة لزعماء الشريعة الأرثوذكسيّة – وهو أمر نحن جميعًا أرثوذكس – لا يمكننا أن نكتب عنهم من دون ألم كبير، هم بعيدون عن التفكير حول ترميم مثل هذه المأساة المحزنة، باستثناء التنهّدات، وفق طريقة أجدادنا، من أجل مثل هذه الأحداث المؤسفة، ولكن وكأنّ الشؤون لم تكن شؤون المسيحيّين، أو الإيمان المسيحيّ، لم نهتمّ بجراحاتنا، ولم نهتمّ حول أوجه المعالجات، فالربّ قد طاردنا، ونحن لم نتشكَّ، فنحن محاطون من كلّ جانب بأسقفنا المحترقة، ومع ذلك لم نركض من أجل إحضار الماء، لا بل كلّ واحد متجمّد مسرور في سوء حظّ الآخر، ففي المكان الأوّل الوحشيّة الجديدة للتتار قد أذهلتنا، وفي المكان الآخر هناك النكد القديم للشعوب البربريّة يحرقنا ويعذّبنا.

ثمّ هناك في الأماكن الأخرى الخيانة المخجلة للبيترنيّين التي قد أغضبتنا، وفوق كلّ شيء، خيانة الذين يضعفون الإمبراطوريّة المقدّسة في إيطاليا بوساطة أعمال عصيانهم، حيث إنّهم بذلك يعيقوننا عن إخضاع الشعوب البربريّة إلى الإمبراطورية المسيحيّة، وفقًا لما تطلبُه الكنيسة الكاثوليكيّة في طقوسها المقدّسة، وهكذا دفعنا في كلّ اتّجاه من قبل الأعداء المعلنين، أو من قبل عذاب الأعداء المتخفّين، والشيطان

يعمل بشكل متواصل، وهو متيقّظ، بينما سمعان نائم، ونحن غير مُتسامَح معنا هناك، حيث يمكن للنوم أن ينعش أعيننا، وللرقاد أن ينعش قلوبنا، وانهضوا، بناءً عليه، أيّها الرجال الشجعان، واحملوا سلاحكم وترستكم للانتقام لأذى أيّامنا، فهي مدوّنة بشكل أنّنا لا يمكننا أن نتجنّبها، والربّ هو الشاهد علينا بأنّنا قدّمنا دومًا بكرم زائد العون لمساعدة الأرض المقدّسة أكثر ممّا طلبته من عون الآخرين، لأنّنا نعتقد أنّك لست جاهلًا بالعسكريّين من وراء الألب، الذين هم قوم يحبّون القتال، وكيف أنّهم حملوا إشارة الصليب الرائع، وعهدوا بأنفسهم لخدمة الأرض المقدّسة، ثمّ كيف دعوا بوجوب أن يعهد بها إلى مقدّم مشهور، وأن يجري توجيهها من قِبل الذين كانوا يعبرون البحر، فلم يرفض سمّونا منحها التأييد بموافقتنا.

علاوةً على ذلك، لقد عرضنا شخصنا، أو شخص ابننا، أو أيّ قائد آخر يراه هؤلاء القوم أنّه شخص مناسب، واعدين بوجوب أن يصاحب الجيش ألف فارس مأجورين، نحن سوف نتولّى الدفع إليهم باستمرار للمساعدة في مثل هذا الشيء الجيّد، وبناءً عليه أرسلنا بيرارد Berard، رئيس أساقفة بلرم، وأسقفي ريغيو Reggio وفلورنسا، وكذلك أسقف سوسا، المحبّبين منّا والمقرّبين إلينا، إلى غريغوري، الذي كانِ آنذاك الحبر الأعظم الحاكم، وذلك ليكونوا بمثابة نوّاب خاصّين من سموّنا، ليسألوه لا شيء أكثر من الحماية – بوساطة حارس أمين ومناسب – لنا، ولأولادنا، ولإمبراطوريّتنا ولممالكنا، ولكي يمكن أخيرًا إرجاع اللومبارد المعاندين الوقحين والعصاة علينا، إلى معاودة الاعتراف – حسبما متوجّب عليهم أن يفعلوا – بالحقوق وبالسيادة العائدة إلى الإمبراطوريّة الرومانيّة، ومن أجل أنّه عندما يشاهد العصاة المتقدّم ذكرهم أعلاه، أنّ اتّحادهم، أو بالحريّ، تآمرهم قد جرى تدميره، وقتها يمكن أن يدفعوا من أجل أن يسدّدوا لنا مواردنا، مثلما يفعل رعايانا الآخرون، وكما تدفع الدول

الأخرى إلى ملوكها وسادتها الشرعيّين.

ثمّ إنّنا بعدما قدّرنا الظروف وأحوال الزمان، رأينا مسبقًا ما وقع حاليًّا وارتعبنا منه – مع أنّ معرفة الذي سيكون هو أمر مرفوض ولا يمكن معرفته من قبل إنسان فانٍ – لأنّ شرور الأيّام قد اتّسعت بشكل كبير، وأنّه في سبيل دمار إيطاليا سمح البابا الحاكم للكنيسة، بموافقة مع البابويّة، بزيادة عدد أعدائنا، وغريغوري البابا الحاكم قد مات، وقد ضعفت السلطة البابويّة بخلافات هذا الوقت وتمزّقاته، والذي يحكم الكنيسة الآن، والموضوع على رأس البابويّة، قد قدّمنا له بوساطة مندوبينا مقترحات أكبر بكثير ممّا كان من قبل، وهي مقترحات ما من أحد فكّر مصيبًا قط أنّ من الحقّ رفضها وعدم قبولها، وهذه المقترحات هي أنّنا بعد اعتمادنا على مولانا الجبّار يسوع المسيح، الملك المنتصر، صرفنا أنفسنا لأن نحمل على أكتافنا حملًا ثقيلًا، وأن نثقل أنفسنا بجميع شؤون ما وراء البحر، وعلاوةً على ذلك فيما يتعلّق بالعاصفة المهدّدة للتتار، وبالمخاوف من جهة إمبراطوريّة القسطنطينيّة، فذلك سيكون وفقًا لما قدّمه الرسول المتقدّم لسموّنا من تعليمات إليكم وإلى الملوك الآخرين والأمراء.

آه، كم كانت الفوائد كبيرة التي كانت ستكون بعد حين لفائدة الصالح العامّ، من الترياق الذي تمّ عرضه من قبل إخلاصنا، في الوقت الذي كان من الممكن فيه معالجة الضعف، وذلك قبل وقوع الضربة الثانية من الخطّ المعاكس، وتوجيهها ضدّ الجرح، ومضاعفة آلام الندبة الأولى، ونحن لا نعتقد أنّ الأمور ينبغي أن تُترك هكذا لليأس أو للموت من دون التفكير بعلاجات هي ممكنة وينبغي العودة إليها. وبالنسبة إلينا، إنّ جبروتنا لا يمانع في المساهمة في خطّة مفيدة من هذا النوع، لا بل إنّنا نعد بتقديم مكاتبنا الجيّدة برغبة أعظم، ولأنّنا نشاهد بأنّ الفأس قد

وُضع عند جذر الشجرة، نقدّر أنّه بات من الضروريّ بالنسبة لنا ولجميع أمراء الإيمان الصحيح، أن يقدّموا بناءً عليه المساعدة، حيث ما دامت إيطاليا - على كلّ حال - بسلام معنا، وممتلكاتنا وحقوقنا التي تمتع بها أبوانا الأقربان بسلام في كلّ مكان من الإمبراطوريّة والمملكة، حيث عادت إلينا ومعنا بسلام، فإنّه بذلك استردّ جناحانا نشاطهما، وتماسك ريشهما، فبهما يمكن أن تحلّق عاليًا بأمان عظيم.

صدر في فوجيا Foggia، في السابع والعشرين من شباط، في العلامة الثالثة.

رسالة أخرى أكثر تفصيلًا من مقدّم الإسبتاريّة في القدس

إلى اللورد م. دي ميرلي Merlaye الأعظم قوّةً، يرسل تحياته من القلعة الجديدة (نيوكاسل) الذي هو بنعمة الربّ المقدّم المتواضع للدير المقدّس في القدس، والوصيّ على الأتباع الفقراء للمسيح:

من المعلومات الواردة في رسائلنا التي أرسلناها لكم في كلّ عبور يمكنكم أن تروا بما فيه الكفاية من الوضوح، كيف سارت شؤون الأرض المقدّسة بشكلٍ سيّئ، وذلك بسبب النزاعات التي كانت قائمةً منذ زمن طويل، وذلكَ في وقت عمل الهدنة، وفيما يتعلّق بالارتباط بموقف الدمشقيّين ضدّ سلطان مصر، ونحن نرغب أن يعلم معاليكم بالأحداث الأخرى بعد انقضاء الهدنة، حيث اعتقدنا أنّه من المفيد أن نخبركم أنّه في حوالي بداية الصيف الذي انصرم أخيرًا، تصالح سلطان دمشق مع السلطان الناصر، صاحب الكرك، بعدما كانا من قبل متعاديَين، فقد أقاما سلامًا فيما بينهما، ودخلا بمعاهدة مع الصليبيّين، على شرط أن

يعيدا إلى الصليبيّين جميع مملكة القدس والأراضي التي كانت بحوزة الصليبيّين قرب نهر الأردن، إلى جانب بعض القرى التي احتفظوا بملكيّتها في الجبال، ومقابل ذلك توجّب على الصليبيّين أن يعطوهم كلّ المساعدات التي بإمكانهم في قتال سلطان مصر، وتمّت الموافقة على شروط هذه المعاهدة من قبل الفريقَين، وشرع الصليبيّون يأخذون أماكن استقرارهم في المدينة المقدّسة، بينما بقي جيشهم في غزّة برفقة جيش السلطانَين المتقدّمَي الذكر لمناوشة سلطان مصر ومضايقته، وبعدما انخرطوا في هذا العمل لبعض الوقت وصل بطريرك القدس من بلاد ما وراء البحر، وبعد استراحته جسديًّا لبعض الوقت، حرّكه الشوق لزيارة ضريح ربّنا، وانطلق ليقوم بذلك الحجّ، حيث كنّا أيضًا برفقته، وبعدما وفينا بنذر حجّنا، سمعنا في المدينة المقدّسة بأنّ حشدًا لا عدد له من الجنس المتوحش والعنيد والذين يُعرفون باسم الخوارزميّة قد قام، بناءً على استدعاء سلطان مصر وأوامره، باحتلال جميع المنطقة الموجودة في الجزء الأقصى من أراضينا المجاورة للقدس، وتغطية وجهها، وقد جعلوا كلّ نفس حيّة طعمًا للموت بالنار وبالسيف.

وجرى عقد مؤتمر حول هذه المسألة من قِبل الصليبيّين الذين كانوا يعيشون في القدس، وبما أنّه لم يكن بمقدورهم مقاومة هؤلاء الناس، ترتّب بشكل عقلانيّ بأن يقوم جميع سكّان القدس من كلا الجنسَين ومن كلّ عمر بالزحف تحت حراسة كوكبة من الفرسان إلى يافا، بحكم أنّها كانت مكانًا أمينًا للالتجاء إليه، وفي تلك الليلة نفسها، وبعدما أنهينا مداولاتنا، اقتدنا قومنا بحذر إلى خارج المدينة، وسرنا ونحن مطمئنّين نصف المسافة، حيث أظهر المعيق الأكثر تدميرًا لنا نفسه، وذلك بسبب تدخّل الشيطان الذي هو عدوّنا الماكر القديم، وقد رفع القوم المتقدّم ذكرهم على أسوار المدينة بعض الأعلام التي تركها الفارّون خلفهم، حتّى يمكنهم بتلك الوساطة إعادة الغافلين، بمنحهم الاعتقاد بأنّ الصليبيّين

الذين بقوا، قد هزموا أعداءهم، وبادر بعض أتباعنا من الصليبيّين بالإسراع خلفنا لإرجاعنا، وبعثوا الطمأنينة بنفوسنا بملامح مشرقة، وأعلنوا بأنّ أعلام الصليبيّين التي يعرفونها معرفةً جيّدةً قد رُفعت فوق أسوار القدس، وذلك بمثابة علامة على أنّهم هزموا الأعداء، وهم بذلك قد خُدعوا، وخدعونا معهم أيضًا، وبناءً عليه عدنا ونحن مسرورين واثقين إلى المدينة المقدّسة، ظانّين أنّنا سوف نسكن هناك بأمان، وقام كثيرون انطلاقًا من مشاعر التقوى، وآخرون بأمل الاستحواذ على مواريثهم والاحتفاظ بها، بالاندفاع من دون حذر، فعادوا إلى المدينة نفسها أو إلى أرباضها، وسعينا نحن – على كلّ حال – لثنيهم عن هذا كلّه، خائفين من خيانة من هؤلاء القوم الغادرين، ولذلك تخلّينا عنهم وغادرناهم، وحدث بعد أمد وجيز من مغادرتنا أن قدم هؤلاء الخونة بقوّات كبيرة، وطوّقوا الصليبيّين في المدينة المقدّسة، وحملوا عليهم حملات عنيفةً يوميًّا، مع الحيلولة بينهم وبين الدخول إلى المدينة أو الخروج منها بكلّ وسيلة من الوسائل، وأنزلوا بهم البلاء بمختلف الطرق، وبسبب هذه الهجمات والجوع والأسى، وصلوا إلى حالة اليأس، واتّفقوا جميعًا على تعريض أنفسهم لحظوظ مخاطر الموت على أيدي العدوّ، وبناءً عليه غادروا المدينة أثناء الليل، وارتحلوا وساروا فوق الطرقات في المناطق المهجورة من الجبال، حتّى وصلوا أخيرًا إلى ممرّ ضيّق، وهناك وقعوا في كمين للعدوّ، الذي طوّقهم من جميع الجهات، وهاجمهم بالسيوف والنشّاب والحجارة وغير ذلك من الأسلحة، وقتلهم، ومزّقهم، وقطّع إلى أشلاء حوالي سبعة آلاف من الرجال والنساء، وذلك وفقًا لأصحّ الإحصائيّات، حتّى أنّ دم هؤلاء المؤمنين قد جرى على جوانب الجبال مثل الماء، وذلك كما رأيته وأنا حزين، وأخذوا الشباب والعذراوات معهم إلى الأسر، وعادوا إلى المدينة المقدّسة، حيث قطعوا أعناق الراهبات والرجال المسنّين الضعفاء الذين كانوا غير قادرين على تحمّل متاعب الرحلة والفرار، وذبحوهم

وكأنّهم أغنام كان من المقرّر ذبحها، وجاء ذلك بعدما هربوا إلى كنيسة الضريح المقدّس، وإلى الجمجمة، وهو المكان الذي تكرّس بدم ربّنا، وهكذا اقترفوا في هذا المعبد المقدّس جريمةً لم تشهد أعين الناس مثيلًا لها منذ بداية الدنيا.

وبعد مرور بعض الوقت، وبما أنّ وحشيّة هذه الجريمة الكبرى التي لا يمكن التهاون نحوها أثارت المشاعر الدينيّة لدى جميع الصليبيّين، ودفعتهم إلى الانتقام من الإهانات التي ألحقت بخالقهم، ولذلك جرى الاتّفاق الإجماعيّ بأنّه يتوجّب علينا جميعًا - بعد طلب المساعدة من السماء - إعداد أنفسنا وتنظيمها، للاشتباك بمعركة مع هؤلاء القوم الخونة، وبناءً عليه هاجمناهم، وقاتلناهم من دون استراحة من الصباح الباكر حتّى انتهاء النهار عندما حال الظلام بيننا وبين التمييز بين قومنا وبين أعدائنا، وقد سقطت أعداد كبيرة من جانبنا، كانت أربعة أضعاف ما قتل من أعدائنا، فهذا ما أمكن معرفته بعد القتال.

وفي اليوم التالي (عيد القدّيس لوقا الإنجيليّ) كان فرسان الداوية والإسبتاريّة قد وجدوا أنفسهم قد استردّوا شيئًا من قوّتهم، فاستمدّوا العون من علّيّين، مع جميع الرهبان الآخرين الذين كرّسوا أنفسهم لهذه الحرب، وأوقفوا طاقاتهم عليها، واحتشد جميع الصليبيّين في الأرض المقدّسة، بناءً على دعوة وإعلان من البطريرك، وتحت قيادته، واشتبكوا بمعركة هي الأكثر دمويّةً مع الخوارزميّة المتقدّم ذكرهم، وخمسة آلاف فارس مسلم آخرين كانوا الآن يقاتلون تحت قيادة سلطان مصر، وذلك بعد انضمامهم مؤخّرًا إلى هؤلاء الخوارزميّة، وجرى قتال حادّ من على الطرفَين، ولم يكن بإمكاننا تجنّبهم، لأنّه كان هناك جيشًا قويًا وكبيرًا على جانبَينا، وكنّا أخيرًا غير قادرين على الصمود في وجه مثل تلك الحشود، لأنّ قوّاتٍ جديدةً غير متعبة من الأعداء تابعت التدفّق علينا، ذلك أنّهم

كانوا عشرة أضعاف تعدادنا، وكنّا منهكين وجرحى، وما برحنا نشعر بتأثير المعركة التي وقعت مؤخّرًا، ولذلك كنّا مرغمين على الفرار تاركين لهم ساحة المعركة، مع نصر دمويّ وغالٍ جدًّا، لأنّ أعدادًا كبيرةً سقطت من على جانبهم، كانت أكثر ممّا سقط منْ على جانبنا، وقد سوعدنا كثيرًا من قبله، الذي هو حافظ للأرواح، حتّى أنه لم ينجُ مئة بالفرار، لكن طوال ما كنّا قادرين على الصمود، شجّعنا بعضنا وواسينا بعضنا بعضًا في المسيح، وقاتلنا بدون تعب وبشجاعة، ممّا أدهش أعداءنا، حتّى وقعنا أخيرًا بالأسر، وهو ما حاولنا أن نتجنّبه، بأن نقتل، ولذلك قال العدوّ، فيما بعد، وهو مندهش، إلى أسراه: «أنتم عن طواعية ألقيتم بأنفسكم في طريق الموت، فلماذا كان ذلك؟»، وعلى هذا أجاب الأسرى قائلين: «كنّا نفضّل بالحريّ أن نموت في المعركة، ذلك أنّنا بموت أجسادنا نحصل على التمجيد لأرواحنا، وذلك بدلًا من أن نفرّ بدناءة، فمثل هؤلاء الناس، هم بالحقيقة، يُخاف منهم كثيرًا»، وسحقت في المعركة المذكورة قدرة الصليبيّين، وكانت أعداد الذين قُتلوا من على الجانبَين لا تُحصى، وجرى قتل مقدّمي الداوية والإسبتاريّة، وكذلك مقدّمي الطوائف الأخرى، مع فرسانهم وأتباعهم، أمّا وولتر كونت بريين Brienne، واللورد دي مونت فورت، والذين قاتلوا تحت لواء البطريرك، فقد جرى تمزيقهم إلى أشلاء، ونجا من الداوية ثمانية عشر فقط، وستّة عشر من الإسبتاريّة، وكانوا فيما بعد آسفين، لأنّهم أنقذوا أنفسهم. وداعًا.

رسالة مبكية

إلى الآباء المبجّلين في المسيح، وإلى جميع أصدقائنا: رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الأديرة، والأساقفة الآخرين في إنكلترا وفرنسا، وإلى الذين سوف تصلهم هذه الرسائل، يتمنّى لكم روبرت، الذي هو بنعمة

الربّ بطريرك الكنيسة المقدّسة في القدس، والنائب للكرسيّ الرسوليّ، وهنري رئيس أساقفة الناصر وج. J، الأسقف المنتخب لقيسارية، و ر. R أسقف عكا، وأسقف صيدا، والراهب وليم أوف روكفورت Rochefort، نائب مقدّم بيت فرسان الداوية، ورهبان البيت نفسه، وهـ. H، رئيس رهبان ضريح ربّنا، وراعي دير القدّيس صموئيل لطائفة رهبان البريمونستريت Premonstrate، ورعاة الأديرة: ب. B راعي دير جبل الزيتون، وج. J راعي دير هيكل ربّنا، وب. P راعي دير جبل الطور، و ر.R راعي دير جبل صهيون، الصحّة والنجاح وفقًا لرغباتكم:

قدمت حدّة الحيوانات الشرسة من مناطق الشرق، ووجّهت مسارها نحو منطقة القدس، التي مع أنّها اعتادت في أوقات كثيرة أن تتعرّض للمضايقات بطرق متنوّعة من قبل المسلمين المحيطين بها، قد تمتّعت بالآونة الأخيرة بشيء من التنفّس بحرّيّة، لأنّ أعداءها القريبين قد أخلدوا إلى الراحة، ومع ذلك فإنّ ذنوب المسيحيّين قد أثارت شعبًا غير معروف، حتّى يقدم على تدميرهم، وقد جلب السيف المنتقم وسلّطه عليهم من بعيد، نعم لقد هزّ غضب التتار ورعبهم جميع منطقة الشرق، بوساطة المصائب المضاعفة والمرعبة، فقد اضطهدوا الناس سواءً، ولم يميّزوا بين مسيحيّ وغير مسيحيّ، بل أخذوا أسلابهم من أقصى البقاع، حتّى من الذين هم أنفسهم قد عاشوا على افتراس الشعب المسيحيّ، فبعدما نهب ودمّر هؤلاء التتار المذكورون جميع بلاد فارس، وشنّوا حربًا بروح فاسدة، واصطادوا أولئك الخوارزميّة المتوحّشين، وسحبوهم من جحورهم، طردوهم من مقاطعاتهم، ولم يمتلك هؤلاء الخوارزميّة مكانًا يسكنون به، ولم يتمكنوا من الحصول على ملاذ آمن بين أيّ من المسلمين، بسبب شرورهم، وقد تلقّوا العون فقط من سلطان مصر، ذلك المتعقّب للإيمان المسيحيّ، وهو وإن رفض منحهم مكانًا يلتجؤون إليه في أراضيه، عرض عليهم وقدّم إليهم ما هو ملك للآخرين، واستدعاهم

ووجّه الدعوة إليهم ذلك المسلم، للسكنى في أرض الميعاد، التي وعد بها الذي هو في عليّين، وأعطاها إلى الذين آمنوا به، وبناءً عليه، قدموا، وهم معتمدين على عون السلطان المذكور، مع زوجاتهم وأسرهم، وعدّة آلاف من الفرسان المسلّحين، ودخلوا إلى ميراث الربّ، الذي قالوا بأنّ سلطان مصر قد منحهم إيّاه، وكان وصولهم مفاجئًا، ولم يكن متوقّعًا لا من قِبَلنا ولا من قِبل الناس المجاورين لنا، لذلك لم يتمكنوا من إنذارنا للاحتراز ضدّهم، وقد دخلوا إلى منطقة القدس من خلال مقاطعتَي صفد وطبريّة، ومع أنّنا استخدمنا كلّ حيطة ويقظة لإبداع وسائل من أجل إرجاع الأرض المقدّسة إلى سالف عهدها من السلام والهدوء، الذي اضطرب بقدوم هؤلاء الأعداء الجدد، مع ذلك لم تكن إمكانات الصليبيّين كافيةً للقيام بواجب طردهم، وإثر هذا استحوذ الخوارزميّة الذين تقدّم ذكرهم على المنطقة كلّها الممتدّة من طور الفرسان على مقربة من القدس حتّى غزّة، وقمنا بناءً عليه، واعتمادًا على نصيحة الجميع ورغبتهم، بالتعاون مع مقدّمي بيتي الرهبان، أي فرسان الداوية، وفرسان إسبتاريّة القدّيس يوحنّا، ومدير فرسان التيوتون للقدّيسة مريم، ومدير المملكة، فتوجّهنا بالدعاء إلى مساعدة جميع الصليبيّين، وسلطانَي دمشق وحمص اللذين كانا آنذاك يربطهما معنا معاهدة سلام، واللذين كانا معاديَين ومبغضَين للخوارزميّة، واللذين كانا ملتزمَين، وفقًا لشروط المعاهدة، بالدفاع عن الأراضي التي هي بين أيدي الصليبيّين ضدّ المسلمين الآخرين، لأنّنا اعتقدنا أنّهم أنذروا بوصول أولئك الخوارزميّة المذكورين، وهم وإن وعدونا بإخلاص وأقسموا على أن يقدّموا العون إلينا، تأخّروا كثيرًا بتقديم أيّ نجدة إلينا، وفي الوقت الذي كان فيه الصليبيّون متردّدون حول القتال ضدّ هؤلاء الخوارزميّة، لأنّ أعدادهم كانت قليلةً جدًّا مقارنةً بأعدائهم، غالبًا ما هاجم هؤلاء الخوارزميّة مدينة القدس، التي لم تكن محميّةً بحواجز دفاعيّة على الإطلاق، وبناءً عليه

فإنّ الصليبيّين الذين كانوا في المدينة، وكانوا يخافون من وحشيّة هؤلاء «الكفّار»، احتشدوا حتّى بلغ عددهم أكثر من ستّة آلاف رجل، ووثوقًا منهم بالهدنة التي كانت معمولةً بينهم وبين سلطان الكرك، ومسلمي المناطق الجبليّة، تركوا عددًا قليلًا في المدينة وانطلقوا خلال هذه المناطق الجبليّة مع أسرهم، وجميع مقتنياتهم، للدخول إلى أراضي الصليبيّين، لكنّ المسلمين في تلك المناطق انقضّوا عليهم وهاجموهم، ووضعوا بعضهم طعمةً للسيف من دون رحمة، واعتقلوا آخرين، وعهدوا بهم إلى أسر لا أمل فيه، وعرّضوا الصليبيّين من الجنسَين حتّى الراهبات للبيع إلى المسلمين الآخرين، وتمكّن بعضهم - على كلّ حال - من النجاة بالنزول إلى سهل ا ِملة، ووقتها انقضّ الخوارزميّة عليهم، واقترفوا مذبحةً هائلةً بينهم، إلى حدّ أنّ الذين نجوا من ذلك الحشد الكبير، لم يتجاوز عددهم الثلاثماية، وكان هؤلاء بلا حياة تقريبًا، ثمّ دخل أولئك المتوحّشون التعساء المتقدّم ذكرهم إلى مدينة القدس، وكانت الآن شبه خالية من الناس، وقتلوا جميع الصليبيّين الذي بقوا هناك، حتّى أمام ضريح ربّنا نفسه، وفي الكنيسة التي هربوا إليها للالتجاء، لا بل حتّى أنّهم قطعوا رؤوس الكهنة الذين كانوا يؤدّون القدّاسات عند المذبح، وكانوا يردّدون بين أنفسهم: «دعونا هنا نصبّ دماء هؤلاء الناس الصليبيّين، وذلك حيث شربوا الخمرة تشريفًا لربّهم، الذي يقولون بأنّه عُلّق هنا على الصليب»، وبالإضافة إلى هذا نحن نخبركم بما هو أكثر إيلامًا وحزنًا، حيث إنّهم وضعوا أيديهم الملوّثة، على ضريح قيامة ربّنا، ولوّثوه بطرق كثيرة، ولقد انتزعوا تقريبًا ألواح الرخام التي كانت موضوعةً من حوله، ولطّخوا بكلّ وسيلة من الإهانات التي كانت بإمكانهم، جبل [أكرا] الجمجمة، حيث جرى صلب المسيح، والذي فعلوه بالمدينة هو ما لستُ بقادر على التعبير عنه، وانتزعوا أعمدة الضريح المقدّس التي وُضعت أمام ضريح ربّنا بمثابة زينة، وتحدّيًا للمسيحيّين أرسلوهم إلى

ضريح محمّد [صلّى الله عليه وآله وسلّم] بمثابة علامة على النصر، ولكي يزيدوا من إهانة الصليبيّين خرقوا حرمة قبور الملوك السعداء [للصليبيّين] التي كانت موضوعةً في الكنيسة نفسها، وفرّقوا عظامهم وبعثروها في كلّ اتّجاه، وبالنسبة لجبل صهيون المبجّل، فقد خرقوا حرمته، ولطّخوا بأشياء غير معقولة، وغير مناسبة لذكرها، هيكل الربّ، وكنيسة وادي شعفاط، حيث يوجد ضريح العذراء المباركة، وفعلوا مثل ذلك بكنيسة بيت لحم، وموضع ولادة ربّنا، وبذلك فاقوا بشرورهم جميع المسلمين الآخرين، الذين مع أنّهم غالبًا ما هاجموا الأراضي الصليبيّة، دومًا أبدوا بعض الاحترام إلى هذه الأماكن المقدّسة، هذا ولم يكن هؤلاء الخوارزميّة المذكورون قانعين بكلّ هذا، وكانوا يستهدفون الاستيلاء على جميع المنطقة التابعة للصليبيّين وتدميرها كلّيًّا، وقد استثير الصليبيّون بسبب هذه التجاوزات والأضرار، وباتوا غير قادرين على تحمّل مثل هذه الشرور مدّةً أطول، التي هي شرور كافية لإثارة كلّ حزن وأسًى في قلب كلّ تابع غيور للإيمان الكاثوليكيّ، لذلك قرّروا بموافقة عامّة العمل على توحيد قوى السلطانَين المتقدّمَي الذكر مع قوّات الصليبيّين، وبناءً عليه، بدأ الجيش الصليبيّ في اليوم الرابع من تشرين أوّل بالزحف ضدّهم من ميناء عكا، وسار خلال قيساريّة والمناطق الساحليّة الأخرى.

وعلم الخوارزميّة وقتها باقترابنا، ولذلك تراجعوا خلال مناطق متعدّدة، ونصبوا معسكرهم أخيرا أمام عكّا، وانتظروا هناك النجدات التي كان سلطان مصر - الذي هو رأس ومقدّم الدنس - على وشك إرسالها إليهم، وعندما التحق بهم حشد كبير أرسله السلطان المذكور، وصل إليهم الجيش الصليبيّ مع السلطانَين المتقدّمي الذكر، وكان ذلك عشيّة عيد القدّيس لوقا، فيومها وجدناهم أمام غزّة مع حشد لا يُحصى، وكانت فرقهم معبّأةً للقتال، وبناءً عليه جرى ترتيب جيشنا من قبل المقدّمين وفق النظام الموائم لمهاجمة الأعداء وقتالهم، ثمّ قام البطاركة

والأساقفة الآخرون بتحليلهم من ذنوبهم بموجب سلطان الربّ القدير والكرسيّ الرسولي، وأعطى الجميع شارات، وأظهروا علامات على ندم مخلص بوساطة تدفّق الدموع، فهم عدّوا موت الجسد أمرًا لا قيمة له، وكانوا يأملون بنيل الجزاء الأبديّ، واعتقدوا جميعًا: أن تموت من أجل المسيح هو أن تعيش؛ لأنّه لا بدّ من حدوث مصيبة جسديّة لنا بسبب ذنوبنا، يتوجّب أن نعتقد أنّ الذي هو في عليّين، الذي يبحث في القلوب، ويعرف جميع الأسرار، سوف يكون مسرورًا بالحصول على الأرواح بدلًا من نيل الأجساد.

ثمّ إنّنا اشتبكنا بعد ذلك مع العدوّ، ووقتها لحقت الغلبة بالمسلمين الذين كانوا معنا من قبل العدوّ، وهربوا جميعًا، وكانت أعداد منهم قد قتلت أو وقعت بالأسر، وهكذا تُرك الصليبيّون لوحدهم في ميدان المعركة، ومع أنّ الخوارزميّة والمصريّين انقضّوا عليهم مع بعضهم، صمد الصليبيّون بحكم كونهم أبطال الربّ، والمدافعين عن الإيمان الكاثوليكيّ، والذين جعل منهم الإيمان نفسه والآلام إخوانًا، وأظهروا مقاومةً شجاعةً لهم، وانصاعوا – وأنا أكتبُ ذلك بأسف – أمام النصر الذي ناله أعداؤهم، والذين نجوا من بين جميع فرسان الداوية، ومن فرسان إسبتاريّة القدّيس يوحنّا، ومن فرسان التيوتون للقدّيسة مريم: فقط ثلاثة وثلاثون من الداوية، وستّة وعشرون من الإسبتاريّة، وثلاثة فقط من رهبان فرسان التيوتون، هؤلاء فقط الذين نجوا، أمّا البقيّة فهم إمّا قد قُتلوا، أو جُعلوا أسرى، وذلك بالإضافة إلى مذبحة هائلة أُلمّت برماة القسيّ العقّارة، وكذلك بالنسبة للجنود الرجّالة.

وفيما يتعلّق برئيس أساقفة صور، وأسقف اللد، وراعي دير القدّيسة مريم في شعفاط ومقدّم الداوية، ومدير التيوتون للقدّيسة مريم، وعدد آخر من الرهبان والكهنة، بما أنّهم لم يظهروا بيننا، نحن في شكوك عظيمة

حولهم، لا ندري أسقطوا في المعركة، أم أنّهم ما زالوا قيد الأسر، فنحن غير قادرين على تأكيد الحقيقة حولهم، أمّا مقدّم الإسبتاريّة، والكونت وولت ردي بيريين، فقد حُملا مع عدد كبير آخر أسرى إلى القاهرة، وأمّا بالنسبة لي أنا البطريرك، الذي بسبب ذنوبي وقعت جميع هذه المصائب، فقد عُددت من قِبل الربّ أنّني غير جدير بالشهادة، ولذلك نجوتُ، وأنا نصف ميت، وتمكّنتُ من اللجوء إلى عسقلان مع النبلاء، وقسطلان عكا فيليب دي مونتفورت، والفرسان، والعساكر الرجّالة، الذين نجوا من المعركة، ومع أنّه ليس هناك راحة بين مثل هذا العدد الكبير من المصائب والخسائر التي ألمّت بنا، ذلك أنّنا خسرنا كلّ شيء في المعركة المتقدّمة الذكر، مع ذلك إنّ الذي كان بإمكاننا فعله في حالة الطوارئ الحاليّة فعلناه، فقد قمنا بإرسال رسائل ورسلًا إلى الملك المشهور لقبرص، وإلى أمير أنطاكية، ورجوناهما بحرارة وحثثناهما في حالة الضرورة الملحّة هذه، أن يُرسلا فرسانًا وعساكر من أجل حماية الأرض المقدّسة، لكنّنا لا نعرف بعد ما الذي عازمان على فعله في هذه القضيّة.

ثمّ إنّنا عدنا إلى عكّا، واتّخذنا مقامنا في تلك المدينة التي وجدناها، وكذلك وجدنا جميع المنطقة على طول الساحل، مليئةً بالحزن والنحيب، وبمختلف أنواع التعاسات التي لا نهاية لها، ولم يكن هناك بيت أو روح حيّة لم تكن تبكي واحدًا من الموتى قريبًا لها، ومع أنّ الحزن من أجل الماضي كان كبيرًا وقاسيًا، إنّ الخوف من المستقبل استولى على الجميع، لأنّ جميع المنطقة التي تمّ نيلها بسيوف الصليبيّين، هي الآن خالية من جميع بني البشر، ومن جميع المساعدات الأرضيّة، والحماية، وقوّة المدافعين قد نزلت إلى لا شيء، ودمّرت، لأنّ هناك فقط عددًا قليلًا من الأحياء، ومع أنّ هؤلاء قد انحدروا إلى حافّة الموت، ما من شيء كما يبدو قد بقي، بل يتوجّب أن يسقط كلّ المتبقّي في أيدي أعداء الصليب، وفق رغباتهم، ذلك أنّهم تقدّموا إلى درجة عالية من الصلف والوقاحة،

حتّى إنّهم زحفوا فنصبوا مخيّمهم، الذي امتدّ فوق مساحة ميلين في السهل القريب من مدينة عكا، ثمّ إنّهم الآن يركضون بشكل وحشيّ، وهم أحرار، حيث ليس هناك من يعترضهم أو يتصدّى لهم، في جميع المنطقة بالطول والعرض، وذلك حتّى منطقتَي الناصرة وصفد، وهم قد استحوذوا على المنطقة، وشرعوا يتقاسمونها فيما بينهم، وكأنّها كانت منطقتهم، وقد عيّنوا رسلًا ووكلاء في جميع قرى وبلدات الصليبيّين، ويتسلّمون الموارد والجزية من رجال المقاطعات ومن بقيّة السكّان، وهو ما كانوا من قبل يدفعونه إلى الصليبيّين، وقد أصبح رجال المقاطعات هؤلاء الآن أعداءً للصليبيّين وعصاةً ضدّهم، ومرتبطين متحالفين مع الخوارزميّة.

وهكذا فإنّ جميع كنائس القدس، وكذلك جميع الأراضي الصليبيّة، ليس لديها الآن أراض تتجاوز بعض الأماكن الحصينة القليلة، التي يجدون مصاعب جمّةً كبيرةً في الدفاع عنها، ولقد قيل أيضًا بأنّ المصريّين الذين هم الآن عند غزّة سوف يقدمون قريبًا بأعداد كبيرة جدًّا إلى عكا، للاتّحاد مع الخوارزميّة في حصار المدينة، وتلقّينا أيضًا في الثاني والعشرين من تشرين الثاني رسائل مع رسل من القسطلان مع الإسبتاريّة الذين يشكلون الحامية في قلعة عسقلان، يعلنون لنا بأنّ الجيش الإسلاميّ القادم من مصر قد ألقى الحصار على تلك القلعة، وأنّ المسلمين قد طوّقوها، ولقد التمسوا منّا أن نرسل إليهم مساعدات سريعةً ومؤنًا، وأن يكون ذلك منّا ومن الجماعة الصليبيّة.

وفي سبيل أن تثيرك تقواك للإشفاق على دماء الأرض المقدّسة، لأنّ هذا العبء يقع على أكتاف الجميع بشكل عامّ، رأينا من الصواب إخباركم عن أوضاع قضيّة المسيح، وبتواضع نرجوكم وبالصلوات والتقوى الخالصة نلتمس منكم، أن تطلبوا الرحمة من العليّ الأعلى

لصالح تلك الأرض، في سبيل أنّ الذي كرّس تلك الأرض بدمه، في سبيل خلاص جميع الناس، أن يتطلّع إلى تلك الأرض برحمته، وأن يمدّ يده لمساعدتها وحمايتها، وقدّم أيضًا أيّها الأب الأعظم محبّةً ما تمتلك من نصيحة ومساعدة في هذه القضيّة، حتّى تحصل من ذلك لنفسك على المكافأة في السماء، وبالنسبة إليكم يمكنكم أن تكونوا متأكّدين تمامًا، أنّه ما لم تقدّم مساعدة إلى الأرض المقدّسة في العبور المقبل لشهر آذار، من يد العليّ الأعلى، وبوساطة نجدات من القوّات الصليبيّة، إنّ الدّمار والتخريب المحيق بها الآن لا يمكن النجاة منه، وبما أنّنا نحتاج إلى وقت طويل حتّى نبيّن الضروريّات الأخرى التي نحتاجها، وأوضاع الأرض المقدّسة بشكل عامّ في رسالة، أرسلنا إليكم الأب المبجّل أسقف بيروت وآرنولف Arnulph، وهو راهب من طائفة رهبان الدومينيكان، وهما سوف يحكيا إلى جماعتكم الحقيقة كلّها كاملةً وبصدق، ونحن بتواضع نرجوكم جميعًا الإصغاء إلى الرسولَين المتقدّم ذكرهما، وأن تعاملاهما بكرم، لأنّهما عرّضا نفسَيهما لمخاطر عظيمة لصالح كنيسة الربّ بقيامهما برحلتهما في الشتاء.

صدر في عكّا في اليوم الخامس والعشرين من شهر تشرين الثاني، من عام ألف ومئتين وأربع وأربعين لتجسيد ربّنا. [انتهى نصّ الرسالة]

ووضع على النسخة الأصليّة من هذه الرسالة البليغة اثنَي عشر ختمًا. وأوجز متّى باريس خبر ما حدث، حيث اعتمد على تقارير أخرى بقوله:

وكان سبب هذه الفاجعة المحزنة، التي ورد ذكرها أعلاه، والتي وقعت أوّلًا في مدينة القدس هو ما يلي: عندما قام الخوارزميّة بهجومهم المفاجئ على البطريرك، وعلى سكّان المدينة هرب البطريرك المذكور، مع أسر أهل المدينة بكلّ سرعة إلى يافا، للالتجاء هناك، وقام الخوارزميّة المَكَرَة في سبيل إعادة الفارّين، واصطيادهم لقتلهم، برفع أعلام الصليبيّين – الذين كانوا قد هربوا فجأةً – فوق شرفات أسوار

المدينة، ونتيجةً لهذا، فإنّ بعض الصليبيّين الذين كانوا متخفّين خارج المدينة، تركوا أماكن تخفّيهم، وامتطوا خيولًا سريعةً، ولحقوا ببني جلدتهم الصليبيّين، بموجب عواطف روح الأخوّة، ودعوهم للعودة، وأعلنوا بأنّ رفاقهم الذين بقوا في المدينة، قد انتصروا بسعادة على أعدائهم، ورفعوا أعلامهم بسرور فوق الأسوار، وبناءً عليه عادوا، لكن عندما حملوا أنفسهم مع شعور بالأمان ودخلوا إلى المدينة أو إلى أحوازها، كان القوم المتقدّم ذكرهم مسلّحين حتّى أسنانهم، وكانوا مستعدّين من قبل، ولذلك انقضّوا على الصليبيّين الفارّين، وقتلوهم جميعًا بحدّ السيف، ثمّ قام قومنا الذين بقوا سالمين ولم يتعرّضوا للأذى في المدن والقلاع الأخرى، فحشدوا جيشًا كبيرًا، وقرّروا بالإجماع طلب الانتقام لدماء إخوانهم، وأن يكون انتقامهم من أعدائهم دمويًّا وبأيدٍ ثقيلة، وأنشبوا معهم القتال، لكنّهم سحقوا، كما هو واضح من رسالة الإمبراطور المكتوبة أعلاه، وهكذا كان نصيب الأكثريّة القتل، وكانوا قلّةً الذين جُرحوا والذين نجوا بالفرار، بعدما تركوا أعداءهم يتفاخرون بالنصر الدمويّ الذي نالوه عليهم، وذلك حسبما اعترف الأعداء أنفسهم بأفواههم، بعد المعركة، التي استمرّت من الصباح الباكر حتّى وضع حلول ظلام الليل نهايةً لها، لأنّه لم يعد بمقدور أيّ من الفئتين تمييز الأخرى.

وذكر متّى أنّ الرسالة الثالثة حملها إلى أوروبا ولران Waleran أسقف بيروت مع راهب من طائفة الدومينيكان، وكان الهدف منها إطلاع ملكي إنكلترا وفرنسا على ما حدث، وإثارة شعوب أوروبا[١٢]، وجاءت ردّات فعل هنري الثاني ملك إنكلترا فاترةً متردّدةً، لكنّ لويس التاسع ملك فرنسا اتّخذ قراره بالتوجّه نحو الشرق، فقاد ما يُعرف باسم الحملة الصليبيّة السابعة التي قصدت مصر، ووصلت إلى دمياط في عام ١٢٤٩م.

---

(١٢) تاريخ متّى باريس، ضمن الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبيّة، مصدر سابق، الجزء ٤٧، الصفحات ٦١٨ إلى ٦٢٩، والصفحات ٦٥٨ إلى ٦٦٦.

وعلى الرغم من أهمّيّة حملة لويس، التي عُرفت باسم الحملة السابعة، والتي عدّت آخر الحملات الصليبيّة الكبرى، يعنينا منها ما عرضه الصالح أيّوب على لويس وتعلّق بالقدس وفلسطين، لأنّ الخوارزميّة بعد انتزاعهم للقدس، نشب خلاف بينهم وبين الصالح أيّوب، فهجروه وعملوا لصالح سواه[١٣]، لكنّ القدس بقيت بأيدي المسلمين، وأخذوا يعودون إليها للاستقرار، وتطوّر هذا الاستقرار وأعطى ثماره في العصر المملوكيّ، ولم ترجع القدس إلى الصليبيّين لأنّ عروض الصالح أيّوب رُفضت ومات هو أثناء ذلك، وشكّل حادث موته فعليًّا بداية النهاية للحكم الأيّوبيّ في مصر وقيام سلطنة المماليك، يضاف إلى هذا أنّ مشروع لويس قد أخفق، ووقع هو بالأسر، وأخذت الأحداث مناحيَ جديدةً، ونختم حديثنا هنا، لكن بعد رواية بعض تفاصيل ما عرضه الصالح أيّوب على لويس التاسع.

بعد سقوط دمياط من دون مقاومة للصليبيّين، تشجّع لويس وقرّر الزحف نحو القاهرة، فأرسل السلطان إليه وفدًا ضمّ كبار رجال دولته، وقد عرض هذا الوفد عليه

التخلّي عن جميع الأرض المقدّسة، يعني أن تقول جميع مملكة القدس وزيادةً، وكذلك مبلغًا من المال، من ذهب وفضّة، مع هدايا أخرى مرغوبة، على شرط – على كلّ حال – وجوب إعادة الملك لويس لدمياط، مع جميع الأسرى الذين كانوا تحت سلطانه، وأنّه سوف يتسلّم جميع الأسرى أحرارًا، وأن يكون مسموحًا بقيام اتّصالات حرّة وتجارات بشكلٍ عامّ في بلدان كلّ منهما مع التمتّع بمنافع السلام، واللطف المتبادل.

وأشيع آنذاك في أوساط الصليبيّين

(١٣) المصدر نفسه، الصفحات ٨٥٩ و٨٧١ و٨٩٩ إلى ٩٠٣؛ مفرّج الكروب في أخبار بني أيّوب، مصدر سابق، الجزء ٥، الصفحات ٣٥٨ إلى ٣٦١.

أنّ السلطان قد عزم مع عدد كبير من الأعيان المسلمين على التخلّي عن عقيدة محمّد [...] وأن يلتحقوا مخلصين بعقيدة المسيح، التي كانت من الواضح نظيفةً جدًّا ومشرّفةً، شريطة أن يسمح لهم بسلام بالاحتفاظ بأراضيهم وممتلكاتهم، لكنّ عروض السلام هذه رُفضت بعناد من قِبل النائب البابويّ طاعةً منه للأوامر البابويّة، الذي شجّعه على التصرّف هكذا، إذا ما حدث، وتقدّم المسلمون بمثل هذه العروض.

وقد تساور الإنسان الشكوك حول مسألة التخلّي عن الإسلام، لكنّ المثير للدهشة أنّ جوانفيل الذي كان برفقة الملك لويس، قد ذكر أنّه بعدما استولى المماليك على السلطة، والملك ليس أسيرًا لديهم، عرضوا عليه عرش القاهرة(١٤).

(١٤) جين جوانفيل، **حياة القدّيس لويس**، ضمن **الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبيّة**، مصدر سابق، الجزء ٣٦، الصفحات ٦٨ إلى ١٥٠؛ **تاريخ متّى باريس**، ضمن **الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبيّة**، مصدر سابق، الجزء ٤٧، الصفحات ١١٢٩ إلى ١١٦٤؛ **السلوك**، مصدر سابق، الجزء ١، القسم ٢، الصفحات ٣٣٣ إلى ٣٦٧؛ **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحات ٧٧٢ إلى ٧٨٥؛ **مفرّج الكروب في أخبار بني أيّوب**، مصدر سابق، الجزء ٥، الصفحات ٣٧٥ إلى ٣٨٣؛ **شفاء القلوب في مناقب بني أيّوب**، مصدر سابق، الصفحات ٣٧٨ إلى ٣٨٢؛ **الروضتَين في أخبار الدولتَين النوريّة والصلاحيّة** (مع الذيل)، ضمن سلسلة **الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبيّة**، مصدر سابق، الجزء ٢٠، الصفحات ٣٦١ إلى ٣٦٨.

رحلة المهدي الفاطمي من السلمية إلى المهدية

الأستاذ الدكتور: سهيل زكار
قسم التاريخ- جامعة دمشق

"لابدّ لأهل المغرب من دولة كفر... إذا قرئ على منبر مصر: من عبد الله أمير المؤمنين لم يلبث يسيراً حتى يقرأ: من عبد الله عبد الرحمن وهو صاحب المغرب وهو شر من ملَك... إذا دخل أهل المغرب أرض مصر، فأقاموا فيها كذا وكذا تقتل وتسبي أهلها، يومئذٍ تقوم النائحات، فباكية على استحلال فروجها، وباكية على ذلها بعد عزها، وباكية على قتل أولادها، وباكية تبكي على قتل رجلها، وباكية شوقاً إلى قبورها".

وردت هذه الأقوال التنبؤية على شكل أحاديث على طريقة الأثر، في أحد فصول كتاب الملاحم والفتن [مخطوطة لندن: ٧٠ظ-٧١ظ] لنعيم بن حماد المرزوي الخزاعي [قُتل في فتنة خلق القرآن سنة ٢٢٨هـ/ ٨٤٢ م] وعنوان هذا الفصل "أول علامة تكون من علامات البربر وأهل المغرب في خروجهم"، وموضوع كتاب نعيم ابن حماد هذا هو الحديث عمّا كان من "ملاحم وفتن" وما سيكون، وقد كتبت مواد هذا الكتاب قبل مالا يقل عن قرن من الزمن سبق قيام الخلافة الفاطمية في إفريقية [تونس]، أي في قرن الدعوة والتحضير لتأسيس الإمامة الإسماعيلية، والنماذج المقدمة أعلاه هي أكثر مواد الفصل تهذيباً، وأقلها إقذاعاً بالشتائم، ومع هذا فهي كما هو واضح تنمّ عن روح مفرطة بالعداء، وذلك أن المعني بها الدولة التي ستعرف باسم الخلافة الفاطمية، وهي ذات فائدة كبيرة. إذ يمكن أن نفترض من خلالها تاريخاً تقريبياً لبداية النشاط الدعوي الشيعي المتطرف في الشمال الإفريقي، والمهم الآن هو

أنه إذا كانت روح البغضاء والعداء "للخلافة الفاطمية" بلغت هذه الدرجة في التنبؤ، فكيف آل إليه الأمر في الواقع؟

كانت بلدان المغرب العربي الكبير من بين المناطق التي اهتمت بها الدعوة الإسماعيلية كثيراً، فهذه البلاد النائية عن بغداد، والتي لم يصل السلطان العباسي إلى بعض بقاعها، كانت مناسبة للنشاط بين قبائلها البربرية، وعندما نستعرض تاريخ الشمال الإفريقي الإسلامي، نرى شراسة المقاومة التي أبدتها القبائل البربرية للفتح العربي، وكثرة الثورات التي واجهت الخلافة الأموية، وإن هذه الثورات ارتدت إما الطابع الرافض للعروبة والإسلام، أو الطابع الخارجي. لكن مع انقضاء القرن الهجري الأول، كان الإسلام قد انتشر بين قبائل البربر، وقامت حركة سفر واتصال مع المشرق، خاصة مع الحجاز للحج ولغايات أخرى، وكان لهذه الاتصالات أبعد الآثار منذ القرن الثاني. حيث انتشر مذهب أهل السنة، حسب مدرسة فقه أهل المدينة، في كثير من المناطق، وأفاد هذا التشيع العام، سيما مع استمرار العداء للتيار الأموي. وفي بداية العصر العباسي فرّ بعض رجال بني أمية إلى الشمال الإفريقي، وسعوا للنجاح سياسياً، فلم ينالوا التوفيق، وخير شاهد على هذا الجهود التي بذلها عبد الرحمن بن معاوية قبل دخوله إلى الأندلس. إنما بعد عبد الرحمن بمدة قصيرة وصل المولى إدريس الأول إلى الشمال الإفريقي، واستقر بين قبائل أوروبة في منطقة زرهون من المغرب الأقصى فنال نجاحاً متميزاً، علماً بأنّ قبائل أوروبة كانت على رأس القبائل الخارجية في العصر الأموي.

ولنجاح الأدارسة في المغرب الأقصى، وأبناء سليمان [أخو إدريس] بن عبد الله في منطقة تلمسان، ولوجود كل من دولتي الأغالبة في القيروان والرستمية في تهيرت[1]، وقوى برغواطة على ساحل الأطلسي، ودولة بني مدرار على طرف الصحراء، فقد ركزت الدعوة الإسماعيلية أنظارها على ديار قبائل كتامة في المغرب الأوسط [في عمق الأراضي الجزائرية المصاقبة للحدود مع تونس]، وإلى هذه الديار

بعثت الدعوة الإسماعيلية بعدد من الدعاة شهر منهم اثنان عرفا باسم: "أبو سفيان والحلواني" وأُمرا "أن يتجاوزا إفريقية إلى حدود البربر، ثم يفترقان، فينزل كل واحد منهما ناحية".

ومع أن القاضي النعمان يعزو إرسال هذين الداعيين إلى الإمام جعفر الصادق، فإن من المرجح أن ذلك كان قبيل بدايات المدة الشامية من تاريخ الدعوة الإسماعيلية، وينقل المقريزي بأنهما أُمرا بالبعد "عن المدن والمنابر... وقيل لهما: اذهبا إلى المغرب أرض بكر فاحرثاها، وأكرباها حتى يجيء صاحب البذر، "فيجدها مُذللةً فيبذر حبه فيها".

ويفيدنا القاضي النعمان بأنهما لاقيا النجاح في عملهما الدعوي، لكنه لا يخبرنا عن الأفكار التي دعوا إليها، ولا عن واسطتهما اللغوية، التي من المرجح أنها كانت العربية، لاستعراب كتامة المبكِّر. ويذكر القاضي النعمان أن الداعي أبا سفيان قد نزل بلدة تلا التونسية [على بعد ١٧ كم من حدود الجزائر] فابتنى مسجداً هناك وكان بعض رجال القبائل "يأتونه ويسمعون منه ويأخذون عنه "وأن بعضهم تشيع على يديه، ونزل الحلواني منطقة سوف الجمار في ديار كتامة "فبنى مسجداً وتزوج امرأة... وكان في العبادة والفضل والعلم علَماً في موضعه، فاشتهر به ذكره ضرب الناس من القبائل إليه وتشيع كثير منهم على يديه من كتامة ونفره وسماته".

ومن المرجح قياسياً أن هذين الداعيين دعوا إلى الإمام الرضا من آل محمد، وبشّرا بقرب ظهوره، ونعتاه بأنه المهدي المنتظر، وصورة المهدي صورة غنية فيها العدل المنتظر والخصب والرحمة والمساواة وفيها الحروب والانتصارات المثيرة، فيها برنامج سياسي وعقائدي واجتماعي كامل، ولا شك أن نشاط هذين الداعيين قد مهّد السبيل أمام من جاء بعدهما ليقطف الثمار(٢).

وفي مرحلة السلمية توفي أبو سفيان والحلواني، ويرجح أن الخبر حُمل إلى السلمية على يد وفد من رجالات البربر، وأمام المعلومات التي حملها هذا الوفد،

وضعت الخطط لمتابعة العمل، فصدرت الأوامر إلى مركز الدعوة في اليمن لاختيار عدد من الدعاة للسفر إلى المغرب، ويرجح أن الوفد البربري تمّ توجيهه إلى الحجاز ليلتقي هناك بالبعثة الدعوية القادمة من اليمن، وفق ترتيبات كاملة. وأمام هذه الحالة من الصعب الاعتماد على رواية القاضي النعمان في كتابه رسالة افتتاح الدعوة، وهي رواية تقول بعامل الصدفة والنجاح الإعجازي بالمنح الربانية.

حين يتحدث القاضي النعمان – وعنه أخذت بقية المصادر– عن الداعية ابن حوشب (منصور اليمن) تجده يذكر عن "أهل العلم والثقة من أصحابه، أنه كان من أهل الكوفة من أهل بيت علم وتشيع،... وكان ممن يذهب إلى مذهب الإمامية الاثني عشرية" وأنه ترك مذهب الإمامية وجرى تجنيده لحساب الإسماعيلية من قبل إمام وقته، وبعد التحاقه بمدة وجيزة تمّ تكليفه بالذهاب إلى اليمن بصحبة علي بن الفضل(٣)، حيث نشطا هناك وحققا نجاحات كبيرة، ثم اختلفا ونشبت بينهما حروباً مريرة.

ومواطن الريبة في هذه الرواية تنبع من التساؤل: كيف يمكن أن تعهد الدعوة الإسماعيلية لرجل التحق بها جديداً بالدعوة باليمن والإشراف على الدعوة والدعاة بشكل عام بعدما أعلنت عن اليمن دار هجرة، ثم طلبت من مركز اليمن بالذات توجيه دعاة أو داعية إلى المغرب؟

من بين كتب الإسماعيلية التي جرت نشرها كتاب "البيان لمباحث الإخوان". لقد جرى تأليف هذا الكتاب في مدة الستر، في مرحلة السلمية، من قبل "أبي منصور اليمن" الذي شهر بلقب الشاذلي، والمراد بأبي منصور اليماني والد الداعية "أبو القاسم الحسن بن فرج بن حوشب بن زادان الكوفي" ومعنى هذا أن اسمه كان "فرج بن حوشب"، وإذا صح هذا، فهو ينفي حداثة تجنيد منصور اليمن، وأصله الإمامي. يضاف إلى هذا أنه عُرف بلقب الشاذلي أو التادلي نسبته إلى بلدة إفريقية نشط بها كداعية إسماعيلي حتى استدعي إلى سلمية، ومما يؤكد هذا كله هو أننا عندما نقرأ

كتاب الكشف من تأليف جعفر بن منصور اليمن ونقارن محتوياته بمحتويات كتاب "البيان لمباحث الإخوان" نجدهما معاً ينتميان إلى مدرسة إسماعيلية واحدة، وأن الأفكار المعروضة في كتاب المباحث قد جرى تطويرها في كتاب الكشف(٤).

إن صورة الأحداث التي يمكن رسمها الآن منطقية وفيها تفسير ليس للأسباب التي دفعت الإسماعيلية إلى الإيعاز إلى منصور اليمن لإرسال داعية من لدنه إلى المغرب فحسب، بل لأسباب النجاحات الهائلة والسريعة التي حققها أبو عبد الله الداعي في المغرب.

تألفت البعثة المرسلة من اليمن من أخوة – ربما اثنان– من أسرة يمانية بارزة في الدعوة الإسماعيلية، اسمها "آل أبي الملاحف" مع عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا، وهو الذي سيشهر باسم "أبي عبد الله الداعي"، وقبل انطلاق البعثة تخلف واحد من آل أبي الملاحف، وأثناء الرحلة قبل الوصول إلى مكة تخلف الثاني من آل أبي الملاحف، وهكذا انفرد أبو عبد الله بالبعثة، وكان أبو عبد الله من أهل العراق ممن هاجر إلى اليمن والتحق بدار الدعوة الإسماعيلية فيها، وعرف بالمغرب بعدة أسماء منها "الصنعاني" لقدومه من اليمن.

ويبدو أنه كان في مكة جماعة كبيرة من الحجاج من كتامة والبربر، لم يكونوا جميعاً من الإسماعيلية، أو بالحري "من الشيعة". لهذا تظاهر أبو عبد الله أنه معلم أطفال، يود السفر إلى مصر، وبالتنسيق مع الإسماعيلية من كتامة متّن من مكانته بين ركب الحجاج البربر حتى وافق الجميع على مرافقته إلى الشمال الإفريقي.

ويصف القاضي النعمان أبا عبد الله بقوله: "وكان ذا علم وعقل ودين وورع وأمانة ونزاهة، وكان أكثر علمه بالباطن، ونظر في علم الظاهر نظراً لم يبالغ فيه". وكانت لديه تعليمات كاملة وواضحة حول مهمته في الشمال الإفريقي، ففي ديار كتامة نشط أبو عبد الله نشاطاً أوصله في سنين قليلة إلى استمالة العديد من القبائل البربرية، وقام بتنظيم قوي بين صفوف هذه القبائل، وقادها نحو النصر في عديد من المعارك

مكّنته من أن يصبح سيداً للمغرب الأوسط، وقادراً على إزالة دولة الأغالبة من الوجود، واحتلال أراضي كل من دولتي تيهرت وسجلماسة، ويبدو أنه ظل طيلة مدة من نشاطه مرتبطاً باليمن، التي كانت بدورها تبلغ السلمية(٥).

ويبدو أن أبا عبد الله قد جاهر أثناء عمله بأن الإمام الذي يدعو إليه هو المهدي من أبناء إسماعيل بن جعفر الصادق، أو بكلمة أخرى: نقل الدعوة من التشيع العام إلى التشيع الخاص.

يبدو أن أول ما قام به أبو عبد الله كان الاستفادة من جهود الدعاة الذين سبقوه ولعله قام بإعادة تنظيم جهاز الدعوة، وأعدّ الدعاة الجدد، وكان إعداده لهم عقائدياً وعسكرياً. ونظراً لأنه مارس مهنة التعليم في أيامه الأولى في المغرب، فمن خلال التعليم- الذي اقتصر على أبناء شيوخ القبائل- أوجد الدعاة وبنى صداقات مع زعماء القبائل، ولا شك أن الأفكار التي طُرِحت كانت بسيطة تعلقت بحق آل البيت بالإمامة، ثم بفكرة المهدي، وقرب ظهوره وشروط طاعته المطلقة، والإيمان به وتقديسه.

ولقد أحسن أبو عبد الله استغلال ماكان لدى قبائل البربر من عقائد وعادات، فالبربر تعلموا من العرب الأنساب، وقال أكثريتهم بأنهم انحدروا من قوم من قبائل حمير، كانوا يسكنون فلسطين، وكان زعيمهم اسمه "جالوت" وقتل النبي "داوود" جالوت، وطرد قبائله من فلسطين حيث وصلوا إلى المغرب. فاستغل أبو عبد الله هذه الفكرة، وروج لها، وأعلن أن المهدي قادر على نقض قرار النبي داوود، ورغب البربر بالعمل من أجل الزحف نحو فلسطين، ووعدهم بالنصر المحقق، لأن المهدي هو الذي سيقودهم.

ونقرأ في كتاب الكشف من تصنيف الداعي جعفر بن منصور اليمن أن المهدي هو الذي "يهدي إلى الأمر الخفي، وهو القائم بالحق، عند حلول الوقت بعد انقضاء عهد غيبة الأئمة، بعد استبداد أهل الظلم والعسف والجور، بمقاليد الأمور، وهو حين يخرج، يخرج مغضباً، تؤيده ملائكة الرحمن، وتسير أمامه، وتواكبه أينما تحرك، على

رأسها جبرائيل على فرس أبلق بسرج من نور، وعليه سرج من ذهب، وعلى جبرائيل تجافيف من نور، ومغفر من حديد، وبيده حربة من نور، وهو واقف على العقبة في سنان الحربة النصر، وفي وسطها الرعب، وفي زجها الظفر"، لذلك "لا تتوالى للمهدي راية إلى بلد إلا قدمه الرعب بين يديه مسيرة شهر، ولا يهدي بالدلالة أهل بلد إلا وهداهم الله، ومن أبى ذلك رماهم الله بحجارة الكبريت حتى يردهم أجمعين إلى هُداه، يستسلمون بأجمعهم إليه ويَكسر الصليب، ويَهدم البيع، ويَقتل الخنزير، وتنقضي دعوة الشرك، وتظهر دعوة الفرج، وتقوم الدعوة بالدين لله خالصاً، وآنئذٍ يشرب الثور والسبع من حوض واحد، ويخلف الراعي الذئبَ على غنمه[٦]".

ومسألة ترغيب البربر بالهجرة إلى فلسطين يمكن أن نفهمها في إطار أهداف الدعوة الإسماعيلية، فهدف هذه الدعوة لم يكن الاقتصار بالاستيلاء على رقعة من الأرض من أجل إقامة دولة فحسب، بل كان الهدف الأساسي إزالة الخلافة العباسية من الوجود، وإحلال الخلافة الإسماعيلية محلها. ولا شك أن فلسطين كانت إحدى بلدان الخلافة العباسية، وكان الوصول من المغرب إلى العراق سيتم عبرها حتماً، وفي تاريخ الخلافة الفاطمية، توجهت الجيوش البربرية بعد احتلالها لمصر مباشرة بقيادة بربرية، لاحتلال فلسطين، لكنهم أخفقوا في تجاوز حدود الشام والزحف على العراق.

وبعد ما مضينا بعيداً مع أبي عبد الله الداعي ونشاطاته في الشمال الإفريقي، نعود نحو السلمية، حيث نجد بيت الدعوة الإسماعيلي يشهد انشقاقاً خطيراً، تجلى بقيام ما يُعرف بحركة قرامطة الشام بزعامة "صاحب الجمل" أولاً ثم "صاحب الخال"، فقد ادعيا النسب الإسماعيلي، وتسمى كل منهما بلقب إمام، وقام صاحب الشامة بمهاجمة السلمية، حيث دمرها وأباد كل من وجده فيها، وأثناء زحف القرامطة على السلمية، وصلت رسالة إلى الزعيم الإسماعيلي فيها أنهم "قد عزموا على قتلك وقتل أهلك، فإن كنت قاعداً فقم"، وكان هذا الزعيم الإسماعيلي هو الذي سيعرف باسم المهدي

الفاطمي، وسيكون أول خلفاء الدولة الفاطمية، وبادر المهدي لدى وصول الخبر إليه بالرحيل، وأخذ معه أبا القاسم الذي سيكون الخليفة الفاطمي الثاني وسيعرف باسم القائم، وأخذ معه "جعفر الحاجب وابن بركة الحاضن لا غير"، وترك القصر "كما هو بفرشه وستوره وأمواله وعبيده وبني عمه وبني أخيه الذكور والإناث... وخرج وقت صلاة العصر ولم يعرف به أحد". وبعد خروجه من السلمية اتصل بواحد من كبار بداة المنطقة واسمه غيلان الرياحي فأتاه "ومعه ثلاثون فارساً، فمشى معه الليل كله حتى وصل إلى حمص صلاة الغداة، ورجع عنه غيلان، تمادى هو يومه كذلك حتى وصل طرابلس الشام، فأقام بها يوماً واحداً، ثم توجه إلى فلسطين الرملة" وأقام بالرملة ما يزيد على السنة يرقب الحوادث بالشام، ويجدد الاتصالات ببعض الدعاة لتدارس الموقف والتخطيط لخطوات مقبلة، وأثناء الإقامة بالرملة جرت بعض الاتصالات مع القرامطة، ولعل هذا كان في حوالي سنة ٢٩٠ هـ لكنها لم توصل إلى نتيجة مجدية، لهذا تقرر مغادرة الرملة نحو مصر، وكانت قد بلغته أخبار بدمار السلمية وبقتل جميع من كان بها، وكان آنذاك "داعي الدعاة، وأجلّ الناس عند الإمام وأعظمهم منزلة، والدعاة كلهم أولاده ومن تحت يده، وهو باب الأبواب إلى الأئمة" اسمه فيروز وكان المسؤول عن الدعوة في مصر اسمه أبو علي "وكان مقيماً يدعو بها، وأكثر دعاة الإمام من قبله، وكان فيروز الذي دعاه ورباه وزوجه ابنته أم أبي الحسين ولده".

وأقام "المهدي" في مصر متخفياً مدة من الزمن، وهو على نية التوجه من هناك إلى اليمن، لكنه ما لبث أن غيَّر نيّته وقرّر التوجه إلى الشمال الإفريقي يريد سجلماسة على طرف الصحراء. ويحدثنا الحاجب جعفر وكان بصحبة المهدي عمّا حدث في مصر والأعمال التي قام بها المهدي هناك، فيذكر وصول تقارير إلى والي مصر حول نشاط إسماعيلي فيها، ويبدو أن هذه التقارير لم تكن واضحة، ولذلك اعتقل الحاجب جعفر وأجري معه التحقيق ثم أُطلق سراحه. يقول جعفر: "وكنت ذلك الرجل المقبوض عليه وضربت أسواطاً يسيرة ضرباً خفيفاً لم يكن علي منه بأس، وكان

المهدي- ع.م- وقد تقدم إلي قبل القبض وقال لا توجعك نفسك إذا دفعتك إلى العامل دون أصحابك، فإني أريد أن أردك إلى سلمية لتستخرج القمقمين اللذين أمرتك بدفنهما، فليس معي من الغلمان من يعلم بهما سواك، وإذا وقفت للتقرير، فقل: أنا رجل حرّ، خدمت هذا الرجل بأجرة معلومة فعلى ما تقرروني، ولم أخدمه إلا من قريب، وأنا أردّ عليه باقي أجرته وأرجع عنه إلى بلدي؟

قال: ففعلت ما أمرني به، وخلى العامل سبيلي، فدخلت على المهدي -ع.م- بالليل، فقال لي: بكّر في الغداة، ولا تلو على شيء حتى تصل سلمية، وتستخرج المال، وتشتري منه أحمال قطن، وتجعله في بعضها وتسرع جهدك، واحذر أن تظهر لأحد بسلمية... وأنا أنتظرك بطرابلس المغرب، ولا أبرح منها حتى أراك إن شاء الله(٧)".

وكان قرار التوجه مفاجئاً بالنسبة لأتباع المهدي، يقول الحاجب جعفر: "ولم نشك أنا نريد اليمن، فلم يظهر سيره إلى المغرب إلا تلك الليلة. قال جعفر: فاشتد ذلك على كل من كان معه، وشق علينا ذكرا المغرب". والأسباب التي دفعت المهدي إلى اتخاذ هذا القرار نبع من أخبار اليمن غير المشجعة، لخلافه مع داعي دعاته فيروز. ففي داخل اليمن حقق الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين، وهو إمام زيدي منذ سنة ٢٨٤ هـ/ ٨٩٧ م، وبعد عمل دعوي وحربي طويل، نجاحات كبيرة، وخاض أكثر من معركة ناجحة ضد إسماعيلية اليمن.

وعن فيروز يقول الحاجب جعفر: "وخالفه [المهدي] فيروز قبل خروجه من مصر، ومضى إلى اليمن... ووصل فيروز إلى داعي اليمن، وهو رجل من الكوفة، وكان السبب في اتصاله بالإمام فيروز، وهو... المعروف بمنصور اليمن، من بيت تشيع، فلما وصل فيروز إليه لقيه بالتبجيل والتعظيم لما كان يعلم من محله(٨)".

ويبدو أن الخلاف مع فيروز عجّل بقرار المهدي بالسفر نحو الشمال الإفريقي، فانطلق من الإسكندرية يريد مدينة طرابلس، لكن لم تسر الأمور بيسر، حيث وصلت

تقارير وافية إلى السلطات المصرية حوله، تبيّن صفاته وملامحه وتذكر مكانته ويرجح هنا أن المنشقين هم الذين رفعوا هذه التقارير، ومهما يكن الحال، فقد تمكن المهدي ومن برفقته من الوصول إلى طرابلس عن طريق الرشوة والتنكر، وركوب المسالك غير المطروقة، حتى أن ركبه تعرض للنهب من قبل بعض البربر.

ومن طرابلس توجه المهدي، وهو على غاية الحذر يريد سجلماسة [إقليم الراشدية في المملكة المغربية] على طرف الصحراء، وكانت سجلماسة مركزاً تجارياً نشطاً بشكل كبير، وكانت أشبه المدن بحال مكة ودورها لما قبل الإسلام، وكانت هذه المدينة تدار من قبل أسرة خارجية تعرف ببني مدرار[٩]، واختيار سجلماسة يشبه من حيث المنطلقات اختيار الدعوة الإسماعيلية للسلمية من قبل في بلاد الشام.

وقد يتساءل المرء عن السبب الذي جعل المهدي يأخذ الطريق إلى سجلماسة وليس إلى ديار كتامة حيث أبو عبد الله الداعي كان يحقق النجاحات الكبيرة؟ وأرجح الأسباب هنا مرتبط بالانشقاق الذي حصل في مصر، فأبو عبد الله الداعي تم توجيهه إلى المغرب من قبل منصور اليمن، وكان به متصلاً، ولم يسبق له أن زار السلمية، ونال معرفة واحد من الأئمة.

ويذكر الحاجب جعفر أن المهدي كان قد كتب إلى منصور اليمن يخبره بأمر فيروز، وطلب منه القيام بقتله، ويتابع الحاجب جعفر قوله بأن فيروز علم وهو باليمن بما وصل من عند الإمام، فهرب إلى علي بن الفضل، وهو الداعية الإسماعيلي الآخر باليمن، وكان ابن الفضل سيداً لعدد من القلاع اليمانية مع منطقة شاسعة، ويذكر الحاجب جعفر بأن فيروز "فتن علي بن الفضل وأهل بلده وشعوذ لهم[١٠]".

وتتحدث المصادر اليمانية[١١] بأن علي بن الفضل أعلن القيامة في منطقة ودخل في حروب طاحنة مع منصور اليمن، وانتهت الصراعات هذه بمؤامرة اغتيال ناجحة لعلي بن الفضل، ولعل ذلك كان سنة ٢٩٣ هـ/ ٩٠٥ م، وأثناء هذا تجددت

الاتصالات بين منصور اليمن وأبي عبد الله الداعي ويبدو أن هذا الأخير علم الآن بتوجه المهدي إلى الشمال الإفريقي.

ووصف لنا الحاجب جعفر مصاعب الرحلة إلى سجلماسة، وبين بأن المهدي "قد لقي قبل دخولنا سجلماسة رجلاً وسيماً حسن الهيئة ومعه ولد له، وهو يريد إليها بتجارة معه، فسأله المهدي –ع.م– وقد جمعهما الطريق عن اسمه ونسبه وبلده، فعرّفه أنه مطلبي، وبلده القيروان، فحادثه المهدي –ع.م– وأنس به ولاطفه، فوجده متشيعاً، ففتش عقله، فلما رضيه أخذ عليه".

واستقر المهدي في سجلماسة، وفيها توثقت علاقاته بالمطلبي، ولما فرغ "من تجارته، استأذن المهدي –ع.م– في الرجوع إلى القيروان"، فأذن له وكلفه بالاتصال بأبي عبد الله الداعي، وقال له: "إذا رأيته قد عزم على الخروج إلى سجلماسة، فاخرج معه، وأنفذ إليّ ابنك هذا معه... قال جعفر: وإنما أراد المهدي –ع.م– بإنفاذ المطلبي ليعرف أبا عبد الله الشيعي بالمهدي –ع.م– لأن الشيعي الداعي ببلد كتامة لم يكن رأى المهدي[١٢]".

ويستفاد مما كتبه الحاجب جعفر بأن المراسلات توالت بين المهدي وأبي عبد الله الداعي، وأثارت نشاطات المهدي ريبة اليسع بن مدرار صاحب سجلماسة، فقرر التحقيق معه، واتهمه بالنشاط السياسي وأنه يتظاهر بالتجارة للتمويه فقط. لذلك اعتقله، وفرق بالاعتقال معه، واتهمه بالنشاط السياسي وأنه يتظاهر بالتجارة للتمويه فقط، لذلك اعتقله، وفرق بالاعتقال بينه وبين القائم، وتعرض رجال حاشية المهدي للتعذيب الشديد، وقاد ذلك إلى معرفة اليسع بوجود علاقات بين أبي عبد الله الشيعي والمهدي، وكان أبو عبد الله قد صار سنة ٢٩٦ هـ/ ٩٠٩ م، سيد إفريقي، حيث أزال دولة الأغالبة من الوجود، لذلك حافظ اليسع بن مدرار على حياة المهدي ليساوم به، وبالفعل توجه أبو عبد الله الشيعي على رأس جيوش كبيرة يريد سجلماسة ومعه ابن المطلبي التاجر، ولما وصل "إلى سجلماسة وضع عليها الحرب، بعد أن راسل اليسع بن مدرار

أمير البلد في إخراج المهدي -ع.م- إليه وضمن له بالانصراف عن بلده على الموادعة، فامتنع عليه، وضيق عليه، وضيق على المدينة بالحرب، وأحاطت العساكر من كل الجهات بسجلمانة بعد حرب عظيمة، فلما رأى اليسع ما لا طاقة له به استشار من معه من أهله بالحيلة في الخلاص، فقال به بعض من استشاره: اقتل هؤلاء المتهمين عندك، فإن كانوا أصحابهم فللت جميعهم، وأبطلت عليهم مذهبهم، وشتت كلمتهم، وقال آخرون بل تحسن إليهم، فإنهم يكفونهم عنك إن كانوا أصحابهم، ويكافئونك عن إحسانك إليهم.

قال جعفر: وكان قد اتهم أيضاً بهذا الأمر رجل من التجار يعرف بابن بسطام، وذلك أن قوماً من التجار حسدوه على نعمته، مع شرّ كان فيه، فأرادوا زوال نعمته وهلاكه، فاجتمعوا إلى اليسع وقالوا له: إن الرجل الذي يطلبه السلطان ليس هو مولى هؤلاء المعذبين عندك، وإنما هو هذا الرجل - يعني ابن بسطام- فأمره بلزوم منزله. قال جعفر: وكان ذلك مما شككه في المهدي -ع.م- فتوقف عن عذابنا... وقال له بعض من كان يثق به ويرجع إلى رأيه: القوم قد أحاطوا بنا من كل جانب، وليس لنا بهم طاقة، فإن أنت قتلت هؤلاء القوم قتلوك بهم وقتلونا، والرأي لنا ولك أن تخرج هؤلاء الرجال واحداً واحداً، فمن كان منهم صاحب القوم اشتغلوا به عنك وعنا وقت خروجه إليهم، فعند ذلك نجد نحن لاشتغالهم الفرصة للهرب، ومع هذا فإنه إذا وصل إليهم صاحبهم لم يكن له ولا لهم اهتمام إلا القفول إلى إفريقية، خوف أن يبلغ زيادة الله بن الأغلب الهارب من بين أيديهم أنهم انصرفوا عن إفريقية إلى سجلماسة فيرجع إليها طمعاً منه لبعد ما بين البلدين، ويحشد بها العرب، ويتحصن منهم، فيصعب الأمر عليهم، فإذا انصرفوا عن البلد بصاحبهم رجعنا إليه.

قال جعفر: فاتفق القوم على إخراج ابن بسطام، الذي وشى التجار به، وأخرجوه إلى أبي عبد الله، فلما رآه أبو عبد الله ترجّل إليه، وقدر أنه المهدي -ع.م- فترجل ابن بسطام لترجل أبي عبد الله، فلما رآه رآه أبو عبد الله قد ترجل لترجله

ركب فرسه ولم يلتفت إليه، ودعا بأبي القاسم ابن المطلبي، وقال له: الزم على يميني ولا تفارقني، فلهذا وجهك معي الإمام، ولو كنت معي مانزلت لرجل من سائر الناس... قال: ووقف ابن بسطان تحت ركاب أبي عبد الله يحرضه على فتح المدينة، ويعرفه سلامة المهدي وسلامة القائم- صلوات الله عليهما- قال جعفر: فلما زاد البلاء على أهل سلجماسة ورآهم صاحبها لم يلتفتوا إلى ابن بسطام، بعث إلى المهدي -ع.م- بفرس كميت، وقال له: اخرج عنا إلى هذا الرجل إن كان صاحبك، قال جعفر: فخرج المهدي... فلما فصل عن سلجماسة، وانتهى إلى حيث تبين للمتأمل، قال ابن المطلبي لأبي عبد الله: هذا مولاي ومولاك ومولى الناس جميعاً، فنزل أبو عبد الله عن فرسه وابن المطلبي، فنزل الجيش كله، وقبّل أبو عبد الله الأرض والناس يقبّلون خلفه، حتى انكب على حوافر فرس المهدي بالله صلوات الله عليه، ثم رفع رأسه فقبّل ركاب المهدي عليه السلام وقد خنقته العبرة، فأخذ المهدي -ع.م- بيده رأس أبي عبد الله، وأقبل بوجهه إليه، وقال: أبشر بخير ياحسين"، وازدحم الناس حول المهدي، وانشغل رجال جيش كتامة بذلك عن متابعة القتال، الفرصة التي اهتبلها اليسع بن مدرار وأصحابه، فخرجوا "هاربين من المدينة على وجوههم إلى الصحراء، يريدونصنهاجة المشركين الذين في داخل المغرب".

وما أن هدأت الأحوال واستُعيد النظام، حتى أمر المهدي باقتحام سجلماسة والعمل على استنفاذ القائم ورجال حاشيته، وبعد شيء من الصعوبات تم ذلك، وفي اليوم التالي أقيم سرادق كبير، ووضعت الترتيبات لبيعة المهدي بالخلافة، والإعلان عن ولادة الدولة الجديدة.

ويقدم لنا الحاجب جعفر وصفاً وثائقياً لاحتفالات البيعة، حيث نصب سرير كبير للمهدي وضع تحت سرادق كبير مفتوح من جميع الجوانب، جاء أشبه بمظلة سماوية كبيرة جداً، ووقف رجال حاشية المهدي مع القائم حوله، وعلى مسافة مائتي ذراع وقف أبو عبد الله الداعي "ومعه ألف بواب، وقد وقفوا صفين، وهو يدعو بأسماء

الدعاة والقواد يقدمهم عشرة عشرة" للسلام على المهدي وتقديم البيعة واحتاج هذا العمل عدة أيام، وبعد ذلك رحل المهدي يريد القيروان ليتخذها مقراً لملكه الجديد[١٣]".

مما سلف نخلص إلى القول أنه في سنة ٩٠٩ م تمت ولادة دولة جديدة، دعيت باسم الخلافة الفاطمية لـــ [نسبة إلى فاطمة الزهراء]، وهذه الخلافة هي أول خلافة شيعية متطرفة في التاريخ، وأعظم دول الشيعة مكانة ودوراً، وحمل أول خلفاء هذه الدولة لقب المهدي، ويبدو أنه كان مهدياً من حيث الاسم فقط لا من حيث التصوّر الوهمي المرغوب فيه، ووصل هذا المهدي إلى السلطة وحقق النصر بفضل عمل دعوي طويل وجيد التنظيم، ثم بفضل استخدام القوة المسلحة البشرية، لا بفضل الملائكة وجند السماء، ولا شك أنه كان لتبدد الصورة الخيالية السرابية، وقيام دولة الواقع ردات فعل شديدة، لكن قبل الاستطراد في الحديث عن هذا، وعلى الرغم مما أوردنا من قبل، من المناسب هنا الوقوف لنحاول التعرف عن كثب إلى شخصية المهدي، واسمه ونسبه ومرتبته في الدعوة الإسماعيلية، وهل كان إمام استيداع أم استقرار، وهل انحدر من صلبه أئمة الخلافة الفاطمية؟

الخلاف بين مصادرنا حول أصل المهدي ونسبه شديد، فقد ذهب كل مصدر مذهباً خاصاً في تحديد اسم المهدي، ونسبه، قبل أن يكون مهدياً، ثم بعدما صيَّر نفسه كذلك، فغالبية المصادر السنية تنفي عنه النسب العلوي الفاطمي، وتعزوه حيناً إلى الفرس المجوس وحيناً آخر إلى اليهود، وغير ذلك. وهي إن اختلفت أيضاً في تحديد اسمه قبل استلامه الخلافة، وتَتفق على أن اسمه بعدما صار خليفة هو عبيد الله، وعلى هذا الأساس دعت المصادر السنية الخلافة الفاطمية باسم "الدولة العبيدية".

إن مسألة الطعن في نسب المهدي والفاطميين مسألة مرفوضة، ذلك أن الكتّاب السنة أخذوا بها مسايرة للدولة العباسية، والتي عجزت عن التصدي للفاطميين بقوة السلاح، فلجأت إلى وسيلة الطعن بالنسب عن طريق البيانات، واستغلت الثغرة التي قامت بسبب لجوء أبناء إسماعيل بن جعفر الصادق إلى التكتم والتخفي الشديد نتيجة

للملاحقة العباسية، ومن المدهش أن السلطات العباسية لاحقت تحركات المهدي في طريقه من الشام إلى مصر، ثم في مصر، ومنها إلى الشمال الإفريقي وكانت أثناء الملاحقة هذه ترى بداهة نسبه العلوي لذلك لم تطعن بأصله العلوي، إنما بعدما انتصر نفت عنه هذا النسب.

وفيما يتعلق باسمه، نحن لا نملك من المصادر الإسماعيلية وغير الإسماعيلية، ما يساعد بشكل حاسم تماماً على إثبات أو نفي كونه كان يحمل اسماً غير الاسم الذي عرف به بعد استلامه الخلافة، ومردّ هذا الأمر إلى عاملين رئيسين: أولهما مرتبط بما أثير حول النسب، والثاني مرتبط بقضية التكتم والتخفي، فلعل ذلك استلزم منه إعطاء نفسه أسماء مختلفة بين حين وآخر.

ومع هذا كله فهل كان اسمه بعد استلامه الخلافة عبيد الله؟ إن اسم عبيد الله هو مصغر عبد الله، ومن المعلوم أن في التصغير تحقير، ومرة أخرى كما أرادت السلطات العباسية أن تطعن بنسب المهدي سعت إلى تحقيره بتصغير اسمه ذلك أن المهدي عند الشيعة عامة وعند الإسماعيلية خاصة ينبغي أن يكون من قريش من بني هاشم، ثم من بني عبد المطلب، من ولد الحسين بن علي، لأن الحسين من ولد فاطمة بنت الرسول، واسم المهدي إما عبد الله مثل اسم أبي رسول الله، واسم أبيه مثل النبي محمد، أو عكس ذلك، كما اعتقد الخليفة العباسي المنصور حين أعلن ابنه محمداً مهدي الدولة العباسية [كان اسم المنصور عبد الله] يضاف إلى هذا أن اسم – الخليفة- المهدي الفاطمي في المصادر الإسماعيلية وفي الكتابات التاريخية المعاصرة له، وعلى النقود هو عبد الله، وقد رأيت في القيروان دينارين ذهبيين من دنانير المهدي ضربا فيها الأول سنة ٣٠٢ هـ/ ٩١٤ م، والثاني سنة ٣٠٤ هـ/ ٩١٦ م، ونقشهما:

الإمام عبد الله

لا إله إلا الله محمد رسول الله

وحده لا شريك له

المهدي بالله أمير المؤمنين(١٤)

وأما فيما يتعلق بمكانة المهدي في الدعوة الإسماعيلية، فمن المرجح أنه كان إمام استيداع ولم يكن استقرار، وكان عماً للقائم، ولم يكن والده على الرغم مما أثبت في بعض المصادر المتداولة، ويمكن أن نسوق هنا عدة أدلة:

١- نقرأ في كتاب المجالس والمسايرات للقاضي النعمان، وعنه نقل الداعي المطلق إدريس القرشي في كتابه عيون الأخبار بأن المهدي ولد له بالمهدية غلام ذكر دعاه بأبي الحسن، وفكَّر بجعله ولياً لعهده، لكن هذا الغلام جدر فذهب بصره، وهكذا بقيت ولاية العهد للقائم، وكانت أم الوليد المجدور تقول دائماً: "والله لقد خرج هذا الأمر – تعني قصر المهدي [صلع] فلا يعود إليه أبداً، وصار إلى ذلك القصر. تعني قصر القائم بأمر الله- فلا يزال في ذرية صاحبه ما بقيت الدنيا" وكانت إذا ما رأت واحدة من نساء قصر القائم تقول لها: "قد ولدت إماماً(١٥)".

٢- عندما بنى المهدي مدينة المهدية – كما سنوضح ذلك- لم يبنِ في المدينة الجديدة داراً للخلافة بل قصراً وآخر للقائم، رغم ضيق الرقعة.

٣- يبدو أن المهدي أنجب وهو في الخلافة عدداً من الأولاد، وقد أثار هؤلاء المشاكل الكثيرة لأبناء القائم من بعده، وخاصة الإمام المنصور إسماعيل ثم المعز لدين الله، وفي رسائل هذين الإمامين إلى الأستاذ جوذر، الذي كان من العبيد الصقالبة [السلاف] وتدرج في المناصب حتى وصل أعلاها وصار المسؤول عن القصر. ففي عدد من الرسائل شكا جوذر سوء سلوك أبناء المهدي، فوافق المنصور ثم المعز على اتخاذ أقسى الإجراءات ضدهم، ووصفهم المنصور بأنهم "الشجرة الملعونة في القرآن"، ووصفهم المعز بالقردة وغير ذلك من الأوصاف، وبلغ المعزَّ تآمُر أحمد بن المهدي عليه "وأنه يكثر القبيح ويتقول على المقام" فكتب إلى جوذر يقول: "...... وقد كبر على كل ذي نعمة ما وهبنا الله، واستعظموا الخروج مما هم فيه، فلو وجدوا من سوء الشنع كل عظيمة –

يرد الله شرها- برؤوسهم لفعلوا إرادة أن يطفئوا نور الله "ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون"..... وهذا الشقي أحمد قد تقدم له رسم في الشؤم....[١٦]".

٤- ونقرأ - كما سلفت الإشارة- في مخطوطٍ اسماعيليٍ قديم اسمه "كتاب التراتيب- وهي سبعة تراتيب على التمام والكمال" بأن والد القائم، وكان لقبه المهدي تسلم الإمامة "واشتهر بها، وكان أمر الظهور قد اقترب، بأوان طلوع الشمس من مغربها، فحضرته النقلة [الوفاة] دون الظهور الكلي، فعندها أحضر المهدي ولده القائم، وسلم إليه بمحضر من خواص الدعاة، وأكابر الحجج، وأمر أخاه عبد الله أيضاً بأن يقوم مقامه- أي الإمام المهدي أبو القائم- وينوب منابه، ويتسمى باسمه، وينعت نفسه بنعته، وينسب القائم عليه السلام، أنه ولده، كيما تعلو كلمته، وتثبت دعوته، لأنه صاحب الكشف، على يده يكون الظهور والفرج، وبروز كل أمر من الدين مستور.

وقام القائم عليه السلام بصورة الجود الكلي، والفيض الإلهي، وقام عمه عبد الله بالخلافة والنيابة، وتلقب بالمهدي، كما أمره الإمام على ذكره السلام، ودعا لنفسه، وبسط الدعاة والحجج في الجزائر والأقاليم من قبله، والدعاء له، ولطاعة لأمره، وأنه الإمام المقصود، الذي دلت الحدود على طاعته، وعلى يده يكون الظهور، وبروز كلام من الدين مستور، فلم يزل كذلك حتى ظهرت الدعوة باليمن على يد بعض دعاته، وهو الملقب بمنصور اليمن، فظهرت الدعوة بالمغرب على يد أبي عبد الله الشيعي، واستقام أمره، وتم المراد، وظهر بالإمامة والملك، وخطب على المنابر في جميع الأمصار، وسائر الأقطار، وشد عند ذلك ما كان ضعف من شريعة جده محمد صلى الله عليه وسلم، وبتر ما كان من غيرها، وأقام أركانها، وشد بنيانها، وكشف علم التأويل، وأبان حقائق التنزيل، وجاهد في الله حق جهاده، ولم يزل كذلك إلى أوان نقلته، وحضور أجله، فعند

ذلك أحضر حججه، وحدود دعوته، وسلم الأمر إلى صاحبه وهو القائم محمد بن المهدي، والإمام الحقيقي، بمحضر منهم، فأشهدهم على نفسه أنه أدَّى ما وجب عليه من الخدمة والخلافة، وسلم الأمر لصاحب الأمر.

وكان المهدي أبو القائم، هو أخو المنتقل إلى سجلماسة، وكان المهدي صاحب الكشف، هو المولود، المنتقل بالمهدية كما جاء بالتواريخ، ومن هذه الجهة أنكر أبو العباس أخو أبي عبد الله الشيعي وقال: إن هذا الذي يدعي بأنه الإمام، وسلمت مقاليد الملك الذي بيدك إليه وقلت إنه المهدي المنتظر، وما هو كما قلت، ولا الأمر كما توهمت، ولا هو صاحب الأمر، ولقد كنت أنت الأحق بالخلافة، وأولى بالنيابة، وكان من أمر أبي عبد الله الشيعي، وأخيه العباس(١٧)" أن قتلهما المهدي بتهمة التآمر والخروج.

٥- اللقب الذي حمله القائم، فهو الوحيد بين أئمة الفاطميين الذي تفرد بحمل هذا اللقب، وذلك لقب القائم هو أرفع الألقاب الإسماعيلية وأعلاها قداسة، هو ليس إماماً عادياً بل نبياً من الأنبياء ذوي العزم، ففي رسالة من رسائل القاضي النعمان، كتبها أيام المعز لدين الله الفطمي، في المدة الإفريقية، ودعاها باسم "الرسالة المُذْهِبَة في الحكمة والتأويل(١٨)" تحدث القاضي النعمان طويلاً عن شخصية القائم وكان من جملة ما قاله: "قد ذكر الله عز وجل في كتابه العزيز له ثلاثمائة وستين اسماً يعرفها العارفون، ويعمى عنها الجاحدون، حتى أن الصفوة الذين اقتفوا آثار الأئمة صلوات الله عليهم أجمعين اختلفوا فيه، فزعمت طائفة منهم أنه جسماني غير مؤيد، واحتجوا على ذلك، وقالوا: إنه مقتف آثار أبيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، مقتبس من علمه، لا يحكم إلا بما وصى به إليه جده – عليه أفضل الصلاة والسلام- زكيف لا يكون ذلك، وقد أعطاه الله تبارك وتعالى ما لم يعطِ أحد غيره، لقوله عز وجل: "ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون" [التوبة: ٣٢] ولا يكون أفضل من فاضل، وتحقيق ذلك أن سائر

النطقاء والرسل والأنبياء والخلفاء من الأئمة – صلوات الله عليهم أجمعين– كلهم مبشرون منذرون به، داعون إليه.

وقالت طائفة أخرى: إنه روحاني منتقل عن الجسماني، وهم الجم الغفير... وقالت طائفة أخرى أيضاً: إنه سابع سبعة من آدم... فالنطقاء سبعة أولهم آدم وآخرهم القائم... ومثله مثل من سلف من النطقاء [الأنبياء ذوي العزم] أصحاب الشرائع والأحكام، والحلال والحرام، غير أنه أيده الله بما لم يؤيدهم به، وأعطاه الله مالم يعطهم، وذكر الدعاة إليه، والمبشرون به، والمخبرون عنه، أن دوره – صلوات الله عليه– آخر الأدوار، إذ كان يومه آخر الأيام، وأنه يجيء بالجسمانية فيحكم في الجسمانية ويملؤها عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً، وأن دوره دور القيامة.

فلا تزال دعوته قائمة إلى أن يرث "الأرض ومن عليها" [الأنبياء: ٨٩] والقائم يحكم في الحياة بالجسمانيين، وبعد الحياة "في الروحانيين كما في حكم في الجسمانيين، لا على من كان في عصره وزمانه" فقط بل على الجميع من "الأولين والآخرين، إذ كان هو صلوات الله عليه سبباً لبدء الابتداء، وإليه الانتهاء".

إن الرسالة المذهبية من أهم الرسائل الإسماعيلية، أوقف القاضي النعمان جل مواردها على قضية القائم، على أساس النظام السبعي، وعنده الأنبياء ذوي العزم هم "النطقاء السبعة عليهم السلام، وذلك أن الولاية لآدم عليه السلام وأن الطهارة لنوح، وأن الصلاة لإبراهيم، وأن الزكاة لموسى، وأن الصوم لعيسى، وأن الحج لمحمد صلى الله عليه وسلم، وأن الجهاد إلى القائم صلوات الله على ذكره" وكان من المفترض بالمهدي التمهيد لعصر القائم لدى تسلمه بإعلان قيامة عظمى، لكن لم تتح الفرصة للقائم الفاطمي حتى بإعلان قيامة صغرى، لأنه شغل أثناء حكمه بثورة أبي مخلد بن كيداد الخارجي(١٩).

لعل ما قدم حتى الآن يكفي للبرهنة، وعليه لن أتوسع الآن أكثر حول هذه المسائل، بل سألزم نفسي بالمضي في البحث، إنما بشيء من الاختصار:

فبعدما تسلم المهدي زمام الأمور من أبي عبد الله الداعي، وما إن أصبح أميراً للمؤمنين حتى أخذ يباشر أمور الحكم بنفسه حسب قاعدة الإمامة عند الإسماعيلية، ذلك أن الإمام وحده هو صاحب الحق في الحكم والتشريع، وقام المهدي بجمع الدعاة وعمل على إعادة تنظيم الدعوة، وجهد في سبيل إيجاد جيل جديد من الدعاة، ولقد أصاب في هذا السبيل نجاحاً كبيراً، ذلك أن زعامة الفكر الإسماعيلي ستؤول بعد قليل إلى جيل من الدعاة جلهم من أصل بربري أو مغربي، وسيظل هذا الجيل متمسكاً بهذه الزعامة حتى عصر الحاكم بأمر الله في مصر.

وأصبحت الدعوة الإسماعيلية الآن دعوة علنية، تدعمها سلطة دولة فتية، وهنا لابد لنا من أن نتساءل عن التجديدات التي أدخلت على أفكار الدعوة ثم عن التأثيرات المحلية عليها؟

يروى بأن المهدي كان قد جلب معه من المشرق كمية من الكتب الخاصة، لعلها تضمنت النتاج الفكري الإسماعيلي، أو بعض المهم منه، وإذا صحّ هذا، فإن هذا النتاج هو الذي اتخذ أساساً في العمل الدعوي الجديد، وعليه فقد بقيت أفكاره الظاهرية هي هي، وكذا التأويل الباطني، وجاء لإعادة تنظيم الدعوة الظاهرية والمجاهرة بها وبأفكاره مع ممارسة المهدي للسلطة، داخلية، وغير إسماعيلية خارجية، ونجمت ردات الفعل الداخلية بالأساس عن حصر المهدي للسلطات وعمله في سبيل تغيير وضعه الأمامي وتبديل ولي العهد، وبناء دولة مركزية على غرار الدولة العباسية، وكان في هذا حرمان من الغنائم للذين تحملوا أعباء الدعوة مثل أبي عبد الله الشيعي وسواه، ثم كان في ذلك انتكاسة عقائدية، وتراجع، ذلك أن إقامة سلطة ملكية مركزية شديدة: شيء والتصور الوهمي والخيالي الفضفاض لدولة المهدي شيء آخر.

يروي القاضي عبد الجبار الهمذاني في كتابه تثبيت دلائل النبوة أنه بينما كان أصحاب أبي عبد الله الشيعي من المغاربة يحمّلون أمتعة المهدي "وجدوا ملابس الحرير والديباج، وأواني الذهب والفضة، وخصيان رومة، وآثار الأنبذة، فأنكروا ذلك

في أنفسهم، مع بلادة البربر، وسألوا أبا عبد الله الداعية عن ذلك، وإنما أنكروا ذلك لأن أبا عبد الله هذا كان مقيماً سنين كثيرة في كتامة يدعوهم إلى المهدي، الذي هو حجة الله، ويزعم أنه صاحبه، وكان أبو عبد الله يتقشف ويلبس الخشن، ويأكل العشب، ويعدهم عن المهدي بمثل ذلك، فلهذا أنكروا وسألوا، فقال لهم أبو عبد الله هذه الآثار لأصحابه وأتباعه، وكان معه أتباع كثير[٢٠]".

ووفق المهدي في القضاء على المعارضة الداخلية، وقام بتصفية دموية لأبي عبد الله الشيعي ومن سانده[٢١]، وجاء نجاحه نتيجة بذله الأموال، وشرائه زعماء قبائل كتامة، وكان للمعارضة من الخارج قصة أخرى من رواتها إبراهيم الرقيق مؤرخ القيروان، وقد بدأت في الأسبوع الأول لنزول المهدي برقادة حيث كانت قصور الأغالبة الفخمة على مقربة من القيروان: "فعندما حلت الجمعة أمر المهدي الخطيب أن يذكره في الخطبة فيقول: عبد الله الإمام المهدي بالله أمير المؤمنين، فلما صعد الخطيب المنبر وانتهى إلى ذكر المهدي قام واحد من رجالات السنة الحضور واسمه جبلة بن حمود الصدفي "قائماً وكشف رأسه حتى رآه الناس ومشى من المنبر إلى آخر الجامع وهو يقول: قطعوها قطعهم الله ويكررها، يعني الخطبة لبني العباس وقام الفقهاء ووجوه البلد معه، فما حضر أحد من الأماثل، وجلس بعد الجمعة رجل يعرف بالشريف، ومعه الدعاة، وأحضروا الناس بالعنف والشدة، ودعوهم إلى مذهبهم، فأجابوا إلى ذلك إلا القليل، فأمر بهم، فضربوا وحبسوا، ونابذت طائفة من الفقهاء المهدي، وحتى أنه أدخل برجل على الوالي فقال له الوالي: قل لا إله إلا الله، فقال: أما من قولك فلا، إنني لا أدري ما تقول لي بعدها، وأدخل إليه بآخر، وبين يديه مصحف، فقال له: أليس هذا هو القرآن؟ فقال له: ماأعرف ماهو، ووُجدَ رجلٌ من أصحاب المهدي المشارقة مقتولاً فأتوا إليه وقالوا قتل رجل من الأولياء، قال: وأين هو؟ قالوا له: أكلوه ولم تبقَ إلا عظام ساقيه، فقال المهدي: هذا بلد لا يحل أن يقام فيه، فأمر

بقتل المحبسين إن لم يرجعوا عما هو عليه، فقتل منهم على ما قيل أربعة آلاف رجل في العذاب ما بين عابد ورجل صالح".

وأثارت هذه الأعمال أهل القيروان، وكانوا يتعصبون لمذهب الإمام مالك وأهل السنة، وكانوا سادة الأعمال التجارية والصناعية والثقافية والحضارية العامة في الشمال الإفريقي، ودخلوا في صراع مع رجال قبيلة كتامة، لأسباب عربية بربرية وحضارية واجتماعية وسياسية عامة، وكان الصراع حاداً أجبر المهدي على التراجع ولو مؤقتاً، والخروج لتسكينهم "وكف الدعاة عن طلب الناس بمذهب التشيع"، فلما كانت سنة ٣٠٠ هـ/ ٩١٣ م "خرج بنفسه إلى تونس يرتاد لنفسه موضعاً على ساحل البحر يتخذ فيه مدينة، فلم يجد بقرطاجة إلى تونس أحسن ولا أحصن من موضع المهدية، وهي جزيرة متصلة بالبر كهيئة كف متصل بزند، فتأملها فأعجبته"، فبنى فيها مدينة في غاية الحصانة والأحكام، ذلك أنه أراد من المدينة حصناً "يعتصم هو فيه، ثم من يخلفه"، لأنه أدرك أن شعوب تونس والشمال الإفريقي لن يمنحوه الولاء صدقاً، ولن يدعوه بينهم إذا ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وعلى الرغم من تسمية المهدي لمدينته باسمه – وهذه حالة شاذة في تاريخ الإسلام- فإن هذه المدينة لم تخطط وتشيد كمدينة عقائدية مثالية، بل أريد منها أن تكون قوية حصينة، ولما وجد المهدي أن مساحة الجزيرة غير كافية قام بردم جزء من البحر، كما قام بنقر ميناء لها في الصخر يتسع لحوالي ثلاثين سفينة، وأقام على مدخل هذا المرسى برجين عظيمين(٢٢) – ما تزال بقاياهما قائمة- للحراسة، ربط بينهما بسلاسل من الحديد لتحول دون طروق السفن الغربية إلى الميناء، ونقر في الصخر أيضاً داراً للصناعة تتسع لثلاثمائة سفينة، كما بنى في المدينة الإهراءات الكبيرة لخزن الحبوب والمؤن، ونظراً لندرة المياه فقد أكثر المهدي من بناء خزانات المياه التي تملأ بمياه الأمطار.

وبنى المهدي لنفسه قصراً وآخر للقائم، كما بنى مسجداً كبيراً، ويختلف بناء هذا المسجد عن غيره من مساجد المشرق والمغرب، ذلك أن له بوابة كبيرة قام على

مقربة منها برجان في غاية الضخامة ثم أبراج أصغر، مما جعل واجهة المسجد أشبه بواجهة إحدى القلاع، وجاءت هذه الأبراج مجوفة حيث كان تملأ بمياه الأمطار، وكان الإمام يدخل من بوابته الكبيرة، وذلك أن حرمه لم يكن فيه مقصورة لها دهليز خاص متصل بقصر الخليفة كما كانت العادة منذ أيام معاوية بن أبي سفيان، إثر محاولة اغتياله على يد الخوارج، كما لم يكن القصر قريباً من المسجد، والجديد في بناء مسجد المهدية أيضاً وجود ممر خاص مسقوف قام على صفين من الأعمدة، وكان يصل البوابة بالحرم، وتعليل هذا مرتبط بأمر المظلة وما يتعلق برسومها عند الفاطميين، فمن المشهور أن النبي صلى الله عليه وسلم، كان إذا تحرك – أثناء رحلته إلى الشام– كانت تظله غمامة، لذلك عندما قامت الخلافة الفاطمية اتخذ الخلفاء لأنفسهم مظلة تحمل فوق رؤوسهم، وحيث أنه كان من غير اللائق، أو من المحال حمل المظلة داخل المسجد عند دخول الخليفة إليه، تم بناء رواق خاص مسقوف جاء على شكل المظلة، ليمر الخليفة تحته عند دخوله المسجد، وكان الموقع الذي اختاره المهدي لبناء مدينته موقعاً معروفاً من قبل، كان فيه بعض السكان عندما اختاره، والمنطقة المحيطة به، وتعرف بمنطقة الجم (أرض الجمة) كانت منطقة حضارة وعمران وهي ماتزال كذلك، وعندما أنجز بناء المهدية انتقل المهدي إليها مع أركان دولته، ثم أمر بعد مدة بأن تحول طرق التجارة إليها، وكان في ذلك مشقة على التجار وعقوبة لأهل القيروان، وسنجد المنصور إسماعيل، وهو الخليفة الثالث يترك المهدية، ويبني قرب القيروان صبرة المنصورية لإرضاء التجار وكسب ودّ أهل القيروان، وقد جعل المهدي، أسواق المدينة في داخل الجزيرة، وحرم على التجار البيتوتة في المدينة الجزيرة، فكانت بضائع التجار تبقى رهينة داخلها تمنعهم من التحريض أو المشاركة في أية ثورة تدبر في الليل وإذا حدث وانفجرت ثورة في النهار كانت بوابة المدينة الوحيدة الشديدة الحصانة، والتي لا يتصل بالبرّ سواها، تغلق ويبقى التجار وبضائعهم رهائن فيها.

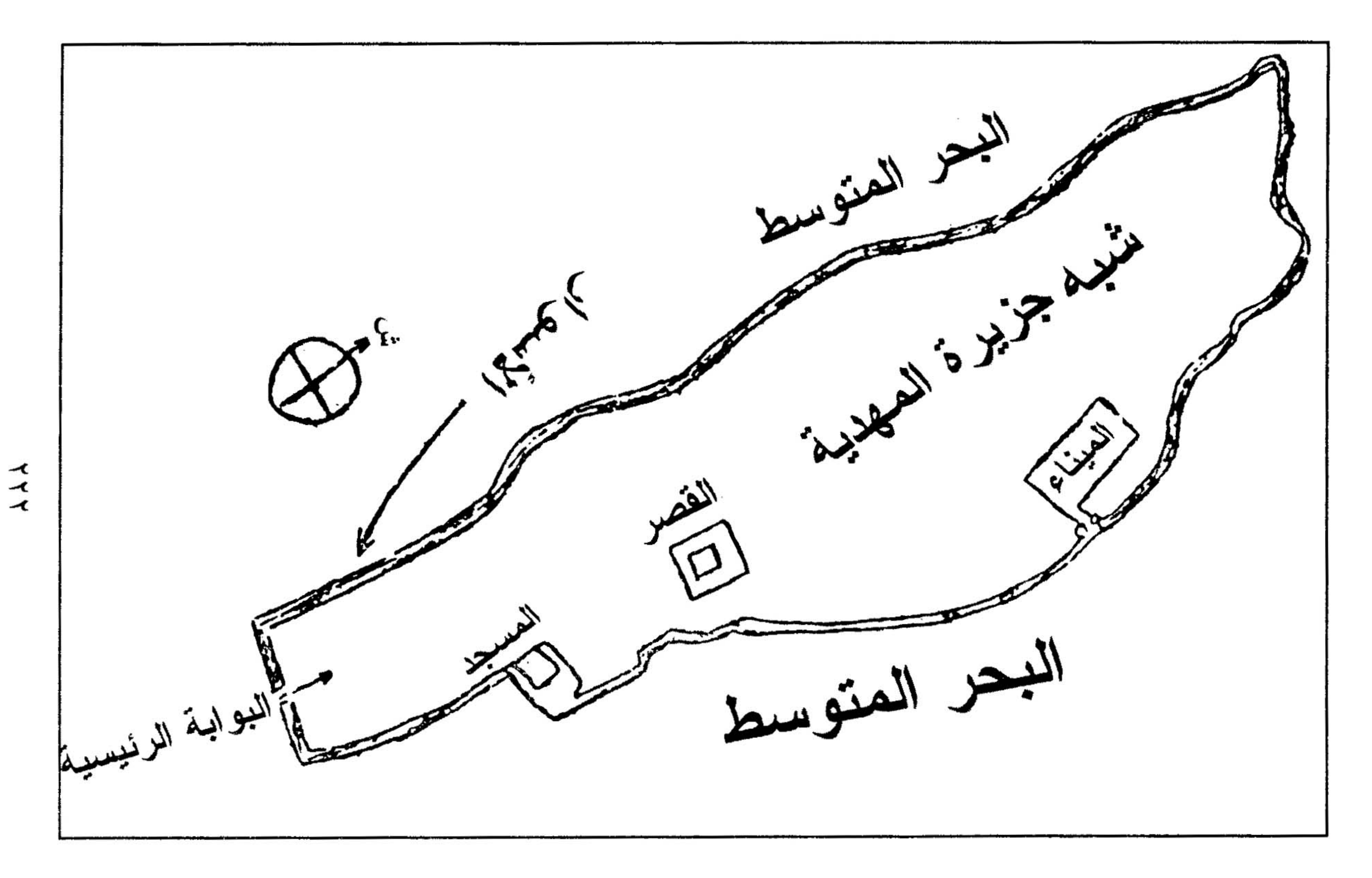
ومن المهدية أخذ بتوجيه الدعاة إلى مناطق البلدان الإسلامية في المغرب والأندلس والمشرق، وأولى والمهدي المشرق عنايته الكبرى، ذلك أن هدف الإسماعيليين كان إزالة الخلافة العباسية من الوجود، وينقل المقريزي أن المهدي "لم يمت حتى وصلت دعاته إلى بلاد الشرق، وبعث إليه نصر بن أحمد أمير خراسان يقول: أنا في خمسين ألف مملوك يطيعوني، وليس على المهدي كلفة ولا مؤونة. فإن أمرني بالمسير سرت إليه، ووقفت بسيفي ومنطقتي بين يديه، وامتثلت أمره، وإن أمرني أن أدخل أهل الأرض في طاعته فعلت، وكتب بهذا إليه مرادويج الجبلي بمثل ذلك، وكتب إليه يوسف بن أبي الساج... وأحمد بن صعلوك... بمثل ذلك، وأنفذوا رسلهم مع الأموال إليه، فوقع على ظهر كتبهم، الزموا مراكزكم "لكل أجل كتاب"[٢٣].

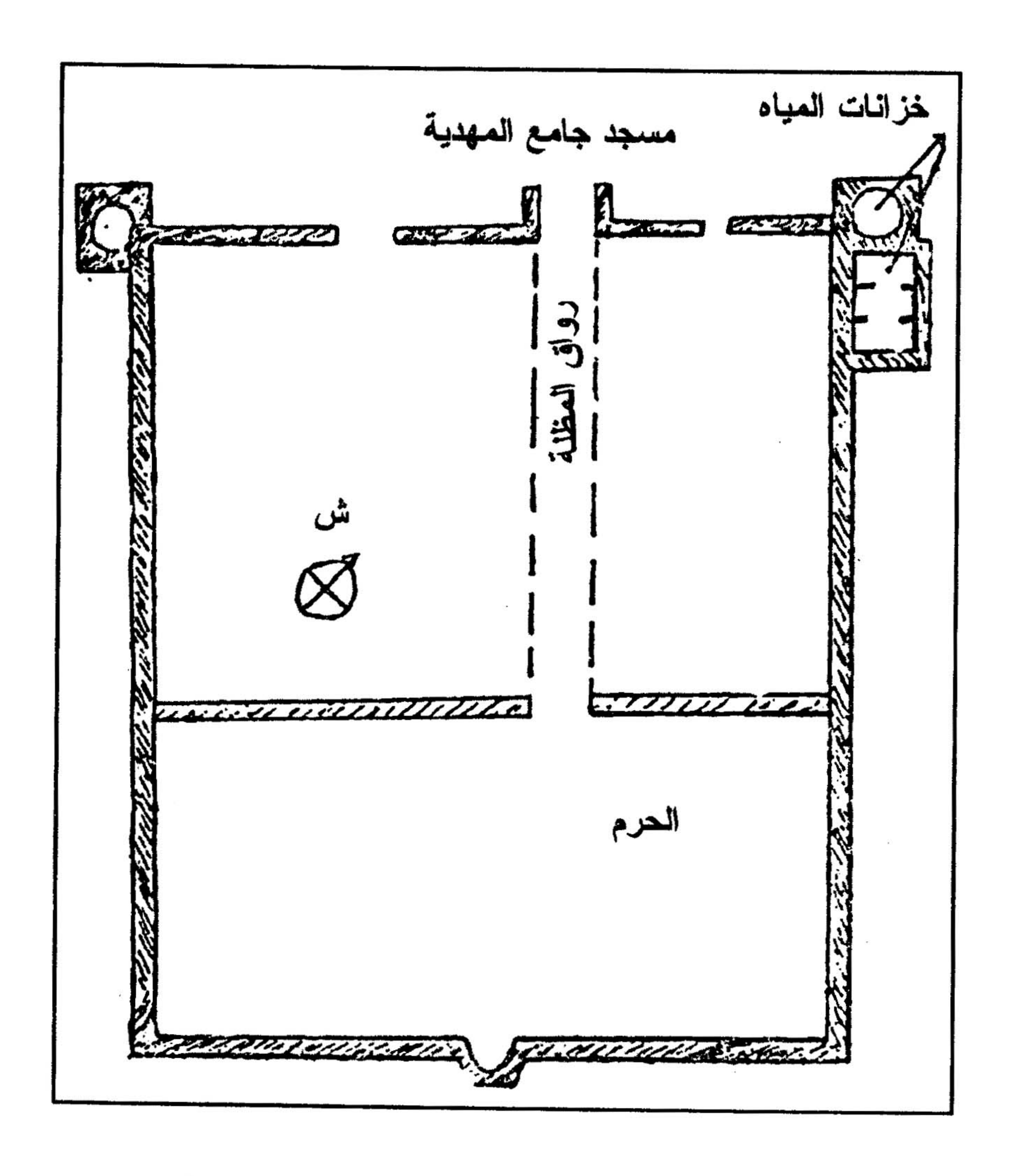
ولم يقتصر اعتماد المهدي على جيش الدعاة الكبير كوسيلة لإزالة الخلافة العباسية عن طريق تفجير الثورات، بل اعتمد القوة المسلحة لدولته، فتوجهت أنظاره فور استقرار الأمور له في إفريقية نحو مصر الأخشيدية، فوجه ضدها عدة حملات عسكرية قاد غالبيتها خليفته أبو القاسم محمد القائم، وكان نصيب هذه الحملات الإخفاق[٢٤].

وعقب وفاة المهدي سنة ٩٣٤ م توقفت هذه الحملات، ذلك أنه كان على أبي القاسم ثم ابنه المنصور إسماعيل بعده العمل في سبيل المحافظة على الوجود الفاطمي في المغرب، هذا الوجود الذي كادت تعصف بأركانه الثورة الخارجية التي قادها أبو يزيد مخلد بن كيداد النكاري بتحريض ودعم من الخلافة الأموية في الأندلس[٢٥]، ووافت المنية القائم في المهدية سنة ٩٤٦ م دون أن يتمكن من القضاء على هذه الثورة، ثم خلفه ابنه المنصور إسماعيل، وقد تسنى للمنصور بعد حروب طويلة القضاء على ثورة أبي يزيد، وعقب ذلك أخذ يعيد تنظيم دولته، ويتوجه ببصره نحو مصر، وخلال انشغال الدولة الفاطمية في المهدية بثورة أبي يزيد بقي الدعاة نشيطين، وثابروا في تركيز الجهد على مصر وغيرها من بلدان المشرق، ويبدو أن الدعوة

كسبت بعض القواعد في مصر، وأخذت هذه القواعد تستقبل المزيد من الدعاة للتدريب والتوجيه، ولعل من أبرز الذين وصلوا إلى واحد من مراكز الدعوة في مصر أحمد ابن الحسين، الذي سيعرف باسم المتنبي الشاعر، ذلك أنه بعد دعوته من مصر أعلن ثورته في بادية الشام(٢٦)، حيث أسره لؤلؤ صاحب حمص وأودعه السجن، وسيقوم المتنبي بعد خروجه من السجن بالالتحاق بسيف الدولة الحمداني حيث قال في مدحه أروع القصائد، وحاول كسبه إلى الجانب الإسماعيلي فأخفق، لذلك ذهب إلى مصر، تسير أمامه شهرته الواسعة، فاتصل بكافور الإخشيدي، وسعى لنيل ولاية منه لتكون قاعدة متقدمة للتحرك الإسماعيلي نحو احتلال مصر، لكن كافور رفض طلبه، فاتصل بواحد من كبار قادة جيشه، فتوفي هذا في ظروف غامضة وبشكل مفاجئ، وضيّق كافور على المتنبي، فاضطر إلى مغادرة مصر فوراً، وأعلنت الدعوة الإسماعيلية نتيجة ذلك، أن مصر لن تفتح "حتى يزول الحجر الأسود من مكانه".

وفي أيام المعز خليفة المنصور، وكان الحجر الأسود [كافور] قد زال من الوجود، تمكنت الخلافة الفاطمية بفضل حملات قادها جوهر الصقلبي قائد المعز، تمكنت من بسط سيطرتها على جميع أجزاء الشمال الإفريقي، ونشط بعض الدعاة في الأندلس، لكن الأندلس ودولتها لم تكن هدف الإمامة الفاطمية، لذلك ما إن وافت الفرصة حتى زحفت القوات الفاطمية على مصر ثم ألحقت بها القسم الأكبر من بلاد الشام.


البحر المتوسط
شبه جزيرة المهدية
الميناء
القصر
المسجد
البحر المتوسط
الأسوار
ش
البوابة الرئيسية



وفي مصر بنت الخلافة الفاطمية عاصمة جديدة كانت هي الأزهر، وعندما انتقل مركز الفاطميين من إفريقية إلى مصر لم يترك هذا المركز وراءه أتباعاً عقائديين كثيرين، حيث سهل بعد مدة قصيرة نسبياً التخلي عن الولاء الفاطمي،

والعودة إلى الولاء السني العباسي، وهذا يعني أن الدعوة الإسماعيلية قد نجحت في المغرب سياسياً، ولم تنل النجاح عقائدياً، وسيتكرر هذا الحال في مصر، وأنه لمن الغرابة بمكان أن نجد للعقيدة الإسماعيلية أتباعاً يؤمنون بها حيث لم تقم لها سلطة ودولة، وأن لا نجد لها من يؤمن بها حيث حكمت سنين طويلة، إنه لأمر يتمنى الباحث أن يعرف سره، ويكشف مغلق لغزه.

الحواشي والهوامش

(١) انظر كتابي: تاريخ العرب والإسلام: ٤١١-٤٢٣، ٤٥١-٤٦٠، ٤٨٥-٤٨٨.

(٢) افتتاح الدعوة: ص٥٤-٥٨. المقفى (مخطوطة باريس)، ص٤١٢. وعيون الأخبار: ٣٢٤/٤-٣٩٥. نهاية الأرب: ٢٤/٢٣. التراتيب: ١٣٨. استتار الإمام: ٩٥. الكامل لابن الأثير: ١٣٠/٥-١٣١. اتعاظ الحنفا: ٥١/١. ابن خلدون: ٤٥٠/٣. دور كتامة: ٤٥-٣٢٩.

(٣) افتتاح الدعوة: ٣٢-٥٤.

(٤) نشر كتاب الكشف في إكسفور عام ١٩٥٢، ثم أعيد نشره في بيروت ١٩٨٤، ونشر كتاب المباحث في عام ١٩٥٦ من قبل مصطفى غالب.

(٥) افتتاح الدعوة: ٥٩-١٢٢. مروج الذهب: ٣٧١/١. ابن خلدون: ٣٢/٣. نهاية الأرب: ٢٤/٢٣. طبقات المشايخ للدرجيني: ٩٢/١. أبو الفداء: ٨١/٢. الكامل لابن الأثير: ٣٣/٨. اتعاظ الحنفا: ٥١/١. ابن عذاري: ١٦٧/١. المقفى برتوشا: ٣٩١. ودور كتامة: ١٩٣-٣٣١.

(٦) الكشف: ٤٨-٤٩.

(٧) سيرة الحاجب جعفر: ١٠٩-١١٤.

(٨) سيرة الحاجب: ١١٤-١١٥.

(٩) المغرب الإسلامي للحبيب الجنحاني: ١٤٣-١٩٠.

(١٠) سيرة الحاجب: ١١٥.

(١١) نشرت غالبية النصوص اليمنية المرتبطة بهذا الموضوع في كتابي "الجامع في أخبار القرامطة".

(١٢) سيرة الحاجب: ١١٦-١٢٠.

(١٣) سيرة الحاجب جعفر: ١٢٠-١٣٣.

(١٤) في متحف دمشق دينار ذهبي وربع دينار يؤكدان هذا أيضاً.

(١٥) المجالس والمسايرات: ٥٤٢-٥٤٣.

(١٦) سيرة جوذر: ٦٥-٩٦، ١٠٥-١٠٦.

(١٧) أخبار القرامطة: ١٣٧-١٤١.

(١٨) لدي ثلاث نسخ منها حصلت عليها من مكتبة خاصة.

(١٩) يذهب القاضي عبد الجبار الهمذاني إلى أن الخلافة الفاطمية أظهرت أثناء ثورة أبي يزيد "الرجوع إلى الإسلام، وقام الإمام" بقتل الدعاة، ونفي بعضهم إلى أرض الأندلس وغيرها، وقال للعامة من سمعتموه يلعن الأنبياء فاقتلوه وأنا من ورائكم، وأذن للفقهاء والمحدثين... وخفف الخراج وأظهر الشغل بالفقه". انظر أخبار القرامطة: ١٦٤.

وبالنسبة لثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد يمكن العودة إلى ترجمتي القائم والمنصور إسماعيل في المقفى للمقريزي وإلى طبقات المشايخ للدرجيني وإلى محتويات المكتبة الإباضية الإفريقية، وإلى عيون الأخبار للداعي إدريس، وجرى نشر السبع الخامس من هذا الكتاب في بيروت، وأعيد نشر أجزاء منه في تونس بعنوان "تاريخ الدولة الفاطمية بالمغرب" تحقيق: د. فرحات الدشراوي- تونس ١٩٧٩، وشخصية هذا الثائر ما تزال تستهوي الباحثين بين معجب ومتهم ومن أحدث الكتب الإباضية حوله كتاب "ثورة أبي يزيد- جهاد لإعلاء كلمة الله" تأليف الشيخ سليمان بن الحاج داود بن يوسف ط. الجزائر: ١٩٨١.

أما بالنسبة إلى موضوع القيامة فلا تكاد رسالة أو كتاب من كتب الإسماعيلية إلا ويكون فيها وفيه الموضوع الرئيسي، انظر سرائر وأسرار النطقاء لجعفر بن منصور اليمن: ٢٢٩-٢٦٤. كتاب الكشف له: ٤٦-٥٠، ٤٧، ١٠٥-١٠٦، ١١٦-١١٧.. كتاب البيان لمباحث الإخوان لأبي منصور اليماني: ٨٨-٩٣، ١٠٨-١٠٩. أربع رسائل إسماعيلية تحقيق عارف تامر: ٥١-٥٢، ١٠٢. ثلاث

رسائل إسماعيلية تحقيق عارف تامر: ١٨-٢٠. أربع كتب حقانية تحقيق مصطفى غالب: ٨٨-٩٩. كتاب إثبات الإمامة لأحمد بن إبراهيم النيسابوري: ٤١-١٨٩-١٩٣. كتاب إثبات النبوءات لإسحق السجستاني: = كتاب شجرة اليقين للداعي عبدان القرامطي: ١١-١٣، ٣٦-٣٧، ٤٧-٤٨، ٥٦، ٨٩، ١٠٢. تاج العقائد ومعدن الفوائد تأليف علي بن محمد الوليد: ٥٨-٩٥. كتاب الذخيرة في الحقيقة له: ٨٤-١١٢. كتاب الافتخار لأبي يعقوب السجستاني: ٤٧-٩١.
وقد تعرض لهذا الموضوع في أيامنا برنارد لويس في كتاب الدعوة الإسماعيلية الجديدة: ٨٧-٨٩، ١٢٨. المحجة فيما نزل في القائم الحجة لهاشم البحراني، وقد حاول مؤلف هذا الكتاب إثبات قيام القائم عن طريق تأويل آيات القرآن الكريم. الإمامة وقائم القيامة لمصطفى غالب، وهو كتاب وأن تميز بالضحالة لا يخلو من فائدة.

(٢٠) أخبار القرامطة: ١٧٨-١٧٩.

(٢١) الكامل لابن الاثير: ٨/١٥٠-١٥٢. أخبار بني عبيد: ١١٥-١١٦. رسالة افتتاح الدعوة: ٢٦٠. أخبار الدول المنقطعة- نسخة غوطا، قسم الدولة الفاطمية: ٦-٨. صلة عريب: ٥٢. البيان المغرب: ١/٢٢٣-٢٢٥. تاريخ المغرب في العصر الوسيط: ٥٢-٥٣. نهاية الأرب: ٢٣-٣٥. معالم الإيمان: ٣/٤٧. عيون الأخبار: ٥/١٢٣. المقفى: تراجم المهدي. أبو عبد الله الداعي وأخيه أبي العباس.

(٢٢) المقفى- باريس- ٢١٥ و٢٢٢. ظ (ترجمة المهدي).

(٢٣) مصادر الحاشية السابقة، وهذا الوصف للمهدية ومسجدها قائم على المشاهدة الشخصية لدى زيارتي لها عام ١٩٧٥.

(٢٤) للقائم ترجمة مفيدة في المقفى، انظر أيضاً عيون الأخبار: ٥/١٢٠-١٣٦.

(٢٥) رأيت في القيروان ديناراً ذهبياً ضرب سنة ٣٣٣هـ/ ٩٣٤م أبي يزيد مخلد بن كيداد، من المعتقد أن ذهبه أندلسي المصدر، وجاء على هذا الدينار:

١- الطوق: الحمد لله: ضرب بمدينة القيروان. سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة.

٢- الوجه الأول: ربنا الله. لا حكم إلا لله. وحده لا شريك له. الحق المبين.

٣- الوجه الثاني: العزة لله. محمد رسول الله. خاتم النبيين.

(٢٦) ترجمة المتنبي في بغية الطلب لابن العديم مع ترجمة جوهر الصقلبي في ملاحق كتابي مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية.

المصادر والمراجع

١. الأشعري (علي) **مقالات الإسلاميين**. القاهرة، ١٩٥٠.

٢. الأملي (حيدر بن علي) **الكشكول فيما جرى على آل الرسول**. قم- منشورات الرضي.

٣. الأمين (محسن) **أعيان الشيعة**. بيروت، ١٩٨٣.

٤. إيماني (مهدي الفقيه) **الإمام المهدي عند أهل السنة**. أصبهان، ١٤٠٢ هـ.

٥. الباقلاني (أبو بكر الطيب) **الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به**. بيروت، ١٩٨٠.

٦. البحراني (هاشم) **المحجة فيما نزل في القائم الحجة**. بيروت، ١٩٨٣.

٧. بدوي (عبد الرحمن) **مذاهب الإسلاميين**. بيروت.

٨. البغدادي (الخطيب- أحمد) **تاريخ بغداد**. بيروت، دار الكتاب العربي.

٩. البغدادي (أبو منصور عبد القاهر) **الفرق بين الفرق**. القاهرة، ١٩٤٨.

١٠. تامر (عارف) **ثلاث رسائل إسماعيلية**. بيروت، ١٩٨٣.

١١. تامر (عارف) **أربع رسائل إسماعيلية**. بيروت، ١٩٧٨.

١٢. الجعفي (المفضل بن عمر) **الهفت الشريف**. بيروت، ١٩٦٤.

١٣. جوزي (بندلي) **من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام**. بيروت، دار الروائع.

١٤. الحامدي (إبراهيم بن الحسين) **كنز الولد**. بيروت، ١٩٧٨.

١٥. الحائري (علي اليزي) **إلزام الناصب في ثبات الحجة الغائب**. بيروت، ١٩٧١.

١٦. ابن حجر الهيتمي (أحمد) **الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة**. القاهرة، ١٩٦٥.

١٧. الحراني (أبو محمد الحسن بن علي) **تحف العقول عن آل الرسول**. بيروت، ١٩٦٩.

١٨. ابن حزم الأندلسي (محمد بن علي) **الفصل في الملل والنحل**. القاهرة، ١٣١٧هـ.
١٩. حسن (سعد محمد) **المهدية في الإسلام**. القاهرة، ١٩٥٣.
٢٠. الحماذي (محمد بن مالك) **كشف أسرار الباطنية**. القاهرة، ١٩٣٩.
٢١. دراوور (الليدي) **الصابئة المندائيون**. بغداد، ١٩٦٩.
٢٢. دي غويه (مايكل) **القرامطة**. بيروت، ١٩٧٨.
٢٣. الديلمي (محمد بن الحسن) **بيان مذهب الباطنية وبطلانه**. استانبول، ١٩٣٨.
٢٤. الرازي (أحمد بن حمدان) **كتاب الزينة**. القاهرة، ١٩٥٧.
٢٥. زكار (سهيل) **الجامع في أخبار القرامطة**. دمشق، ٢٠٠٧.
٢٦. ابن شاذان (الفضل) **الإيضاح**. بيروت، ١٩٨٢.
٢٧. الطبري (محمد بن جرير) **تاريخ الرسل والملوك**. القاهرة، دار المعارف.
٢٨. العباسي العلوي (علي بن محمد) **سيرة الهادي إلى الحق**. بيروت، ١٩٧٢.
٢٩. ابن العربي (أبو بكر) **العواصم من القواصم**. الجزائر، ١٩٧٢.
٣٠. العزيزي (أبو علي منصور) **سيرة الأستاذ حوذر**. القاهرة، ١٩٥٤.
٣١. العسكري (جعفر بن محمد) **المهدي الموعود المنتظر عند علماء أهل السنة والإمامية**. بيروت، ١٩٧٧.
٣٢. العلوي (يحيى بن حمزة) **الأفحام لأفئدة الباطنية اللغام**. الاسكندرية، منشأة المعارف.
٣٣. ابن علي (القاسم بن محمد) **كتاب الأساس لعقائد الأكياس**. بيروت، ١٩٨٠.
٣٤. غالب (مصطفى) **أربعة كتب حقانية**. بيروت، ١٩٨١.
٣٥. غالب (مصطفى) **الإمامية وقائم القيامة**. بيروت، ١٩٨٠.
٣٦. الغزالي (أبو حامد) **فضائح الباطنية**. القاهرة، ١٩٦٤.

٣٧. القرعي (الداعي إدريس) **عيون الأخبار وفنون الآثار**. بيروت، ١٩٧٣.

٣٨. القرمطي (الداعي عبدان) **كتاب شجرة اليقين**. بيروت، ١٩٨٢.

٣٩. القمى (سعد) **المقالات والغرق**. طهران، ١٩٦٣.

٤٠. لويس (برنارد) **أصول الإسماعيلية**. بغداد، ١٩٤٧.

٤١. لويس (برنارد) **الحشيشة**. دمشق، ٢٠٠٦.

٤٢. ابن محمد (القاضي النعمان) **الرسالة المذهبة**. ثلاث نسخ خطية من مكتبتي.

٤٣. ابن محمد (القاضي النعمان) **رسالة افتتاح الدعوة**. بيروت، ١٩٧٠.

٤٤. ابن محمد (القاضي النعمان) **المجالس والمسايرات**. تونس، ١٩٧٨.

٤٥. المقدسي (يوسف بن يحيى) **عقد الدرر في أخبار المنتظر**. القاهرة، ١٩٧٩.

٤٦. المقريزي (أحمد بن علي) **اتعاظ الحنفا** (نسخة مصورة لدي).

٤٧. المقريزي (أحمد بن علي) **المقفى** (نسخة مصورة لدي).

٤٨. الملطي (محمد بن أحمد) **التنبيه والرد على أهل هؤلاء والبدع**. بغداد، ١٩٦٨.

٤٩. ابن منصور (جعفر) **الكشف**. بيروت، ١٩٨٤.

٥٠. ابن منصور (جعفر) **سرائر وأسرار النطقاء**. بيروت، ١٩٨٤.

٥١. الناشئ الأكبر، **مسائل الإمامية**. بيروت، ١٩٧١.

٥٢. النوبختي (الحسن بن موسى) **كتاب فرق الشيعة**. استانبول، ١٩٣١.

٥٣. الهمذاني (القاضي عبد الجبار بن أحمد) **تثبيت دلائل النبوة**. بيروت، ١٩٧١.

٥٤. الهمذاني (القاضي عبد الجبار بن أحمد) **المغني في أبواب التوحيد والعدل**. القاهرة.

٥٥. ابن الوليد (علي) **كتاب الذخيرة في الحقيقة**. بيروت، ١٩٧١.

Khazari Islamic relations and the position of Byzantium

Dr. Suhail Zoukar •
Nadeem khalil laika •

(Received 15 / 9 / 2019. Accepted 31 / 10 / 2019)

□ ABSTRACT □

The Khazars played an important role in the Middle Ages with the Byzantines, Muslims and many contemporary peoples at the time, and increased their breadth at the expense of their neighbors, until they managed to form a strong military and economic state, taking advantage of its strategic place between the Black Sea and the Caspian Sea, entered into friendly relations with the Byzantines and allied with them In confronting the Islamic threat, the Khazar kingdom enjoyed religious and political independence despite its alliance with the Byzantines, embraced Judaism, and managed to halt Islamic expansion towards the West.

• **Professor, Department of History, University of Damascus, Damascus, Syria.**
• **Postgraduate student (PhD) - Department of History - University of Damascus - Damascus - Syria.**

العلاقات بين الدولة العربية الإسلامية والخزرية وموقف بيزنطة منها (103-232هـ/722-848م)

د. سهيل زكار *

نديم خليل لايقة *

(تاريخ الإيداع 15 / 9 / 2019. قبل للنشر في 31 / 10 / 2019)

ملخّص

شغل الخزر دوراً هاماً في العصور الوسطى مع البيزنطيين والمسلمين والعديد من الشعوب المعاصرة في ذلك الوقت، وزادت من اتساعها على حساب جيرانها، حتى تمكنت من تشكيل دولة قوية عسكرياً واقتصادياً مستغلة مكانها الاستراتيجي بين البحر الأسود وبحر قزوين، دخلت في علاقات ودية مع البيزنطيين وتحالفت معهم في التصدي للخطر الإسلامي، وتمتعت مملكة الخزر باستقلال ديني وسياسي على الرغم من تحالفها مع البيزنطيين، واعتنقت الديانة اليهودية، وتمكنت من إيقاف التوسع الإسلامي باتجاه الغرب الأوربي.

* أستاذ-قسم التاريخ-جامعة دمشق-دمشق-سورية.

* طالب دراسات عليا (دكتوراه)- قسم التاريخ- جامعة دمشق-دمشق-سورية.

مقدمة:

كان يوجد على الحدود الشرقية الأوربية في العصور الوسطى قوم معروفين بقوتهم وشدة بأسهم، وهم اليهود الخزر الذين استطاعوا خلال العصور الوسطى من تشكيل دولة قوية بين القوقاز والفولجا عرفت بمملكة الخزر، وهم من الشعوب التركية التي شغلت دوراً هاماً في العصور الوسطى مع البيزنطيين والمسلمين والعديد من الشعوب المعاصرة في ذلك الوقت.

وقد سكن الخزر في المناطق الواقعة بين مجرى نهر الفولجا الأدنى والمنحدرات الشمالية للقوقاز، وقد زاد اتساع مملكتهم حتى المناطق القريبة من كييف وأواسط الدنيبر Dnieper غرباً في القرن التاسع الميلادي، كما خضعت الكثير من القبائل القوية تحت حكم الخزر ومنهم أكسوس Oxus، ووصلت مملكة الخزر في اتساعها حتى وصلت إلى المناطق الواقعة بين بحر قزوين والبحر الأسود وعرفت فيما بعد بإقليم الخزر، وقد عرف الخزر بأسماء مختلفة منها خوزارس Chozars وخازيرس Khazirs وأكاتزيرس Akatzirs وأكاتيرس Akatirs وغيرها من التسميات الأخرى، وتمكن الخزر من تكوين إمبراطورية شملت مناطق واسعة من جنوب روسيا الأوربية، وذلك خلال النصف الثاني من القرن السادس الميلادي، وقد كانت مملكة الخزر تشكل مدخل حيوي بين البحر الأسود وبحر قزوين، وكانت في تلك الأيام الدول الشرقية العظمى المتمثلة في الإمبراطورية البيزنطية والفارسية تتصارع مع بعضها، وقد شكلت مملكة الخزر حاجزاً بين البيزنطيين وكل من البلغار والمجر والبشناق، كما أوقفت المد الإسلامي باتجاه أوربا الشرقية.

وبذلك شغل الخزر دوراً هاماً في الصراع السياسي والديني نتيجة موقعهم الاستراتيجي، وقد شكل الخزر عقبة في طريق الحملات الإسلامية في منطقة القوقاز، وكانت تقع مملكتهم بين الدولة الإسلامية في الشرق والبيزنطية في الغرب، ودخلت الدولة الإسلامية في حروب عديدة مع مملكة الخزر منذ ظهور الإسلام مروراً بعصر الخلفاء الراشدين والخلافة الأموية والعباسية الأولى، نتج عنها وقف المد الإسلامي عند جبال القوقاز ومنع المسلمين من التوسع شرق أوربا، وفي ذات الوقت منعت تلك الحروب امتداد التوسع الخزري داخل المناطق الإسلامية.

وقد حمت مملكة الخز أوربا الشرقية من المد الإسلامي لمدة قرن من الزمن، وذلك خلال القرن السابع والثامن للميلاد خلال الحرب الخزرية العربية الأولى (22-32هـ/642-652م)، والحرب الثانية (103-119هـ/722-737م)، ووقف الخزر خلال الصراع البيزنطي الإسلامي إلى جانب البيزنطيين، كما أن مملكة الخزر اعتنقت في القرن الثامن الميلادي عام 740م اليهودية وهذا يدل على السياسة الاستقلالية التي انتهجتها مملكة الخزر بغض النظر عن تحالفها مع الإمبراطورية البيزنطية المسيحية.

إشكالية البحث

شهدت مدينة دربند (باب الباب) وضعاً هادئاً ومستقراً ساهم في نهضة سياسية وحضارية ، لكن هذا لم يدم طويلاً ، فقد شهد القرن الثامن الميلادي تغيراً في الوضع السياسي في دربند، فقد ظهر صراع وتنافس حاد بين المسلمين والخزر من أجل فرض السيطرة والهيمنة عليها لا سيما في هذه الظرفية التي اتسمت بدايةً في حصار مدينة دربند من قبل المسلمين حيث تمكنوا من السيطرة عليها بعد حصارها بأعداد كبيرة من الجنود وحالات الجوع وهجرة أعداد كبيرة من السكان هذه الحالة أفضت إلى إبرام معاهدة سلام مع الخزر واعترفت بموجبها بالوضع الراهن.

ونظراً لكون الموضوع متشعباً، فإنه من الطبيعي أن يفتح المجال لطرح العديد من الأسئلة والتي تمحورت فيما يلي:

- بم تميزت العلاقة السياسية والعسكرية بين المسلمين والخزر أثناء حصار مدينة دربند؟

- أوضاع مدينة دربند خلال هذه الحقبة؟
- كيف تمكن المسلمين من السيطرة على مدينة دربند؟

دوافع اختيار الموضوع:

دفعت الباحث عوامل كثيرة إلى اختيار العلاقات بين الدولة العربية الإسلامية والخزرية وموقف بيزنطة منها ومن بين هذه العوامل نذكر:

- الرغبة في تقديم صورة واضحة عن العلاقات الخزرية مع كل من المسلمين والبيزنطيين خلال العصر الراشدي والأموي والعباسي الأول، فعلى الرغم من المؤلفات التاريخية الوافية في العصور الوسطى الأوربية والإسلامية فإن هذا الموضوع لم يأخذ حقه في الدراسة الوافية.
- الاطلاع الواسع على الحقبة قيد الدراسة، من خلال البحث المقدم دراسة سقوط دربند عسكرياً، وتوجه الخزر للبحث عن أي حليف يقف إلى جانبهم ضد المسلمين، والذين تعارضوا في مصالحهم مع المسلمين، وأصبحوا أتباع للخزر.
- موقع منطقة دربند الجيواستراتيجي في العالم وأطماع المسلمين للوصول إلى الغرب من خلالها.

أهمية البحث وأهدافه:

موضوع الدراسة (العلاقات بين الدولة العربية الإسلامية والخزرية وموقف بيزنطة منها)من الموضوعات الهامة، التي تناولت بالبحث الصراع بين المسلمين والخزر في منطقة القوقاز.
وتظهر الأهمية أيضاً أهمية مدينة دربند والقوقاز بشكل عام السياسية والعسكرية بالنسبة للمسلمين، والتي مثلت المحطة الأولى في خطط طموحاتهم للتوجه نحو الغرب الأوربي.

منهجية البحث:

للإجابة على هذه التساؤلات والإلمام بجوانب الموضوع، سيتم إتباع المناهج العلمية الموضوعية استناداً إلى الوثائق والمصادر المعتمدة العلمية المتوفرة، وعلى أساس أن التاريخ خبر ورؤية.

العلاقات الخزرية الإسلامية خلال العهد الراشدي:

شهد القرن السابع الميلادي أقوى وأهم المعارك بين الخزر والمسلمين، بدأت الحروب عندما اتحد البيزنطيون مع الخزر ضد الإمبراطورية الفارسية الضعيفة، فقد بدأ المسلمون العرب في الإطاحة بالدولة الساسانية وسيطروا على أراضيها، وعلى الطريق من أرمينيا إلى القوقاز(1)، ومن سوريا بدأ التحرك نحو الأناضول، واستمرت النزاعات بين العرب و الخزر و نفذ الهجوم الأول في عام 22هـ/642م(2).
تألفت منطقة القوقاز من العديد من البلدان، بما في ذلك أذربيجان وأرمينيا وجورجيا وألبانيا وروسيا. تضم القوقاز الروسية العديد من المنظمات الفيدرالية مثل داغستان والشيشان، وتعد واحدة من أهم المناطق الجغرافية التي تربط بين آسيا وأوروبا(3)، كان هذا الفتح الإسلامي الأول في المنطقة في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، حيث أدت الانتصارات الإسلامية على الفرس والرومان إلى توسع الدولة الإسلامية العربية، والتي اكتسبت زخماً قوياً لاستمرار

غزو المسلمين وتقدمهم نحو القوقاز في عهد الخليفة عمر بن الخطاب(4)، وخلال حقبة حكمه في سنة (21هـ/641م) تم فتح العديد من المدن والقلاع في دربند (باب الأبواب) وأقام السلام مع الدربنديين مقابل دفع الجزية للمسلمين(5).

ثم أرسل الخليفة عمر الخطاب سراقة بن عمرو –وكان والي البصرة – لفتح البلاد حول أرمينيا، تفليس واللان وموقان(6)، ومن ثم توجه سراقة ليهاجم مدينة باب الأبواب (دربند حالياً Derband) ودخلها عام (22/ هـ642م)(7)، وبعد وفاة سراقة بمدينة باب الابواب خلفه أخوه عبد الرحمن بن ربيعه بالقيادة واتجه بعدها لغزو مدينة بلنجر، وقد وصل المسلمون إلى مدينة البيضاء(8)، وقد شن عبد الرحمن سلسلة من الغارات على الخزر مما أدى إلى فرارهم للمناطق الشمالية من بلاد الخزر نتيجة عدم تمكنهم من مواجهة للقوات الإسلامية، ثم خلال عهد الخليفة عثمان بن عفان (23–35هـ/644–656م)، سعى إلى تعزيز نفوذ المسلمين في البلاد التي تم فتحها(9)، واستمرت الفتوحات التي كان قد بدأها المسلمون من قبل حيث أكمل سلمان بن ربيعة وحبيب بن مَسلمة وعبد الرحمن بن ربيعة والوليد ابن عقبة فتح القوقاز وقاتلوا الروم والفرس والأرمن والأتراك والخزر حتى أصبحت منطقة جنوب القوقاز التي تضم من الدول آذربيجان وارمينيا وجورجيا وألبانيا إسلامية وسماها العرب بإمارة أرمينيا واذربيجان(10).

وقد وصل عبد الرحمن بن ربيعه سنة (32هـ/652م) بلنجر وحاصرها بالمجانيق وقتل العديد من الخزر(11) ، وقد أراد خاقان الخزر الانتقام من المسلمين حيث ألتقى الطرفان ونشب الصراع بينهما وانهار الجيش الإسلامي وتشتت شمله وقتل عبد الرحمن بن ربيعه وعدد كبير من المسلمين، وانسحب من تبقى قسم نحو دربند حيث انضموا إلى سلمان بن ربيعة الذي كلفه سعيد بن العاص لتقديم المساعدة للمسلمين، والقسم الآخر الذي نجا كان قد توجه نحو جيلان(12) ، وجرجان(13)، تسببت هزيمة المسلمين ووفاة عبد الرحمن بن ربيعه إلى الفشل في الاستيلاء على بلنجر على الرغم من الهجمات العديدة عليها، هذا أنهى المرحلة الأولى من الحرب بين المسلمين والخزر(14).

على الرغم من الفوز الذي حققه الخزر أجبرهم المسلمون على الهجرة من دربند في عام (41هـ/661م)، ونقل عاصمتهم من سمندر إلى آتل شمالاً(15)

بعدها قُتِل الخليفة عثمان بن عفان (35هـ/656م) على يد جماعة من الخوارج، بدأت فتنة مقتل عثمان فتوقفت الفتوحات وخيم السلام على منطقة القوقاز ما يقرب من ثلاثين.

العلاقات الخزرية الإسلامية خلال العهد الأموي:

استمرت النزاعات الحدودية بين المسلمين والخزر قرابة النصف قرن، وخلال عهد الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان، بدأت هجمات كبيرة على القوقاز، فبعد حدوث فتنة عثمان وموته استمرت الفتنة في عهد الخليفة الراشدي علي بن أبي طالب الذي تولى الخلافة سنة (35هـ/656م)، حيث دخل في خلاف مع معاوية بن أبي سفيان حول الخلافة، وانتهى النزاع بقيام الدولة الأموية سنة (41هـ/661م)، وأصبح معاوية خليفة للمسلمين(41–60هـ/661–680م)، وفي عهد الامبراطور البيزنطي قسطنطين الرابع(668–685م) استأنفت الفتوحات الإسلامية في مهاجمة القسطنطينية التي كانت على علاقة جيدة مع مملكة الخزر، وفي سنة (53هـ/673م) توجه جيش إسلامي ضخم وحاصر القسطنطينية من سنة (53–59هـ/673–679م)، وكادت القسطنطينية تسقط لولا النار الإغريقية التي تسببت في خسائر كبيرة بين صفوف المسلمين(16) ، دفعت هزيمة المسلمين أمام البيزنطيين كلاً من الأفار والقبائل الصقلية إلى الدخول في طاعة الإمبراطور البيزنطي(17)، وتم إرسال وفود من أوروبا ومنطقة بحر قزوين لتهنئة الإمبراطور البيزنطي بالنصر الذي استطاع من خلاله منع التقدم الإسلامي إلى العالم المسيحي من الشرق(18)، وبعد وفاة معاوية وانتقال الخلافة إلى ابنه

يزيد (60-64هـ/680-683م) بدأت الثورات في الدولة الإسلامية ولم يستقر الوضع داخل الدولة الإسلامية حتى وصول الخليفة عبد الملك بن مروان(65-86هـ/685-705م)، الذي تمكن من القضاء على الثورات، خلال السنوات الأولى من حكمه احتل الخزر جورجيا وألبانيا وأرمينيا(19)، وشغلت بيزنطة دوراً في تشجيع الخزر على غزو دولة أرمينيا الإسلامية، مما دفع عبد الملك بن مروان إلى إرسال جيش لقتال الخزر في أرمينيا إلا أنه هزم أمام الخزر وخسر المسلمون كثيراً من الرجال والأموال(20)، بعد هذه الهزيمة التي ألمت بالجيش الإسلامي تم إعداد جيش آخر وكان قائد هذا الجيش مسلمة بن عبد الملك، وقد قام بالعبور من أذربيجان وهاجم دربند، التي كان يتواجد فيها أكثر من ثمانين ألف من الخزر، وعلى الرغم من كل محاولات المسلمين دخول المدينة أخفقوا بسبب حصانة أسوارها.

وحسب بعض الروايات كان هناك رجل من الخزر خاف على نفسه وكان على عداوة مع خاقان الخزر ساعد المسلمين على دخول المدينة مما أدى إلى سقوطها بأيديهم، إلا أن الخزر تمكنوا من استعادتها بعد عودة الجيش الإسلامي إلى أرمينيا(21)، وفي عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك (86-96هـ/705-715م) استأنفت الفتوحات الإسلامية ففي عام 711م هاجم مسلمة بن عبد الملك الخزر من جديد، وتقدم في أنحاء دربند حتى استولى عليها في عام 714م(22)، إلا أنه في عام 717م اضطر مسلمة للذهاب إلى حصار القسطنطينية أيام سليمان، أي بعد وفاة الوليد، وانسحابه من القوقاز وانسحبت القوات الإسلامية أمام هجمات الخزر، وبناء على هذا دخل الخزر إلى شِرفان واحتلوا جزءً كبيراً من آذربيجان.

وفي عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز نجح والي أرمينية وآذربيجان حاتم بن النعمان الباهلي من وقف تقدم الخزر وأسر أعدد منهم(23)، ولكن بعد خمس سنوات قام الخزر وبمساعدة من قبائل الأتراك والقفجاق بهزيمة المسلمين وألحقوا بهم خسائر كبيرة، وقد استطاع الناجون من تلك الهزيمة العودة إلى دمشق ولتعويض ما حدث قام الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك (101-105هـ/720-724م) بتعيين الجراح بن عبد الله الحكمي حاكم منطقة جنوب القوقاز(وكانت تضم اقليم آذربيجان بالإضافة إلى أرمينيا وجورجيا التي كانتا تخضعان للسلطة العربية مع احتفاظهما باستقلال ذاتي) لمواجهة الخزر(24)، وقد تقدم الجراح على رأس جيش ضخم حتى بلغ مدينة برذعة(25)، ومن ثم تمكن الجراح من عبور نهر الكر(26)، وقد تمكن الجراح من تحقيق انتصارات ناجحة ضد الخزر ما بين عام (721 و723م)، فقد استولى على دربند، حيث كان قد تقابل الجيشان شمال دربند، وقد ألحق الجراح هزيمة نكراء بالخزر في تلك الحرب وغنموا الكثير(27)، وقام الجراح بعد ذلك بالاستيلاء على بلنجر، وعلى اثر ذلك انتقل حاكم الخزر إلى مدينة اتيل الواقعة على نهر اتيل وجعلها عاصمة دولته.

وفي عام (105هـ/724م) توفي الخليفة يزيد وتولى الخليفة هشام بن عبد الملك الخلافة (105-125هـ/724-743م) إلا أن الخليفة هشام قام سنة (107هـ/726م) بعزل الجراح عن آذربيجان وأرمينيا وقام بتعيين مسلمة بن عبد الملك(28)، وهي الولاية الثانية لمسلمة التي استمرت من سنة (107-111هـ/726-729م) وقام مسلمة مجدداً بمهاجمة الخزر سنة (110هـ/728م)، وتحرك باتجاه آذربيجان وداغستان واستولى على عدد من القلاع. وقد هاجم مسلمة الخزر مجدداً في نفس العام، وحصل على عدد كبير من الأسرى والغنائم وتركها ورحل(29).

وفي عام (729/111م) اجتاح الخزر أراضي آذربيجان إلا أنهم هزموا، وفي العام ذاته عزل هشام مسلمة بن عبد الملك وأعاد الجراح بن عبد الله الحكمي لحكم أرمينيا بعد غياب عدة سنوات، وزحف الجراح على بلاد الخزر وفتح مدينة البيضاء، وحصل على غنائم كثيرة(30)، الأمر الذي دفع ملك الخزر للانتقام من المسلمين حيث قام الخزر عام113هـ/731م بأعنف وأقوى هجوم لهم داخل أراضي دولة الخلافة حيث هاجم جيش خزري ضخم – قُدر قوامه

ثلاثمائة ألف – منطقة آذربيجان تحت قيادة نارستيك ابن خاقان الخزر الذي اقتحم مناطق السيطرة العربية عبر مضيق داريل وعبر الران حتى وصل إلى اقليم أذربيجان شمال إيران الحالية وكان والي المنطقة الجراح بن عبد الله الحكمي الذي سلف له أن حارب الخزر لا يملك القوات الكافية لمواجهة ذلك الجيش الخزري فكتب إلى الخليفة لإرسال المساعدة اللازمة له، ولكن أمام تأخر وصول الإمدادات(31)، وبسبب تهديد الخزر لمدينة أردبيل عاصمة ولايته قرر النزول ومواجهة الخزر بالقوات التي معه المؤلفة من خمسة وعشرون ألف مقاتل، والتي كان الخزر يتفوقون عليها تفوقاً ساحقاً وجرت معركة غير متكافئة بين الفريقين قرب أردبيل تسمى معركة مرج أردبيل.

واستمر القتال يومين وأبيدت فيها القوات الأموية وفي مساء اليوم الثاني ومع حلول الظلام ترك كثير من المقاتلين في الجيش الأموي أرض المعركة ولاذوا بالفرار ولم يبقَ مع الجراح قوات كبيرة وفي اليوم الثالث قام الخزر بهجوم أخير فر الجنود الأمويون أمامه وحسب الرواية فان الجراح استطاع أن يوقف الفرار وأقنع المقاتلين بالقتال معه والموت في سبيل الله واستشهد الجراح نفسه في تلك المعركة وقام القائد الخزري بقطع رأسه ووضعه على رمح(32)، ولم ينجوا من المقاتلين العرب المسلمين في تلك المعركة إلا بضع مئات، وبعد ذلك قام الخزر بحصار أردبيل وأحاطوها بالمنجنيقات وبعد مقاومة قصيرة استسلمت المدينة وقام الخزر بقتل ما تبقى من المقاتلة فيها وسبي السكان، ثم استولوا على أذربيجان والران وتوغلوا في الأراضي الإسلامية(33)، ثم انطلقت وحدات من الجيش الخزري للقيام بغارات عميقة فوصلت إلى محيط الموصل وديار بكر(34).

في الواقع ترك مقتل الجراح والعديد من المسلمين بالغ الأثر لدى الخليفة هشام بن عبد الملك الأمر الذي دفعه إلى تكليف سعيد بن عمرو الحرشي بمهمة قتال الخزر والانتقام منهم(35)، والذي تمكن من استرداد عدداً من الحصون والقلاع التي احتلها الخزر ووصل إلى برذغة(36).

ثم عبر الحدود بين الخلافة ودولة الخزر قاصداً أردبيل، وأقام معسكر جيشه عند حصن باجروان(37)، ثم فاجأ الخزر بهجوم ساحق ليلاً نجح من خلاله من تحرير أسرى المسلمين وغنم الكثير من الأموال(38)، ومن ثم التقى المسلمون والخزر في منطقة برزند(39)، وكاد أن ينهزم المسلمون إلا أن الحرشي أخذ في رفع معنويات المقاتلين وتم لهم النصر على الخزر وتتبعوا فلول جيش الخزر حتى نهر الرس(40)، كما تمكن الحرشي من تحقيق نصر ساحق على جيش كبير للخزر عند نهر البيلقان، ومن ثم أمره الخليفة بالعودة وعين أخاه مسلمة بن عبد الملك على أرمينيا وآذربيجان(41)، بعد تولي مسلمة توجه نحو بلاد الخزر ووصل إلى مدينة الباب حيث عين عليها أحد القادة، وفي عام (113هـ/731م) تمكنت الجيوش الإسلامية من التقدم داخل بلاد الخزر وسيطروا على الكثير من الحصون والقلاع وخضعت لهم العديد من المناطق وراء بلنجر(42)، إلا أن الخزر أرادوا الانتقام وحشدوا جيوش كثيرة من خلال دعم المناطق الخاضعة لهم والتي تدين بالولاء لهم، في الوقت الذي عسكر فيه جيش المسلمين عند باب واق بالقرب من دربند وتحصن المسلمون خوفاً من هجمات ملوك المناطق المجاورة، ومن ثم ألتقى الجيشان المسلم والخزري وكان على رأس جيش المسلمين مروان بن محمد الذي عين عام 732–733م على ولاية أرمينيا وآذربيجان (ابن عم الخليفة هشام بن عبد الملك والخليفة المستقبلي الذي سيكون أخر الخلفاء الأمويين وسيقتل على يد العباسيين)، وقد حقق المسلمون في زمانه أهم إنجازاتهم، حيث أتى على كراديس(43) الخزر، وتمكن من قتل الكثير منهم وانتهت المعركة بانتصار المسلمين وتمكنوا من الوصول إلى مدينة دربند(44).

وكان داخل مدينة الباب قلعة فيها عدد من الخزر متحصنين بداخلها وعلى الرغم من كافة المحاولات لاقتحامها إلا أنها كانت من دون جدوى مما دفع إلى اتباع طريقة إفساد المياه الداخلة إلى القلعة من خلال ذبح الأغنام ورمي

مخلفاتها ودمائها في مجرى المياه الداخلة إلى القلعة فامتلأت صهاريج المياه، ومن ثم عمل على قطع المياه عنها مما جعل المياه فاسدة ومع حلول الليل فر من كان داخل القلعة وبذلك سيطر المسلمين عليها(45).

إلا أن الخزر استطاعوا إعادة السيطرة على المناطق التي كان المسلمون قد سيطروا عليها، مما جعل مروان بن محمد يتوجه بجيش مكون من أربعون ألف مقاتل واقتحم به أراضي دولة الخزر عبر مضيقي دربند وداريل واستولى على دربند وأطلق على هذه الغزوة غزوة الطين؛ فقد كان الشتاء والأمطار والأوحال كثيرة(46).

وخلال الصراع الإسلامي الخزري عقد البيزنطيون حلفاً مع الخزر ضد المسلمين من خلال زواج سياسي بين ابن الإمبراطور البيزنطي ليو الأيسوري قسطنطين الخامس وأميرة خزرية(47)، والذي كان الهدف منه وقف تقدم الجيوش الإسلامية والقضاء عليها.

كان مروان بن محمد قد توجه على رأس جيش مكون من مائة وعشرون ألف نحو بلاد الخزر، وقرر التقدم حتى مدينة اللان، ونجح سنة (119هـ/737م) من الوصول إلى مدينة سمندر، بعد ذلك تصدى مروان بن محمد لقوة من الخزر مكونة من أربعين ألف مقاتل سقط منها عشرة آلاف وأسر سبعة آلاف وتمكن ما تبقى الفرار إلى الجبال والوديان المجاورة، وتابع مروان تقدمه في بلاد الخزر حتى تمكن من السيطرة على صحراء الخزر وكافة قلاع وجبال دربند(48)، وقد أدت الهزائم التي لحقت بالخزر من قبل مروان بن محمد إلى إعلان خاقان الخزر إسلامه(49)، إلا أن الخزر ظلوا على ديانتهم التي اعتنقوها خلال القرن الثامن الميلادي وهي اليهودية(50)، التي بقيت ديانتهم الرسمية حتى نهاية دولتهم.

بعد الانتصار الأخير الذي حققه المسلمون على الخزر عام (119هـ/737م) دخل المسلمون حقبة من الفتن والنزاع على الخلافة أدت إلى أضعاف الحافز لدى المسلمين للجهاد في منطقة القوقاز فمنذ عهد الخليفة هشام بن عبد الملك إلى سقوط الدولة الأموية سنة (132هـ/750م) لم تقدم المصادر الإسلامية أي أحداث جديدة دارت بين المسلمين والخزر، ويعود ذلك إلى حالة الفوضى والصراعات والفتن التي ألمت بالأمويين والتي أدت إلى نهاية حكمهم وتولي العباسيين مقاليد الخلافة.

العلاقات الخزرية الإسلامية خلال العصر العباسي الأول:

فقدت الحروب الإسلامية الخزرية قوتها السالفة بعد وصول العباسيين لحكم المسلمين، فلم تتسع رقعة الدولة الإسلامية خلال حكمهم، ولم يكن لدى العباسيين رغبة في توسيع حدود دولتهم وإنما الحفاظ عليها وتأمينها من الأخطار الخارجية، فلم تكن سياسة العباسيين توسعية بخلاف الأمويين، وكان لنقل العباسيين عاصمتهم من دمشق إلى بغداد دوراً في تخفيف الضغط الإسلامي عن الخزر على خلاف الأمويين الذين كانت عاصمتهم دمشق على مقربة منهم وبالتالي كان الضغط الإسلامي على مملكة الخزر أشد، ومع تولي الخليفة أبو جعفر المنصور (136-158هـ/754-775م) قام بتعيين أسيد بن زافر السلمي على ولاية أرمينية وكانت أوامره بالتقارب مع الخزر والدخول معهم في علاقات سلمية من خلال زواج سياسي(51)، وذلك لدرء خطر الخزر، وكان رداً على التحالف الذي عقده البيزنطيين مع الخزر من خلال زواج قسطنطين الخامس من أميرة خزرية للتحالف ضد المسلمين سنة (114هـ/732م) إلا أن هذا التحالف بين المسلمين والخزر انتهى مع موت الأميرة الخزرية مما جعل الخزر ينتفضون على المسلمين ويشنون الهجمات عليهم والذي أدى إلى هزيمة المسلمين، وفي سنة (145هـ/762م) شن الخزر هجوم عنيف على المسلمين في منطقة دربند وقتلوا الكثير من المسلمين في أرمينيا بلغ عددهم حوالي خمسين ألف مقاتل(52).

لقد كانت جميع الحروب التي شنها العباسيين على الخزر والبيزنطيين في منطقة القوقاز فقط من أجل دفع الخطر واجبارهم على احترام المعاهدات ودفع الجزية وليس الهدف منها هو التوسع في تلك المناطق على خلاف الأمويين، الأمر الذي دفع الخزر إلى القيام بهجوم عنيف على أرمينيا في عهد الخليفة هارون الرشيد (170-193هـ/786-809م) وأنزلوا بالمسلمين هزيمة قاسية، ودمروا وحرقوا وسبوا النساء(53)، مما دفع الخليفة العباسي إلى إرسال قوة إسلامية استطاعت إخراج الخزر من منطقة دربند بعد خسارتهم العديد من الرجال(54)، وكان من أسباب شن الخزر غارتهم على المسلمين هو مقتل النجم بن هاشم حاكم دربند مما دفع ابنه حيون بن النجم بطلب قدوم ملك الخزر بجيشه مقابل الحصول على الغنائم(55)، وكان من أسباب شن الغارة هو فشل محاولة التحالف بين الخزر والمسلمين من خلال زواج وزير هارون الرشيد الفضل بن يحيى البرمكي بابنة ملك الخزر ستيت. وتوفيت مسمومة وهي حامل في برذغة، وعاد الجنود الذين كانوا مع بنت الملك إلى ملك الخزر وأخبروه بذلك، ورد الملك على هذا بمهاجمة المسلمين وأسر ما يقرب من مائة ألف من المسلمين، ورد الخليفة هارون الرشيد على هذا بأن أرسل قائد جنوده يزيد إلى الخزر، ونجح يزيد في إخراج الخزر من أرمينيا وكانت العداوة والحروب المتكررة بين المسلمين والخزر تصب في مصلحة الإمبراطورية البيزنطية.

ولم تتحدث أي مصادر عربية عن وقوع حروب بين العرب والخزر بعد ذلك، وبذلك تنتهي الحروب التي قام بها المسلمون لنشر الإسلام في جنوب القوقاز، وفيما بعد قام الخليفة العباسي الواثق بالله (227-232هـ/842-847م) بإرسال سلام الترجمان لكشف معلومات عن سد يأجوج ومأجوج حيث تراءى للخليفة أن السد الذي بناه الإسكندر ذو القرنين بين دار المسلمين ودار يأجوج ومأجوج قد انفتح فأمر سلام بتفقد السد، وقد مر على بلاد الخزر وأرسل معه ملك الخزر خمسة أدلاء، وتدل رحلة سلام على وجود علاقات بين الخزر والخلفاء المسلمين خلال تلك الحقبة(56).

خاتمة

كانت مملكة الخزر بعد انتشار الإسلام ووقوع كثير من مناطق القوقاز تحت مظلة الإسلام تلاصق حدود المسلمين، وتقترب من مناطق فتوحاتهم لنشر الإسلام، وقد نتج عن الحروب بين الخزر والمسلمين التي امتدت أكثر من قرن من الزمان نجاح الخزر في الحد من الهجوم الإسلامي على شرق أوربا، ومنع الخزر من التوسع على حساب المسلمين من جهة أخرى.

لقد أثبت الخزر بأنهم قوة لا يستهان بها حيث كانوا الحد والحصن الرئيسي أمام توسعات المسلمين في منطقة القوقاز، ولو قدر للمسلمين السيطرة على مملكة الخزر والقضاء عليها لنفذوا إلى أوربا، ولتغير تاريخ أوربا وخريطتها تماماً عما هو معروف اليوم.

وقد سعت كلاً من الإمبراطورية البيزنطية والخلافة الإسلامية إلى تدعيم السلام مع الخزر وسبب ذلك يعود إلى موقع مملكة الخزر الجغرافي المميز، لذلك سعا كل طرف إلى جذب الخزر من خلال نشر الديانة أو من خلال الزواج السياسي أو الحروب واستخدام الدبلوماسية.

تمتعت مملكة الخزر باستقلالية تامة وبتجارة وجيش قوي، ولم تبقَ على الديانة الوثنية فاعتنقت اليهودية، على الرغم من محاولات بيزنطة استقطاب شعبها لاعتناق المسيحية.

الهوامش

[1]- 5 Dunlop (D.M.): The History of the Jewish Khazars Princeton,1954.
[2]- Sinor (D): Art Khazars, in the New Ency, Britanica (London, 1973), Vol, V, P. 788.
3-Ostrogorsky, the Byzantine Empire, p.55.
[4]- Koesther (A): the thirteenth tribe the Khazar Empire and its Heritage, (London, 1976), pp.13-14.

[5] – قزويني: (ت750هـ/1349م) حمد الله بن أبي بكر بن أحمد بن نصر مستوفي، تاريخ كذيذة، مجـ1، دار السلطنة، لندن،عام 1910م.، جـ1، صـ180. .

[6] – موقان: ولاية فيها قرى ومروج كثيرة يسيطر عليها التركمان ويستخدموها للرعي، فأغلبية الأهالي داخلها من التركمان. ياقوت: (ت626هـ/1229م) شهاب الدين أبو عبد الله الحموي، معجم البلدان، جـ8، صـ199.

[7] – الطبري: (ت310هـ/922م) أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، عام 1980م.، ج 4 صـ 154 و155 و156 و157

[8] – البيضاء: مدينة داخل بلاد الخزر وتقع خلف مدينة باب الأبواب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ2، صـ336.

[9] الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج 4 صـ158./ ابن الأثير: (ت630هـ/1233م)، أبو الحسن علي أبي الكرم محمد بن عبد الكريم الجزري، الكامل في التاريخ، جـ3، بيروت، عام 1970م، صـ15./ ابن كثير: (ت774هـ/1372م) أبو الفداء إسماعيل بن عمر الحافظ، البداية والنهاية، جـ7،، ط1، عام 1933م، صـ136.

[10] – محمود شيت خطاب: قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، مج1، ط1، دار ابن حزام، عام 1988م.، صـ64./ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ 3، صـ 29.

[11] الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ4، صـ304–305./ ابن أعثم:(ت314هـ/926م)، العلامة أبي محمد أحمد الكوفي، كتاب الفتوح، إشراف: محمد عبد المعين خان، ج8، ط1، دار الندرة الجديدة، بيروت، عام 1975م، صـ111–114./ البلاذي: (ت279هـ/892م)، أحمد بن يحيى بن جابر، فتوح البلدان، بيروت، عام 1983م، صـ206./ ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ2، صـ278.

[12] جيلان: اسم لبلاد كثيرة من وراء بلاد طبرستان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ3، صـ75.

[13] جرجان: مدينة مشهورة بين طبرستان وخرسان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ3، صـ194.

[14] Art, Khazar, in Ency, Judaica, Vol, x, p. 945.

[15] Sinor: Art, Khazar in the New Ency, Britt, Vol, p. 788./ المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، جـ1، صـ153.

[16] Lewis: Naval power and Trade in the Mediteranean AD 500-1100, p. 16.
Ostrogorski: History of the Byzantine state, p. 111.
Vasiliev: A History of the Byzantine Empire, VOI, I, P. 214.
Oman: The Byzantine Empire, pp. 170-171.
Diehl: Historie De L Empire Byzantine, p. 53.
Vasiliev: Histoire De L Empire Byzantine, T, I, p. 283.
سعيد عبد الفتاح عاشور: أوربا العصور الوسطى، جـ1، التاريخ السياسي، القاهرة، عام 1975م، صـ133.

[17]Ostrogorski: op, Cit, p.112.

[18] أومان (شارل): الإمبراطورية البيزنطية، تر: مصطفى طه بدر، القاهرة، عام 1953م.، صـ134.

[19]Dunlop: THE History of the Jewish Khazars, p.59-60.

[20] ابن أعثم: كتاب الفتوح، جـ6، صـ293-294.

[21] ابن أعثم: كتاب الفتوح، جـ6، صـ295-297.

[22] Dunlop: op, Cit, p.60.

[23] الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ6، صـ454./ Dunlop: op, Cit, p.60-61.

[24] البلاذي: فتوح البلدان، صـ208./ اليعقوبي: (ت284هـ/897م) أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن واضح، تاريخ اليعقوبي، جـ2، بيروت، بد ت، صـ313.
[25] برذغة: مدينة في أقصى أذربيجان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ2، صـ119.
[26] الكر: نهر يفصل بين أرمينيا وأران ويشق مدينة تفليس. ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ7، صـ237.
[27] ابن أعثم: كتاب الفتوح، جـ8، صـ29-31./ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ4، صـ186-187.
النويري: (ت733هـ/1332م) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب الكندي، نهاية الأرب في فنون الأدب، جـ21ـ، تح: محمد البجاوي، القاهرة، عام 1976م، صـ382-383.
[28] الذهبي: (ت748هـ/1347م) شمس الدين محمد بن أحمد، دول الإسلام، تح: فهيم محمد شلتوت، القاهرة، عام 1974م.، جـ1،صـ75.
[29] الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ7، صـ54./ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ4، صـ205.
[30] فتحي عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، الكتاب الأول والثاني، القاهرة، عام 1966م.، جـ2، صـ101.
[31] ابن الأعثم: كتاب الفتوح، جـ8، صـ38-40.
[32] الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ7، صـ70./ اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، جـ2، صـ313.
Glubb: The Empire of the Arabs, p. 183.
Pritsak: Art, Khazar, in Dictionary of the Middle Ages, Voi, 7, p.241.
Koestler: op. Cit, p. 29.
Shaban: op. Cit, VoI, I, p. 144.
[33] قزويني: (ت750هـ/1349م) حمد الله بن أبي بكر بن أحمد بن نصر مستوفي، تاريخ كذيذة، مج1، جـ1، دار السلطنة، لندن، عام 1910م، صـ281.
[34] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ4، صـ207.
[35] ابن الأعثم: كتاب الفتوح، جـ8، صـ42-44.
[36] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ4، صـ453.
[37] باجروان: مدينة من نواحي باب الأبواب قرب شروان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ2، صـ24.
[38] دحلان: الفتوحات الإسلامية، جـ1، صـ173./ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ4، صـ208.
[39] برزند: بلد من نواحي تفليس من أعمال جرزان من أرمينيا. ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ2، صـ124.
[40] ابن الأثير: الكامل في التاريخ،ـ جـ4، صـ208.
[41] النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، جـ21، صـ417./ ابن أعثم: كتاب الفتوح، جـ8، صـ55-57.
[42] ابن كثير: البداية والنهاية، جـ9، صـ342./ حمد الله قزويني: تاريخ كذيذة، جـ1، صـ282./ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ7، صـ71./ Glubb: op. Cit, p. 183.
ذكر ابن قتيبه أن مسلمة تقابل سنة (113هـ/ 731م) مع خاقان ملك الترك فقتله وبنى الباب. كتاب المعارف، صـ365.
[43] كراديس: مفردها كردوس، وهو القطعة العظيمة من الخيل ويقال كردوس القائد خيله أي جعل الجيش على شكل كتائب.
الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ3، صـ396.
[44] ابن أعثم: كتاب الفتوح، جـ8، صـ62-68.
[45] البلاذي: فتوح البلدان، صـ209.
[46] ابن أعثم: كتاب الفتوح، جـ8، صـ69-70./ Dunlop: op, Cit, p.80.
[47] Bury: History of the Eastern Roman Empire, p. 407.
Ostrogrski: op, Cit, p. 139.
[48] حمد الله قزوبني: تاريخ كذيذه، جـ1، صـ282.

[49] Bury: op, Cit, p. 407.
Art, Khazar, in Ency, Judaica, VoI, x, p.946.
Hudud Al Alam, p. 201.
[50] بارتولد (و): تاريخ الترك في آسيا الوسطى، تر: أحمد السعيد سليمان، القاهرة، عام 1958م، صـ63.
[51] البلاذي: فتوح البلدان، صـ211.
[52] الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ7، صـ149./ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ10، صـ96.
[53] الذهبي: دول الإسلام، جـ1، صـ117./ ابن أعثم: كتاب الفتوح، جـ8، صـ256-259./ فتحي عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية، جـ2، صـ 164./ Dunlop: op, Cit, p. 184/Bury: op, Cit, p. 408./ Glubb: op, Cit, p. 275.
[54] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ5، صـ 107-108.
[55] اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، جـ2، صـ427./ ابن أعثم: كتاب الفتوح، جـ8، صـ257-258.
الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ8، صـ270./ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ5، صـ107-108.
النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، جـ22، صـ133./ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، صـ 253.
[56] ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، صـ270-278./ المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، صـ361-364.
ابن خرد ذابة: المسالك والممالك، صـ162-165.

1- Encyclopaedia Judaica: Art, Khazar, voI, x, Jresalem, 1974.
2- Lewis (A,R): Naval power and Trade in the Mediterranean A,D, 500-1100, New Herssey, 1951.
3- Ostrogorsky (G): History of the Byzantine state Eng, Trans, J. Hussey, Oxford, 1957.
4- Sinor (D): Art Khazars, in the New Encyclonaedia Britannica, VoI, V, London, 1974.
5- Vasiliev (A, A): History of the Byzantine Empire VoI, I, Madison, 1958.
6- Vasiliev (A, A): History de L Empire Byzantine, Tom, I, Paris, 1932.
7- Oman (C, W): The Byzantin Empire, New York, 1892.
8- Diehl (C): Histoire De L Empire Byzantin, Paris, 1920.
9- Dunlop (D. M): The History of the Jewish Khazars, Princenton, 1954.
10-Dunlop (D. M): Art, Khazar, in Encyclopaedia Judaic, VoI, 10, Jresalem, 1974.
11-Patrologia Orientalis,Paris, 1911.
12-Glubb (S. j): The Empire of the Arabs, London, 1963.
13-Pritsak (O): Art Kazars in Dictionary of the middle ages VoI, 7, New York, 1986.
14-Koestler (A): The thirteenth tribe the Khazar Empire and its Heritage, London, 1976.
15-Shaban (M. A): Islamic History a new interpration, VoI 2. A. D. 750-1055, A. H, Cambridge, 1981.
16- Koesther (A): the thirteenth tribe the Khazar Empire and its Heritage, London, 1976.
17- Lewis (A. R): Naval power and Trade in the Mediteranean AD 500-1100, New Herssey, 1951.
18- Pritsak (O): Art, Khazar, in Dictionary of the middle Ages, Voi, 7, New York, 1986.
19- Bury (J. B): A History of the Eastern Roman Empire, London, 1912.

1 - Ibn Ithtam: (T 314 AH / 926 AD) Allama Abu Mohammed Ahmed Al-Kufi, *The book Al-Fotouh*, the supervision of Mohammed Abdul Moeen Khan Part 8, 1st e.d., Dar Al-Nadra, Beirut, 1975.
2 - Ibn al-Atheer: (630 AH / 1233 AD) Abu al-Hassan Ali Abi Karam Mohammed bin Abdul Karim al-Jazari, *Al-Kamel in history*, 12 parts, Beirut, 1970.
3 - Bakri: (487 AH / 1094 AD) Abdullah bin Abdul Aziz, *Al-Masalek wa al-Mamalek*, Petersburg, in 1878.
4- Al-Baladhi (279 AH / 892 CE) Ahmed bin Yahya bin Jaber, *Fattouh al-Baladin*, Beirut, 1983.
5 - Ibn Khrdazbeh: (300 AH / 912 AD) Abu al-Qasim Obaidullah bin Abdullah, *Al-Masalek wa al-Mamalek*, 1889.
6- Al-Dinuri: (282 AH / 895 AD) Abu Hanifa Ahmed bin Dawood, *Al-Akhbar al-Tiwal*, I: Abdul Moneim Amer, Muthanna Library, Baghdad, 1959.
7 – Al-Zahabi: (748 AH / 1347 AD) Shams al-Din Mohammed bin Ahmed, *The Countries of Islam*, I: Fahim Mohammed Shaltout, two parts in one volume, Cairo, 1974.
8 - Tabari: (310 AH / 922 AD) Abu Jaafar Mohammed bin Jarir, *The history of the Apostles and Kings*, I: Mohammed Abu Fadl Ibrahim, 10 parts, Beirut, 1980.
9- Ibn al-Abri (685 AH / 1286 AD) Gregory the Maltese, *A Brief History of States*, Catholic Press of the Jesuit Fathers, Beirut, 1890.
11 - Ibn Katheer: (774 AH / 1372 AD) Abu Fidaa Ismail bin Omar Al-Hafiz, *The Beginning and The End*, Part 7,9,10, 1st e.d. , 1933.

12 - Al-Masoudi: (346 AH / 957 AD) Abu Al-Hassan Ali bin Hassan bin Ali, *Murooj al-Zahab wa Ma'aden al-Jawhar*, two parts, I: Mohammed Mohiuddin Abdul Hamid, the Book of Tahreer, in 1966.
13 - Maqdisi: (387 AH / 997 AD) Shams al-Din Abdullah Mohammed al-Bashari, *Ahsan al-Takaseem fi Ma'arefat al-Akhaleem*, Brill Press, Leiden, 1906.
14 - Nuwairi: (733 AH / 1332 AD) Shihab al-Din Ahmed bin Abdul Wahab Al-Kindi, *Nihayet al-Irab fi funun al-Adab*, part 19, I: Mohammed Abul Fadl Ibrahim, Cairo, 1975, part 21, I: Mohammed Bejaoui, Cairo, 1976, part22 , Open: Mohamed Gaber Abdel Aal Al-Hini, Cairo, 1984.
15 - Yakut: (626 AH / 1229 AD) Shihab al-Din Abu Abdullah al-Hamwi, Dictionary of Countries, 10 parts.
16 - Yacoubi: (284 AH / 897 AD) Ahmed bin Abi Yacoub bin Jaafar bin Wadeh, *The History of Yacoubi*, part 2, Beirut.
17 - Ibn al-Wardi: (749 AH / 1349 AD) Abu Hafs Omar bin Muzaffar bin Omar, Khiraid Ajayeb and Fareedat al-Ghar'ab, I: Ahmed Refaat Badrawi, Beirut, in 1970.
18. Oman (Charles): *Byzantine Empire*, Tr: Mustafa Taha Badr, Cairo, 1953.
2 - Barthold (W): *The History of Turk in Central Asia*, tr: Ahmed Said Solomon, Cairo, in 1958.
3 - Said Abdel Fattah Ashour: *Medieval Europe*, Part 1, political history, Cairo, 1975.
4 - Dahlan (Ahmad Zaini): Islamic Futuhat after the Advent of the Prophet's Futuhat, two parts in one volume, 1st e.d., Egypt, 1905.
5 - Fathi Othman: *The Islamic Byzantine Frontier between Military Friction and Cultural Communication*, Book I and II, Cairo, 1966.
6 - Mahmoud Shit Khattab: Leaders of the Islamic Futuhat in Armenia, vol 1, 1st e.d., Dar Ibn Hizam, 1988.

Persian Sources:

1 - Qazwini: (750 AH / 1349 AD) Hamdallah bin Abi Bakr bin Ahmed bin Nasr mestawfi. A History of Khazeeza, Vol. 1, Dar Al-Sultanah, London, 1910.

Conditions of the Mora Peninsula between the years (1382-1460)

Dr. Suhail Zoukar •
Nadeem khalil laika •*

(Received 7 / 7 / 2019. Accepted 8 / 9 / 2019)

□ ABSTRACT □

The Mora peninsula was one of the Byzantine regions occupied by the Crusaders in the fourth Crusade and the Byzantines regained their influence following the victory of Micheal VIII Palaiologos (1259-1282) over William II Villehardouin (1246-1278 AD) In the year 1259 AD, since the end of the fourth Crusade, the Mora peninsula had witnessed the establishment of a number of Latin Americans in the region. The Venetian ruled various parts of the Peloponnese. The Byzantines gave great importance to it and made it autonomous. However, their aspirations collided with the Ottoman ambitions and the Latins In particular the state of internal rebellion by the aristocratic landowners, which forced the inhabitants of the Mora peninsula to adapt to the situation of the power struggle surrounding it to control the area of the Peloponnesis. Therefore, their policy varied and changed towards those forces, And the subsequent dependence and hostility and confrontation, which led to the weakness of the region and the lack of resources due to the proliferation of foreign wars and internal rebellions, in addition to other factors related to the nature of the Turkish invasion on the one hand and the turbulent conditions suffered by the Byzantine Empire on the other hand, T ultimately fell to the Ottomans.

• **Professor, Department of History, University of Damascus, Damascus, Syria.**
•* **Postgraduate student (PhD) - Department of History - University of Damascus - Damascus - Syria.**

أوضاع شبه جزيرة المورة
بين عامي (1382-1460م)

د. سهيل زكار●

نديم خليل لايقة●●

(تاريخ الإيداع 7 / 7 / 2019. قبل للنشر في 8 / 9 / 2019)

□ ملخّص □

كانت شبه جزيرة المورة من المناطق البيزنطية التي احتلها الصليبيون في الحملة الصليبية الرابعة واستعاد البيزنطيون نفوذهم فيها عقب الانتصار الذي حققه ميخائيل الثامن باليولوجس Micheal VIII Palaiologos (1259-1282م) على أمير آخيا وليم فلهاردوينWilliam II Villehardouin (1246-1278م)، وذلك خلال معركة بلاجونيا عام 1259م، وكانت شبه جزيرة المورة منذ نهاية الحملة الصليبية الرابعة، شهدت إنشاء عدد من الإمارات اللاتينية في المنطقة، وسيطرت البندقية على أجزاء مختلفة من البيلبونيز، وقد أعطى البيزنطيون أهمية كبيرة لها، وجعلوا فيها حكم ذاتي إلا أن طموحاتهم اصطدمت مع الأطماع العثمانية واللاتينية للسيطرة على تلك المنطقة، ولا سيما حالة التمرد الداخلية من قبل ملاك الأراضي الارستقراطيين، مما حتم على سكان شبه جزيرة المورة التكيف مع تلك الحالة من صراع القوى الدائرة من حولها للسيطرة على منطقة البيلبونيز، لذا تنوعت سياستهم وتبدلت تجاه تلك القوى فتأرجحت ما بين الخضوع والتبعية حيناً والعداء والمجابهة حيناً آخر، مما أدى إلى ضعف المنطقة وقلة مواردها نتيجة لكثرة الحروب الخارجية والتمردات الداخلية، وذلك بالإضافة إلى عوامل أخرى تتعلق بطبيعة الغزو التركي من جهة وبالأحوال المضطربة التي كانت تعاني منها الإمبراطورية البيزنطية من جهة أخرى، التي أدت في نهاية الأمر إلى سقوطها بيد العثمانيين.

● أستاذ-قسم التاريخ-جامعة دمشق-دمشق-سورية.

●● طالب دراسات عليا (دكتوراه)- قسم التاريخ- جامعة دمشق-دمشق-سورية.

مقدمة:

كانت شبه جزيرة المورة منذ نهاية الحملة الصليبية الرابعة، شهدت إنشاء عدد من الإمارات اللاتينية في المنطقة، وسيطرت البندقية على أجزاء مختلفة من البيلبونيز، وأصبح عدم الاستقرار السياسي سمة ثابتة تتميز به تلك المنطقة، وكان الإمبراطور يوحنا كانتاكوزين John VI Kantakouzenos (1347-1354م) قد أعطى المورة أهمية كبيرة وجعل بها حكم ذاتي، وعمل على تعيين ابنه مانويل Manuel (1348-1380م)، حاكم عليها والذي استطاع بدوره أن يثبت حكمه فيها من خلال الحد من سلطة ملاكي الأراضي فيها، كما استطاع إقامة جو من المودة والتوافق مع اللاتين في المناطق المجاورة والذي أفضى بدوره إلى تشكيل تحالف لاتيني بيزنطي قاد بدوره للانتصار على العثمانيين في معركة ميجارا Megar الواقعة إلى الغرب من أثينا Athena وبذلك حافظت المورة على استقرارها حتى وفاة مانويل عام 1380م.

وقد أدى موت مانويل إلى انتشار الفوضى وعدم الاستقرار في المورة نتيجة إعلان البارونات تمردهم على خليفته متى كانتاكوزين Matthew 1380-1383م، الذي كان كبير في العمر ولم يكن باستطاعته إحكام السيطرة على الأوضاع، الأمر الذي دفع يوحنا الخامس باليولوجس John V Palaliologos 1341-1391م، إلى إحكام سيطرته على المورة خوفاً من استعادة سيطرة اللاتين عليها أو وقوعها بيد العثمانيين، لذلك عمل على تعيين ابنه تيودور الأول باليولوجوس Theodore. I Palaiologos حاكماً على المورة لإعادة السيطرة ونشر الاستقرار فيها.

وعلى الرغم من كل محاولات البيزنطيين الحفاظ على شبه جزيرة المورة تحت سيطرتهم إلا أن تزايد الحصار البيزنطي وتحريض البندقية على التمردات الداخلية والصراعات الداخلية بين حكام المورة كل ذلك مهد الطريق لسقوط المدينة بيد العثمانيين.

اشكالية البحث:

شهدت شبه جزيرة المورة دون غيرها من أجزاء الامبراطورية البيزنطية خلال العقود الأخيرة من عمر الامبراطورية حالة من الهدوء والاستقرار ساعدت على قيام نهضة سياسية وحضارية بها، وأخذ حكامها في طرح النظريات التي تهدف إلى الدعم الاقتصادي للمورة وبناء جيش وطني قوي من أجل درء الخطر العثماني الزاحف نحو البيلوبونيز.

لذلك من الضروري دراسة الظروف الاجتماعية في المورة منذ إنشاء آل باليولوجيس حكمهم هناك في عام 1382م، مع إيلاء اهتمام خاص لعلاقات الأرستقراطية المالكة للأراضي مع حكام المورة البيزنطيين من خلال هذا الفحص للظروف الداخلية السائدة في المورة بين عامي (1382 و 1460م)، سيكون من الممكن تكوين فهم أفضل للمواقف السياسية لسكان شبه جزيرة المورة نحو العثمانيين واللاتينيين ، ومتابعة التقلبات في السياسة الخارجية المتبعة من قبل الحكومة في ميسترا خلال هذه السنوات.

أهمية البحث وأهدافه:

تأتي أهمية البحث أوضاع شبه جزيرة المورة بين عامي(1382-1460م) كونه يسلط الضوء على الهيكل الاجتماعي-السياسي والاجتماعي-الاقتصادي لشبه جزيرة المورة، الذي أعطى فرصة للمنافسات المستمرة بين الأرستقراطية المحلية

والحكومة المركزية، والتي شغلت دوراً بارزاً في الخيارات والمواقف السياسية التي كان يتخذها الناس فيما يتعلق بالقوى الأجنبية الخارجية.

منهجية البحث:

للإجابة على هذه التساؤلات والإلمام بجوانب الموضوع، سيتم إتباع المناهج العلمية الموضوعية استناداً إلى الوثائق والمصادر المعتمدة العلمية المتوفرة التي تخص البحث، والموجودة في المصادر والمراجع المتعلقة بتاريخ الإمبراطورية البيزنطية والعثمانية بشكل عام، ومنطقة البيلبونيز بشكل خاص، ودراستها وتحليلها بطريقة تفيد إيضاح حالة الصراع التي كانت قائمة في منطقة البيلبونيز خلال تلك المرحلة، وعلى أساس أن التاريخ خبر ورؤية.

أولاً: الأوضاع داخل شبه جزيرة المورة بين عامي 1382-1407:

شهدت السنوات التي سبقت عام 1380م ظهور قوة جديدة شكلت تهديداً حقيقياً لشبه جزيرة المورة Morea- متمثلة بالنافاريين Navarrese – الذين بدأوا بشن غارات مستمرة عليها، وعملوا على تحريض ملاك الأراضي داخلها للثورة والعصيان ضد حاكم الجزيرة البيزنطي متى كانتاكوزين 1380-1383م، شقيق مانويل الأكبر Matthew، والذي تولى حكم شبه الجزيرة خلال الحقبة الفاصلة بين وفاة مانويل في نيسان عام1380م، ووصول تيودور الأول باليولوجوس في شتاء عام 1382-1383م، حيث كان متى كانتاكوزين طاعناً في السن وغير قادر على ضبط الأوضاع داخل حدود الجزيرة، مما جعل الآمال تتعلق بالحاكم تيودور الأول لاستعادة الاستقرار في المورة[1].

إضافة إلى التهديد الذي شكله النافاريين كانت شبه جزيرة المورة مركزاً لتنافس وصراع عدة قوى تطمع في السيطرة عليها منها كورنثة، وأثينا، والقطلان Catalan، والبنادقة، والعثمانيين الذين كانوا يرغبون في مد سيطرتهم على كامل البلقان والبيلوبونيز، وفي هذا الوقت الحرج الذي كانت المورة بأمس الحاجة للمساعدة العسكرية ضد أعدائها كانت الاتصالات مع القسطنطينية منقطعة والتي كانت تعاني من صراعات واضطرابات داخلية[2].

هكذا كانت الأوضاع العامة في شبه جزيرة المورة مع وصول تيودور الأول باليولوجوس (1383- 1407م)، فإنه خلال معركة قوات تيودور ضد النافاريين، تم العثور على العديد من الأرستقراطيين اليونانيين يقاتلون إلى جانب العدو، وبالتالي فمن الواضح أن معارضة بعض أعضاء الأسر الأرستقراطية المحلية لتيودور الأول وتعاونهم مع النافاريين، قد أطال أمد الحرب الأسرية، التي بدأت منذ أوائل عام 1380م، والتي يبدو أن ملاك الأراضي في المنطقة وجدوا فيها أداة مناسبة لتعزيز استقلالهم عن السلطة المركزية التي يمثلها الحاكم تيودور الأول[3].

لم يكن لدي تيودور لمواجهة أعدائه الداخليين والخارجيين خلال السنوات الأولى من حكمه، ما يكفي من المال والعتاد العسكري؛ بسبب الحرب الأهلية، ولذلك على الفور سعى في البداية إلى استرضاء الطبقة الأرستقراطية من خلال منحهم أراضي جديدة، من أجل تعزيز السلام ووضع حد للخلاف السائد ، وفي الوقت نفسه تحالف مع نيري أكيايولي Neri Acciajuoli دوق كورنثة 1371-1394م، الذي كان لديه عدو مشترك وهم النافاريين إلا أن أكيايولي لم يشارك في القتال ضد النافاريين خشية إثارة غضبهم، فهو كان يرغب في التحالف معهم ضد القطلان لرغبته في

طردهم من أثينا والسيطرة عليها[4]، وعندما لم يثبت هذا التحالف ثماره بالنسبة لتيودور، ناشد البندقية في العام التالي للمساعدة ضد أعدائهم النافاريين والعثمانيين.

على الرغم من عرض تيودور بالتنازل عن بعض أراضيه في منطقة المورة لصالح البندقية مقابل المساعدة ضد النافاريين، فقد رفض مجلس الشيوخ داخل البندقية ذلك العرض خوفاً من رد فعل النافاريين في قيامهم ببيع ميناء نافارينو Navarino في البيلوبونيز إلى جنوة، والذي سيكون ضاراً جداً بالمصالح البندقية.

نتيجة الإحباط الذي أصاب تيودور من عدم جدوى نهجه السلمي تجاه رعاياه الأرستقراطيين الذين استمروا في تمردهم وتعاونهم مع النافاريين وغيرهم من القوى الأجنبية، ونتيجة عدم قدرته على مواجهة المطامع اللاتينية، وعدم قدرته على الحصول على دعم من البندقية دفع تيودور خلال السنة الخامسة من حكمه لطلب المساعدة من العثمانيين.

يبدو أن تيودور لم يلجأ إلى السلطان مراد الأول، وعقد تحالف رسمي معه إلا عندما وجد أن قائد الجيش العثماني إورينوس بك Evrenos Beg، ورجاله قد ألحقوا من الخراب والدمار في أراضي أتباعه ورعاياه أكثر مما ألحقوه بأعدائهم من القوات النافارية والأرستقراطيين اليونانيين الذين كان في صراع معهم[5].

قد يكون قرار تيودور الأول بتقديم ولاءه لمراد الأول في هذا الوقت قد تأثر بالسيطرة العثمانية على مدينة سالونيك، كما هو حال شقيقه مانويل الثاني، الذي تبنى من جانبه بعد سقوط سالونيك سياسة تصالحية تجاه السلطان العثماني، وبدأ تيودور نتيجة الدعم العثماني له في تأكيد سلطته على البيلوبونيز كما شرع في اتخاذ تدابير قمعية ضد رعاياه المتمردين على سلطته.

كان على تيودور أن يتحمل نتائج الارتجالية والتخبط في إدارته لحكم المورة، فسياسة التنقل من حليف لآخر، والتي وصلت به إلى حد التحالف مع العثمانيين حتمت عليه دفع الثمن للعثمانيين، ومع تعدد شكوى أمراء اللاتين لدى السلطان العثماني بايزيد الأول التي لجأت إليه للفصل في النزاع الذي نشب بينهم وبين تيودور حيث نصب بايزيد نفسه حكماً بين أمراء المورة ودعا الجميع للحضور في مدينة سيرس Seress في ربيع عام 1394م[6]، وقد لبى الدعوة كل من الإمبراطور مانويل وشقيقه تيودور وأمراء اللاتين[7]، وخلال ذلك ضغط السلطان بايزيد على تيودور أن يكف عن ممارساته العدائية وتهديداته لأمراء اللاتين، ومطالبته أيضاً بالتنازل عن بعض أملاكه ولكن تيودور رفض وفر هارباً[8]، وتحصن داخل المورة تحسباً لأي هجوم عثماني عليه، وطلب المساعدة من البندقية التي رحبت بذلك وقد تقدم بايزيد في ذلك الوقت واحتل كلاً من لمنوس وتساليا، وأجل تأديب تيودور على هروبه واتجه إلى ما هو أكثر أهمية وهو حصار القسطنطينية[9].

وقد رأى السلطان بايزيد أن الأمر يتطلب التصرف بحزم حيال خداع تيودور وفراره من سيرس، فبادر بأرسال جيش كبير بقيادة إورينوس بك الذي وصل إلى البيلبونيز م نهاية عام 1394م ومطلع 1395م، وقد انضم إليه جماعة النافاريين العدو التقليدي لتيودور الأول. وتمكنوا من هزيمة قواته أسفل أسوار كورنثه، كما قاموا بالاستيلاء على بعض الحصون البيزنطية وتبع ذلك حالة من الهدوء والاستقرار لانشغال الغرب الاوربي مع السلطان العثماني بايزيد في

معركة نيفوبولس عام 1396م حاول خلالها تيودور إصلاح بعض ما خلفه الجيش التركي من دمار، وتشير بعض الروايات إلى هجوم آخر للجيش العثماني على المورة في العام التالي حيث توجهت بعض القوات العثمانية إلى شبه جزيرة المورة للتضييق على حاكمها تيودور باليولوج في صيف عام 1397م كان الغرض من هذه الغارة هو تأديب تيودور الذي رفض التنازل عن أرجوس Argos ومنمبازيا Menembasia في مجمع سيرس للسلطان العثماني[10]، وعندما يئس تيودور من تزايد الضغط العثماني لجأ إلى البندقية طلباً للمساعدة ولكنها رفضت خوفاً على تجارتها في المنطقة، عندئذ لجأ إلى فرسان رودس وعرض عليهم مدينة كورنثة عام 1397م، وعاد في عام 1399م فعرض عليهم التنازل عن الإمارة بأكملها مع احتفاظه بحق الشراء وهو الحق الذي استخدمه تيودور بعد ذلك من خلال استعادتها فيما بعد، وتمت الصفقة ونجح الفرسان في تخفيف الضغط العثماني عن المورة بشكل مؤقت، إلا أن العثمانيين تمكنوا من تحقيق انتصارات عديدة وعبروا مضيق كورنثة وأخضعوا البليبونيز لسلطانهم[11]، و وظهرت عبقرية السلطان العثماني من خلال حرصه على التعامل مع كل من الإمبراطور البيزنطي في القسطنطينية وتيودور في المورة على حدة، بحيث أن أي اتفاق مع الإمبراطور لا يكون سارياً على المورة والعكس صحيح، الأمر الذي زاد من إرهاق العاصمة البيزنطية اقتصادياً وعسكرياً وزاد من الروح الانفصالية بين الإمبراطورية وهذا الجزء الحيوي منها، إضافة إلى قيام السلطان العثماني على تغيير التركيبة السكانية في المناطق التي سيطر عليها حيث حمل معه عقب النصر حوالي ثلاثين ألفاً من الأسرى الإغريق من لاكونيا Lacons وميسينيا Messenia وآخيا Achaia وأرجولس Argolis إلى آسيا الصغرى ووطن بدلاً منهم أسر تركية[12].

أمام المعارضة في الداخل والخارج لم يجد تيودور الأول مفراً من فك الارتباط مع فرسان رودس، وقد شجعه على ذلك انشغال السلطان العثماني بايزيد في صراعه مع تيمورلنك والذي انتهى بهزيمته وأسره في معركة أنقرة Ankaraعام 1402م.

وهكذا كان لهزيمة العثمانيين في موقعة أنقرة وانشغالهم بالنزاع الداخلي على الحكم أثره في منح الأمل لشبه جزيرة المورة لتعيش في أمان لبعض الوقت، وعاش تيودور ما تبقى من عمره حتى وفاته 1407م في هدوء تام. ورحل دون أن يضيف أي مزايا للمورة، حيث إن سياسته الارتجالية جرفته إلى مزيد من المعارك دون أن يكون مهيئاً لها.

المورة بين عامي 1407-1449م:

بوفاة تيودور الأول عام 1407م، خلفه ابن أخيه تيودور الثاني باليولوجوس Theodore II Palaiologos الذي استمر حكمه من عام 1407 إلى عام 1443م، وعلى الجانب العثماني كان السلطان العثماني محمد الأول 1413-1421م قد انهى الحرب الأهلية التي اندلعت عقب معركة أنقرة واستعاد وحدة دولته واتصف حكمه بالمرونة واعترف بالجميل تجاه الإمبراطور البيزنطي الذي قدم له المساعدات في صراعه ضد شقيقه موسى، وأعاد له كل الأراضي التي استولى عليها موسى قبل ذلك على البحر الأسود وبحر مرمرة وكذلك تساليا[13].

استقبل السلطان الجديد سفراء الدول والولايات الأوربية مثل الصرب وألبانيا وولاشيا والبندقية والمورة وقد تعهدوا بإقامة علاقات طيبة معه[14].

وقد استغل الإمبراطور البيزنطي أيضاً ذلك الهدوء وغادر عاصمته متجهاً إلى المورة للإشراف على دفاعات هذا الجزء الحيوي من دولته، حيث في ربيع عام 1415م شرع في تدعيم أسوار المدينة فأقام حائط عرف باسم هكسمليون Hexmilion، وحصنه بالأبراج فأنشأ فيه ما يقرب من المائة وخمسين برجاً ولاشك أن ذلك أكد سلطة الدولة على هذا الجزء الحيوي منها[15]، وعندما غادر الإمبراطور البيزنطي مانويل المورة عائداً إلى عاصمته ترك ابنه يوحنا الثامن لمساعدة ابنه الآخر تيودور الثاني في حكمها، وكان تواجد الإمبراطور في المورة دافعاً لحاكمها تيودور في صراعه مع اللاتين في آخيا Achaia عندما نشبت الحرب بين تيودور وسنتريوس زكريا Centurione Zeccaria الذي أوشك أن يفقد إمارته لولا تدخل البندقية لإحلال السلام بينهما[16].

وفي إطار جهود تيودور لدعم وجوده في المورة قام بعمل مصاهرة دبلوماسية حيث تزوج من أميرة إيطالية تمت بصلة القرابة إلى البابا مارتن الخامس، ويبدوا أن الدافع وراء ذلك هو الرغبة في سكوت البابوية عن صراع آل باليولوج ضد الإمارات اللاتينية في المورة حيث كان تيودور في ذلك الوقت يقوم بغاراته على أملاك البندقية في مودون Modon واستولى على أملاك الكنيسة الكاثوليكية فيها[17].

أدى ظهور قوات السلطان مراد الثاني Murad II 1421–1451م أمام أسوار القسطنطينية 1422م، إلى تغلغل الخوف داخل نفس تيودور الثاني الأمر الذي دفعه للتوجه في عام 1422م إلى البندقية طالباً المساعدة والتي تعهدت بتقديم المساعدة له في حال تعرضه للخطر العثماني مقابل تنازله عن مقاطعتي مودن وكورن Modon, Corn، وتم الاتفاق في أواخر شباط عام 1423م[18] مقالة دوقية المورة.

على الرغم من التنازلات التي قدمها تيودور للبندقية إلا أن البندقية لم توفي بوعدها في الدفاع عنه أمام الخطر العثماني عندما أقدم السلطان مراد الثاني في ربيع عام 1423م بتوجيه جيوشه نحو المورة حيث دمر سور الهكسمليون ولم ينهي هجومه إلا بعد تعهد تيودور بدفع جزية سنوية والتخلي عن بعض المدن، وقد تركت البندقية تيودور يواجه مصيره وحيداً دون تقديم أي عون لعدم رغبتها في إثارة غضب السلطان مراد حفاظاً على مصالحها التجارية[19].

أدرك الإمبراطور البيزنطي يوحنا الثامن أن الاستقرار في منطقة البيلبونيز لن يتحقق إلا في حال القضاء على التواجد اللاتيني فيها، ونتيجة انشغاله في أموره الداخلية في القسطنطينية، ولعلمه بضعف قدرات أخيه تيودور قام بإرسال أخيه قسطنطين وتوماس إلى المورة حيث تمكن الأشقاء من السيطرة على بتراس Patras، ومن ثم آخيا مما شكل مصدر قلق للعثمانيين[20].

على الرغم من تلك النجاحات إلا أن الأخوة دخلوا في صراع وتنافس أدى إلى قيام حكومة ثلاثية، حيث استقر تيودور في العاصمة ميسترا، بينما أقام توماس في كلارنتزا Clarentza، أما قسطنطين فقد استقر في كالافريتا Kalavryta، مما أدى إلى اتساع حالة الفرقة والتمزق بين الأخوة[21].

حقيقة الأمر أن الصراع داخل المورة انتقل حول عرش الإمبراطورية البيزنطية، فالإمبراطور يوحنا الثامن قد تقدم في السن وكان عقيماً وكان تيودور يعتبر نفسه الوريث الشرعي لشقيقه الإمبراطور يوحنا، ولكن يبدو أن الإمبراطور كان

يفضل شقيقه قسطنطين الأمر الذي أغضب تيودور وأدى إلى ظهور ما يشبه الحرب الأهلية في الحقبة ما بين عام 1435- 1436م[22].

تجدد الصراع على العرش الإمبراطوري في عام 1443م مع تقدم الإمبراطور يوحنا في السن، الأمر الذي دفع تيودور إلى تغيير مكانه من حاكم على المورة في مسترا ليحكم في تراقيا حتى يكون على مقربة من العاصمة[23]، ليسهل الاستيلاء على العرش عند وفاة الإمبراطور، ولكن الأمر قد تبدل عندما سقط تيودور فريسة للمرض ومات قبل الإمبراطور يوحنا بثلاثة شهور، حيث كان تيودور في آخر حياته قد سئم الخلافات وابتعد عن الحكم ليقضي بقية حياته راهباً في أحد الأديرة[24].

كان الإمبراطور يوحنا الثامن محقاً عندما كان يفضل شقيقه قسطنطين للمنصب الإمبراطوري حيث كان أقدر أبناء مانويل، فقد ولد قسطنطين عام 1404م وأسند إليه حكم سلمبريا Selymbria وما يجاورها ثم انتقل عام 1427م إلى المورة، وقد شارك قسطنطين في حكم المورة حتى عام1437م[25]، حيث رحل إلى القسطنطينية ليحل محل الإمبراطور حتى عودته من إيطاليا بعد حضوره مجمع فلورنسا.

اتبع قسطنطين في المورة نفس سياسة شقيقه تيودور، حيث أجرى مصاهرة دبلوماسية مع الأمراء اللاتين في المورة عندما صاهر كارلو توكو Karlo Toko لورد أبيروس ومعظم المناطق الغربية في بلاد اليونان الغربية عام 1428م، وعلى الرغم من وفاة زوجته بعد عامين دون أن تنجب فقد حصل على أملاكها في البليبونيز وجعلها مركزاً له لغزو بقية شبه الجزيرة[26].

توترت العلاقة بشكل ملموس بين قسطنطين وأخيه تيودور أثناء حكم قسطنطين في القسطنطينية خلال غياب الإمبراطور يوحنا لحضور مجمع فلورنسا في إيطاليا، حيث فسر تيودور ذلك بأنه تمهيداً لتولي قسطنطين العرش، ويبدو أن تيودور كان لديه دوافعه وراء هذا الشك، حيث ظل قسطنطين في العاصمة رغم عودة الإمبراطور يوحنا في بداية شباط عام 1440م، حيث استمر لعدة أشهر من العام نفسه، في حين انفرد توماس و ديمتريوس بحكم المورة[27]، وقد كان أول ظهور لتوماس في المورة عام 1430م عندما أرسل لمساعدة أشقائه في حكمها وهناك تمكن من إتمام مصاهرة دبلوماسية نجح من خلالها في الحصول على إمارة آخيا Achaia 1432م، وكانت قد فقدت ما تتمتع به من ازدهار وقوة في عهد أسرة فلهاردين Vilhardouins وبدأ الانحطاط واضحاً عليها في عهد أمراء انجو الذين كانوا يرسلون من ينوب عنهم في حكمها، وفي بداية القرن الخامس عشر وقعت تحت حكم سنتريوس زكريا وقد طمع كل من ورثته في هذه الإمارة في حين كان البنادقة يعتبرون أنفسهم أحق بها، وعندما تزوج توماس من كاترينا زكريا Cathrina وريثة آخر أمير فرنجي في الإمارة نجح بذلك في الحصوا عليها عام 1432م[28].

غادر قسطنطين العاصمة متجهاً إلى لسبوس Lesbos للاحتفال بزواجه الثاني من كاترينا Catherina ابنة أمير هذه الجزيرة بعد مفاوضات قام بها صديقه فرانتزس، وقد ماتت هذه الزوجة أيضاً دون أن تترك وريثاً، وبذلك يكون آل

باليولوج قد نجحوا بالمصاهرات الدبلوماسية في تحقيق ما عجزوا عنه بالقوة حين اتبعوا في القرن الخامس عشر سلسلة من المصاهرات أدت إلى استعادة الكثير من ممتلكات بيزنطة السابقة في المورة.

عاد قسطنطين إلى المورة ثانية في نهاية عام 1443م ليقتسم حكمها مع شقيقه توماس، حيث حكم الأول الجزء الأكثر أهمية وجعل عاصمته مسترا Mistra بينما حكم توماس الجزء الآخر وجعل مقر حكمه في كلارينزا Clarenza.

وجه قسطنطين اهتمامه بعد استقراره في المورة إلى إصلاح دفاعات هذه المنطقة فأعاد بناء حائط الهكسمليون عام 1444م بمساعدة شقيقه[29]، ثم بدأ في إظهار العداء للسلطان العثماني عن طريق الدخول في حرب مع دوق أثينا نيرو الثاني اكياجولي Nerio II Acciajoil حليف العثمانيين، ونجح في إخضاعه لسلطانه وأجبره على دفع إتاوة سنوية إلى جانب تقديم المساعدة العسكرية له عند الحاجة.

أراد قسطنطين الاستفادة من انشغال السلطان مراد الثاني في ذلك الوقت بحروبه مع المجر، لذلك واصل تقدمه، وفي الوقت نفسه حرض الألبانيين والولاشيين على الثورة ضد العثمانيين[30]، ويبدو أن قسطنطين أساء تقدير قوة السلطان الذي وافق على معاهدة سزجد Sezged عام 1444م، إلا أن الاتفاق لم يسفر عن توقف مشروع الحملة الصليبية، المزمع القيام بها ضد العثمانيين، حيث مارس البابا ايجنيوس الرابع ضغوطه لنقض الاتفاق، وبالفعل التقى الطرفان في فارنا في العاشر من تشرين الثاني عام 1444م، وبعد أن حقق الصليبيين عدة انتصارات سريعة لقوا في النهاية هزيمة ساحقة، وتعد حملة فارنا آخر محاولات الغرب لكبح جماح الزحف العثماني[31].

بعد تحقيق السلطان العثماني الانتصار على الصليبيين في معركة فارنا عام 1444م اتجه لتصفية حسابه مع قسطنطين فتقدمت جيوشه حتى بيوتيا وكذلك أتيكا ودمرها تماماً عندئذ سارع نيرو بطلب المساعدة من السلطان ضد قسطنطين الذي عاقبه على ذلك عن طريق توجيه حملة ضد أثينا واحتلالها، وقد غضب السلطان مراد واعتبر ذلك اهانة موجهة ، لذلك لم يمر وقت طويل حتى عانى قسطنطين مرارة الانتقام عندما طالبه السلطان بإخلاء المناطق التي استولى عليها ولكنه رفض ذلك.

حاول قسطنطين الدخول في مفاوضات مع السلطان تكفل له المكاسب التي حققها وأهمها الإبقاء على سور الهكسمليون ولكن السلطان غضب لهذه الجرأة وأمر بوضع سفراء قسطنطين في السجن.

أراد السلطان العثماني وضع حد لأعمال قسطنطين، فقد خشي من قيام تحالف بين قسطنطين والغرب يزيد من قوة قسطنطين العسكرية، مما يؤدي إلى إفشال المخطط العثماني في إسقاط القسطنطينية، والسيطرة على كامل البلقان والبلوبونيز، الأمر الذي دفع السلطان مراد للتحرك في خريف عام 1446م لمواجهة قسطنطين ووصل حتى سور الهكسمليون واتحدت قواته مع قوات نيرو، حيث لم يلقى أي مقاومة تذكر وشعر قسطنطين بعدم قدرته على مواجهة الجيش العثماني[32]، وكان قد اصطحب مراد الثاني معه جيشاً كبيراً مزود بالمدافع الثقيلة، وبدأ بضرب السور بالمدفعية واستمر لمدة أسبوعين[33]، وعلى الرغم من اتباع قسطنطين كافة الأساليب الدبلوماسية لإيقاف السلطان مراد إلا أنه فشل في ذلك، حيث تقدمت جيوش السلطان مراد في المورة وتم الاستيلاء على بعض المدن مثل باتراس وكورنثة، وتم معاقبة المدن التي قاومت مثل أيونيا، وفي الحقيقة كان السلطان العثماني يرغب في مواصلة تقدمه والسيطرة على

المورة إلا أن قيام اضطرابات في منطقة البلقان دفعه إلى إيقاف تقدمه مكتفياً باعتراف قسطنطين بالتبعية له، وتقديم جزية سنوية[34]، كما أرسلت العديد من المدن الأخرى سفرائها للسلطان العثماني طلباً للصلح[35]، وقد ظهر في هذه المعركة مساوئ اعتماد بيزنطة على الجند المرتزقة[36].

كان دمتريوس يسعى للحصول على العرش الإمبراطوري في القسطنطينية معتمداً في ذلك على مساعدة بعض العثمانيين إلى جانب تأييد معارضي وحدة الكنيسة البيزنطية مع الكنيسة في روما حيث كان دمتريوس قد نصب نفسه قائد للمعارضة لوحدة مجمع فلورنسا، لكن طموحه في الوصول للعرش فشل بسبب وجود قسطنطين،[37]، وكان شعب القسطنطينية قد اتخذ موقفاً سلبياً من مغامرة ديميتريوس لذلك أمكن القضاء عليها وانتهى الأمر بانتقاله إلى مسيمبريا Mesembria، وحصوله فقط على لقب دوق سامي Despot[38].

مع حلول عام 1448م توفي الإمبراطور البيزنطي يوحنا الثامن مما دفع دمتريوس للإسراع إلى القسطنطينية ونادى بنفسه إمبراطوراً اعتماداً على مساعديه السابقين[39]، إلا أن تواجد الإمبراطورة الأم وسيطرتها على مقاليد الحكم حتى قدوم ابنها قسطنطين وتتويجه أفشل مخطط دمتريوس[40].

كان قسطنطين الحادي عشر ترك المورة تحت حكم أخويه توماس وديميتريوس وتوج إمبراطوراً في ميسترا 1449-1453م على يد مطران مسترا ولم تكن هذه المرة الأولى التي يتوج فيه إمبراطور خارج القسطنطينية قبل التوجه إلى القسطنطينية[41]، وعلى الرغم من عدم جواز ذلك فقد أقره معظم رجال الكنيسة لأنهم قاطعوا جورجي ماماس بطريرك القسطنطينية عقب قرار الوحدة[42].

الأوضاع في شبه جزيرة المورة بين عامي 1449- 1460م:

باعتلاء قسطنطين عرش بيزنطة، ووفاة السلطان مراد الثاني وتولية ابنه محمد الثاني 1451-1480م تكون العلاقات ببين بيزنطة والعثمانيين قد دخلت مرحلة جديدة من مراحل تطورها.

حقيقة الأمر أن كل من توماس وديميتريوس لم يكونوا على وفاق، وكان كل منهما يسعى للسيطرة على أملاك الآخر والتفرد في حكم المورة[43] المقالة ص 18، الأمر الذي سرعان ما أدى إلى نشوب الصراع بينهما وتدخل قسطنطين الحادي عشر لإنهائه قبل أن يضيع كل ما قام بإنجازه[44]. المقالة ص18

خلال هذه الحقبة كانت القسطنطينية تعاني من الحصار العثماني ومهددة بالسقوط نتيجة لضربات المدفعية المستمرة، والتي كانت بأمس الحاجة لتكاتف حكام المورة والوقوف لجانبها، والذين بدلاً من ذلك دخلوا في صراعات داخلية مستمرة، وعمل كل منهما على طلب المساعدة من الخارج ضد الآخر حيث طلب ديميتريوس المساعدة من العثمانيين ضد أخيه توماس في الوقت الذي توجه الآخر لطلب المساعدة من الغرب، مما دفع السلطان العثماني محمد الثاني

الذي كان يرغب في تهدئة الأوضاع داخل المورة ريثما تحين الفرصة المناسبة لاحتلالها، ورغبته في حرمان الغرب الأوربي من فرصة التدخل في شؤون المورة إلى إرسال قائد جيشه طرخان بك عام 1452م لوقف الصراع الداخلي وتهدئة الأوضاع في المدينة[45].

في عام 1453م، واجه الناجون من سقوط القسطنطينية، والذين فروا إلى المورة وضعاً مضطرباً وغير مستقر، فقد وجد هؤلاء الأشخاص عند وصولهم المدينة، أن حكام المورة كل من توماس وديميتريوس باليولوجوس، وكذلك بعض من أقطاب الأسر الحاكمة المحلية، كانوا يفكرون في الفرار إلى روما، وفقط بعد أن توصل السلطان العثماني محمد الثاني إلى هدنة معهم، قرر هؤلاء البقاء في وطنهم لكن حالة الاستقرار والسلام داخل المدينة سرعان ما انتهت بسبب انتفاضة الرعايا الألبان من الحاقدين، حيث أدت الثورة إلى مزيد من التدهور في ريف البيلوبونيز، الذي كان قد دمر بالفعل من قبل التوغلات العثمانية والأجنبية الأخرى السابقة، ونتيجة رغبة السلطان العثماني في الحفاظ على حكم كل من توماس وديميتريوس ريثما يتفرغ للسيطرة على البيلبونيز، ولأنه كان على علم بتحريض البندقية للألبان للقيام بالتمرد لرغبتها في استعادة السيطر على كورنثة، قام بإرسال قائد جيشه طورخان بك عام 1454م لإنهاء التمرد القائم[46].

حقيقة الأمر أن الخلاف الشديد بين حكام المورة كان منذ بداية المسيرة السياسية لحكمهما، فقد كان ميل ديميتريوس باليولوجوس نحو التعاون والتكيف مع العثمانيين، بينما كان شقيقه توماس يفضل باستمرار تدخل القوى الغربية كبديل لقبول السيادة العثمانية[47].

هذا يشير إلى أن الوضع في عام 1453م ربما لم يكن نتيجة خاصة للخلاف بين الحكام، ولم يكن ذلك بالضرورة بسبب الارتباك الناجم عن سقوط العاصمة البيزنطية، وإنما يبدو أنه كان حالة عامة تتعلق بالبنية الداخلية لمجتمع المورة

بعد سقوط العاصمة البيزنطية بيد العثمانيين أدرك كل من ديميتريوس وتوماس بأن السلطان العثماني يريد احتلال المورة ، وأن الإبقاء عليهما في الحكم مسألة وقت ريثما يتفرغ لهما، مما دفعهما إلى طلب المساعدة من الغرب الأوربي ولكن من دون التنسيق بينهما مما أثار غضب السلطان العثماني، الذي توجه إلى المنطقة عام 1454م، وأجبرهم على إعلان التبعية له ودفع الجزية، وحذرهم من طلب المساعدة من الغرب الأوربي ومن ثم غادر[48].

على الرغم من كل المحاولات التي سعى السلطان العثماني لوقف الصراع بين ديميتريوس وتوماس إلا أن حالة الفوضى عادت مع قيام توماس بالسيطرة على العديد من الأراضي التي كانت تحت سيطرت أخيه الأمر الذي أثار غضب السلطان العثماني[49].

أخيراً أراد السلطان العثماني وضع حد للأحداث في المورة من خلال التحرك للسيطرة عليها عام 1460م فقد سيطر في البداية على ميسترا التي كانت تحت حكم ديميتريوس، ومن ثم توجه نحو بقية أراضي المورة التي سقطت بيده وفر توماس إلى كورفو Corfo، ومن ثم إلى روما[50].

وبذلك تكون المورة قد سقطت بيد العثمانيين عام 1460م كما سقطت من قبلها القسطنطينية عام 1453م

خاتمة

سقطت شبه جزيرة المورة بشكل نهائي بيد العثمانيين عام 1460م، ومع سقوطها وسقوط القسطنطينية السالف لها عام 1453م، لم يعد هناك أي أمل في إعادة استرداد القسطنطينية من أيدي العثمانيين، كما حدث بعد سقوطها بيد اللاتين خلال الحملة الصليبية الرابعة عام 1204م، فبينما كان يتوجب على حكام المورة التوحد ومحاولة استرداد القسطنطينية كما كان لمدينة نيقية وابيروس الدور في استعادتها من اللاتين عام 1261م، إلا أنهم على العكس من ذلك دخلوا في صراعات وحروب أهلية غايتها السيطرة على الحكم في المورة مما تسبب في حالة من الفوضى أدت في النهاية لسقوطها بيد العثمانيين.

في الحقيقة هناك العديد من العوامل والاسباب التي كانت وراء سقوط المورة لابدَّ من ذكرها:

1- حالة الكراهية لدى السكان المحليين في المورة تجاه الحكام القادمين من القسطنطينية واعتبارهم غرباء وعدم اهتمامهم بالأوضاع داخل مدينة المورة بقدر اهتمامهم والبحث عن مصالحهم الشخصية.

2- الحروب الأهلية المستمرة بين حكامها أدت إلى هجرة الكثير من الفلاحين من أراضيهم وبالتالي التسبب في نقص الموارد الغذائية داخل المورة بعد أن كانت تعتمد على الاكتفاء الذاتي في مواردها.

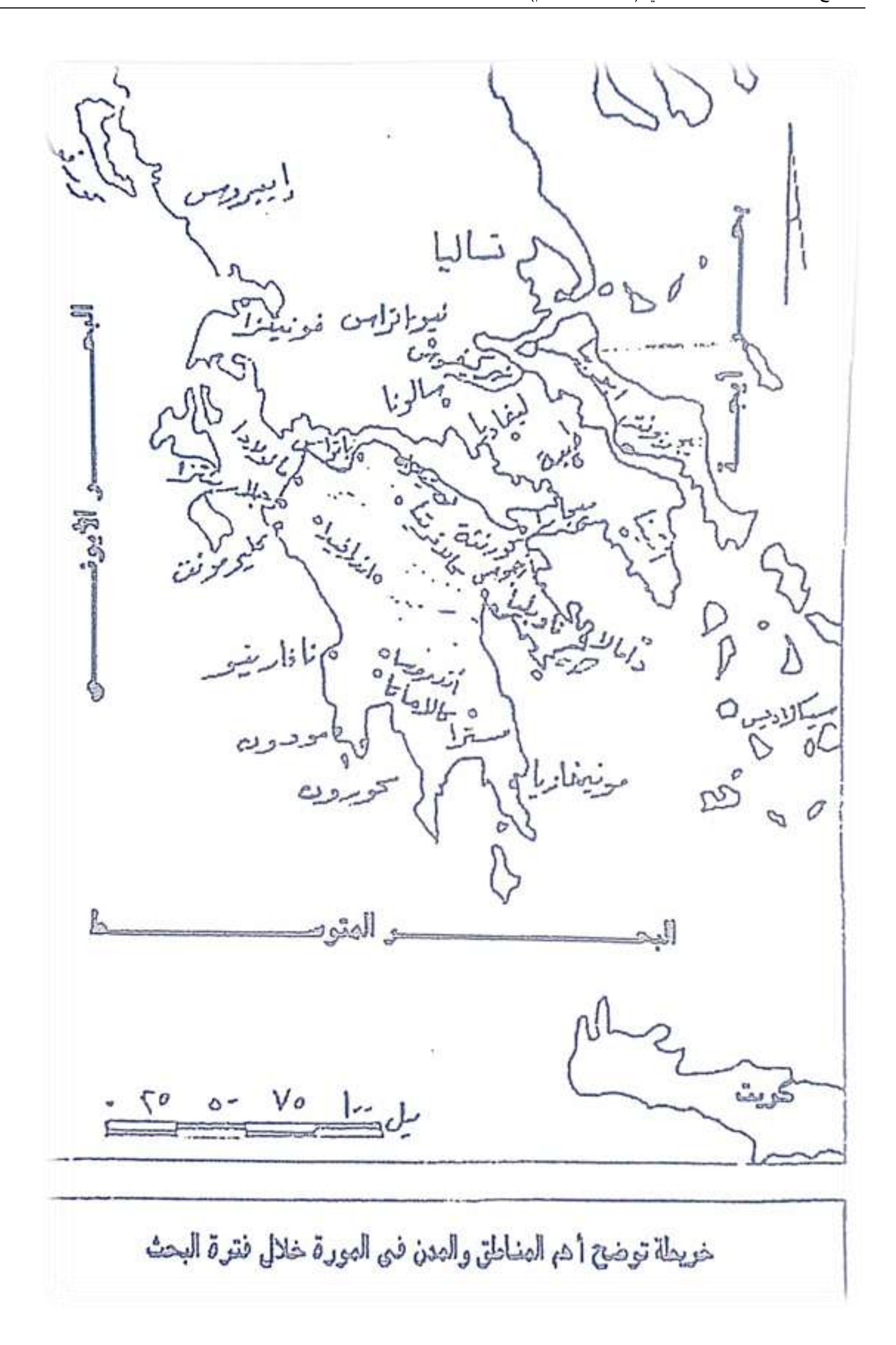
3- استغلال الملاكين المحليين حالة الفوضى وعدم الاستقرار داخل المورة لإعلان الثورات والتمرد على الحكام المحليين وطلب المساعدات الخارجية سواء من الغرب الأوربي أو من العثمانيين.

4- عدم اتباع سياسة حكيمة في تهدئة الأوضاع في المورة، وإنما كانت الوسيلة الوحيدة لقمع تلك الثورات والتمردات هو مصادرة الأراضي وتهجير السكان.

5- عدم تقبل الأفكار الاصلاحية التي تدعو لسياسة المساوات وتوزيع الأملاك على الفلاحين والحد من سلطة الملاكين الصغار والنظر لتلك الأفكار على أنها أفكار فلسفية يصعب تطبيقها.

6- استقدام المرتزقة سواء من الألبان أو غيرهم للعمل في الأراضي والدفاع عن المدينة بدلاً من الاعتماد على السكان المحليين مما زاد من حدة الكراهية والنقمة تجاه الحكام المحليين.

7- كان من أخطر العوامل التي أدت إلى سقوط المورة بيد العثمانيين هو تقسيم الحكم داخلها مما تسبب في حالة من التخبط الإداري والسياسي، إلى جانب الصراع بين الحكام الأخوة ورغبة كل طرف في السيطرة على أملاك الآخر مما تسبب في حالة عدم السيطرة على الملاكين المحليين وبالتالي تقديم التنازلات للدول الأوربية أو الدولة العثمانية لقاء تقديم المساعدة لهم لضبط الأوضاع الداخلية.



خريطة توضح أهم المناطق والمدن في المورة خلال فترة البحث

المصادر والمراجع

المصادر الأجنبية:

1- Chronicle of Morea: The Chronicle of Morea, Eng. Trans. H.E. lurier, New York, 1964, P. 197-198.
2- Doukas Byzantium: Doukas Decline and fall of Byzantium to the Ottman Turkes, trans. From "Historia. Turkes- Byzantion, by H.J. Magoulias, Detroit, 1975, P. 81.
3- Monumenta peloponnesiaca: Monumenta Peloponnesiaca Documents for the history of the Peloponnese in the 14 th and 15 th centurus, ed J, Chrysostomides, Surrey-UK 1995, pp. 46-99-100.
4- Phrantzes, Annales: Georgus Phrantzes (Sphranrzes) Annnales, CSH, ed. (Boon, 1838).pp. 62-83.
5- Chalcocondylas, Turcicis: Laonicus Chalcocondylas, De Rebus Turcicis, CSHB, ed (BONN-1843). P. 183.
6- Sphrantzes, The fall: G. Sphrantzes, The fall of the Byzantine Empire (1400-1477), trans. By Marios, Philippides, (Amherest, 1980). P.34-35.
7- Phrantzes, Annales: Georgus Phrantzes (Sphranrzes) Annnales, CSH, ed. (Boon, 1838). PP.122-207.
8- Chalcocondylas, Turcicis: Laonicus Chalcocondylas, De Rebus Turcicis, CSH, ed. (Boon, 1843).p. 345.
9- Phrantzes, Annales: Georgus Phrantzes (Sphranrzes) Annnales, CSH, ed. (Boon, 1838).p. 194.

المراجع الأجنبية:

1- Zakythions, Despotat: D. Zakythions, le Despotat Grec de Moree, paris, 1932, p. 130.
2- Dennis, Thessalonica: G. Dennis, The Reign of Manuel II palaeologus in Thessalonica 1382-1387, Rome, 1960, p.124-125.
3- Inalcik, Ottoman Empire: H. Inalcik, "The Ottoman Empire, Organization and Economy, Collected Studies", VR, London, 1978, p. 104.
4- Gibbons, Foundation: H. Gibbons, Foundation of The Ottoman Empire, Oxford, 1916, p. 200.
5- Creasy, History: E. Creasy, History of The Ottoman Turks, (Beirut, 1961).p. 43.
6- Vaughan, Pattern of Alliances: D. Vaughan, Europe and The Turk, A Battern of Alliances 1350- 1700, (Liver Pool).p. 43.
7- Runciman, Fall: S. Runciman, The Fall of Constantinople 1453, (Cambridge, 1965).p. 48.
8- Setton, Papacy: The Papcy and the Levant, voI 2, (Philadelphia, 1977). pp. 11-12.
9- Nicol. Last: The Last Centuries of Byzantium 1261-1453, (Cambridge, 1993). P. 247.
10- Brehier, Vie et Mort: L. Brehier, Vie et Mort De Byzance, (Paris 1947). P.489.
11- Nicol, Family of Kantakouzenos: D. Nicol, The Byzantine Family of Kantakozenos (Cantacuzenus) 1100- 1460, (London, 1968).p. 197.
12- Inalcik, Rise of the Ottoman: H. Inalcik, "The Rise of The Ottoman Empire", CHS, 1/ A, (1979) 295- 323. P. 380.
13- Vasiliev, Empire: A. Vasiliev, History of Byzantine Empire, 2, (Madison, 1971). P.644.

14- Babinger, Mehamed: F. Babinger, Mehamed the Conqueror and his Time, Translated from German by Ralph Manheim, (London, 1978).p. 48.
15- Inalcik, Rise of the Ottoman: H. Inalcik, "The Rise of The Ottoman Empire", CHS, 1/ A, (1979). P.884
16- Nicol, End: D. Nicol, The End of The Byzantine Empire, (London, 1979).p. 82.
17- Pears, Ottoman: V. Paul, Chronique Biliographique "Actualite de Jean Huss", Ist, (1959).p. 692.
18- Runciman, Fall: S. Runciman, The Fall of Constantinople 1453, (Cambridge, 1965).p. 59.
19- Brehier, Vie et Mort: L. Brehier, Vie et Mort De Byzance, (Paris 1947).p. 507.
20- Schlumberger, Siege: G. Schlumberger, Le Siege La Paris et le Sac de Constantinople par les Turcs en 1453, (Paris, 1922).p. 2.
21- Finlay, Greece: G. Finlay, A History of Greece, III, (Oxford, 1877).p. 497.

المراجع العربية:

1- أسد رستم: الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، ج2، دار المكشوف، بيروت، عام 1955م، صـ 256.
2- خليل اينالجيك: تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، تر: محمد الأرناؤوط، بني غازي، عام 2002م، صـ 33-34.
3- الميرالاي إسماعيل سرهنك: تاريخ الدولة العثمانية، تقديم ومراجعة حسن الزيني، دار الفكر الحديث، بيروت، د: ت، صـ 29.
4- زبيدة عطا: الترك في العصور الوسطى " بيزنطة وسلاجقة الروم والعثمانيون"، دار الفكر العربي، القاهرة، عام 1977م، صـ 180.
5- هايد تاريخ التجارة: هايد تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، تر: أحمد رضا محمد رضا، الهيئة العامة، القاهرة، عام 1991م، صـ 140.
6- إسماعيل سرهنك: الدولة العثمانية، الميرالاي إسماعيل سرهنك: تاريخ الدولة العثمانية، تقديم ومراجعة حسن الزيني، دار الفكر الحديث، بيروت، د- ت، صـ 37

المجلات:

1- عبد الغني عبد العاطي: عبد الغني محمود عبد العاطي، معركة فارنا الصليبية، مجلة كلية التربية، دمياط، عدد: 17، عام 1992م، صـ 220-222.

The siege of the city of Thessaloniki and its fall by the Ottomans Between 1422-1430

Dr. Suhail Zoukar •
Nadeem khalil laika •

(Received 7 / 5 / 2019. Accepted 8 / 8 / 2019)

□ ABSTRACT □

The city of Thessaloniki became under the control of the Ottomans and remained in their hands from 1387 until 1403, after the Battle of Ankara and the Treaty of Gallipoli, which resulted in the Turks giving up the city for the Byzantines, but with the arrival of Murad II, who entered a conflict with his brother, Mohammed Shalabi in 1422, where supported the Byzantines Muhammad against his brother Murad Murad after he took control of the Ottoman Empire on the siege of Salonika and wanted to regain control at a time when the city suffers from lack of resources to defend it.

In early 1430, Sultan Murad II besieged Thessaloniki with large numbers of soldiers. The siege of the city led to hunger, death and the emigration of large numbers of inhabitants. The Ottomans then took control of the city and the Venetian Treaty of Peace was signed by the Ottomans. Take control of Albania.

• **Professor, Department of History, University of Damascus, Damascus, Syria.**
• **Postgraduate student (PhD) - Department of History - University of Damascus - Damascus - Syria.**

حصار مدينة سالونيك وسقوطها بيد العثمانيين
بين عامي 1422-1430م

د. سهيل زكار *

نديم خليل لايقة *

(تاريخ الإيداع 7 / 5 / 2019. قبل للنشر في 8 / 8 / 2019)

□ ملخّص □

وقعت مدينة سالونيك أدارياً تحت سيطرة العثمانيين وبقيت بأيديهم من عام 1387م حتى عام 1403م، بعد معركة أنقرة وعقد اتفاقية غاليبولي والتي أفضت عن تنازل الأتراك عن المدينة لصالح البيزنطيين، إلا أنه ومع قدوم مراد الثاني الذي دخل في صراع مع أخيه محمد شلبي عام 1422م، دعم البيزنطيون محمد شلبي ضد أخيه فعمد مراد الثاني بعد توليه حكم الدولة العثمانية إلى حصار سالونيك وأراد استعادة السيطرة عليها في الوقت الذي كانت تعاني فيه المدينة من قلة الموارد اللازمة للدفاع عنها.

وفي أوائل عام 1430م تمكن السلطان مراد الثاني من حصار سالونيك بأعداد كبيرة من الجنود أدى حصار المدينة إلى حالات جوع وموت وهجرة أعداد كبيرة من السكان وسيطر العثمانيون بعد ذلك على المدينة وأبرمت البندقية معاهدة سلام مع العثمانيين اعترفت بموجبها بالوضع الراهن، وتحول الصراع والتنافس بين العثمانيين والبنادقة حول السيطرة على ألبانيا.

* أستاذ-قسم التاريخ-جامعة دمشق-دمشق-سورية.

* طالب دراسات عليا (دكتوراه)- قسم التاريخ- جامعة دمشق-دمشق-سورية.

مقدمة

خلال القرن الرابع عشر كانت الدولة العثمانية قوة ناشئة في الشرق بعد السيطرة على الجزء الأكبر من الأناضول، والاستيلاء على غاليبولي عام 1354م حيث اكتسب العثمانيون موطئ قدم لهم في البلقان، كانت القوى المسيحية في المنطقة لا سيما الإمبراطورية البيزنطية متدهورة، ومنقسمة، وضعيفة، مما سمح للعثمانيين بالتوسع في جميع أنحاء المنطقة، حيث تمكن العثمانيون عام 1369م من السيطرة على مدينة أدرنه ثالث أهم مدينة في الإمبراطورية البيزنطية بعد العاصمة القسطنطينية ومدينة سالونيك، التي كان يحكمها الأمير البيزنطي، والإمبراطور المستقبلي مانويل الثاني 1391–1425م، والذي سلم المدينة للعثمانيين عام 1387م بعد حصار طويل، وقد سمح العثمانيون في البداية للمدن التي تمت السيطرة عليها بالحكم الذاتي الكامل مقابل جزية سنوية.

وعند وفاة الإمبراطور البيزنطي يوحنا الخامس فرَّ مانويل الثاني الذي كان لدى العثمانيين وتوجه إلى القسطنطينية وتوج نفسه إمبراطوراً خلفاً لوالده مما أغضب السلطان العثماني بايزيد الأول الذي عمل على السيطرة على بقية الأراضي البيزنطية واستولى على نيقوبوليس ودمرها، وأعلن سيطرته المباشرة على سالونيك مع أنه سمح للمسيحيين داخل المدينة والكنيسة بالاحتفاظ بمعظم ممتلكاتهم.

بقيت سالونيك بيد العثمانيين حتى عام 1403م، عندما وقف الإمبراطور مانويل الثاني مع سليمان ابن بايزيد في الحرب الأهلية التي دارت رحاها بين ابناء بايزيد عقب معركة أنقرة التي هزم فيه العثمانيون أمام المغول بقيادة تيمورلنك عام 1402م، فقد استعاد الإمبراطور البيزنطي مانويل سالونيك وغيرها من المناطق الأخرى.

فعلى الرغم من استعادة البيزنطيين سالونيك إلا أن العلاقات بين سالونيك والقسطنطينية بقيت مضطربة، فقد كانت الطبقة الأرستقراطية داخل المدينة تسعى نحو حماية مصالحها، والتي بلغت حد الاستقلال الذاتي، وبذلك عند عودة السيطرة البيزنطية على سالونيك والمناطق المحيطة بها فقد عدّت إقطاعية مستقلة تحت حكم يوحنا السابع باليولوجس، وخلفه بعد وفاته عام 1408م أندرونيكوس باليولوجس، الذي سادت خلال حقبة حكمه حالة من السلام والازدهار النسبي، نتيجة انشغال العثمانيين في الحرب الأهلية الداخلية، على الرغم من تعرض سالونيك بين وقت وآخر لهجوم من قبل المتنافسين على الحكم العثماني كما حصل عام 1412م من قبل موسى شلبي وفي عام 1416م أثناء الصراع على الحكم بين مصطفى شلبي و محمد الأول، ومع نهاية الحرب الأهلية العثمانية تزايد الضغط العثماني على سالونيك كما حدث خلال حصار عام 1383–1387م حيث انقسم الرأي داخل المدينة بين مؤيد ومعارض لتسليم المدينة للعثمانيين.

إشكالية البحث

شهدت مدينة سالونيك دون غيرها من أراضي الامبراطورية البيزنطية خلال العقود الأخيرة من عمر الامبراطورية حالة من الهدوء والاستقرار ساهمت في قيام نهضة سياسية وحضارية بها، إلا أن هذه الحالة لم تستمر طويلاً فشهد القرن الثالث عشر الميلادي تغييراً في الأوضاع السياسية بالنسبة لمدينة سالونيك. فظهر صراع وتنافس حاد بين العثمانيين والبندقية من أجل فرض السيطرة والهيمنة لا سيما في هذه الظرفية التي اتسمت بدايةً في حصار مدينة سالونيك منذ عام 1422م من قبل العثمانيين بقيادة السلطان مراد الثاني وصولاً إلى العام 1430م حيث تمكن بعد حصارها بأعداد كبيرة من الجنود وحالات الجوع وهجرة أعداد كبيرة من السكان إلى السيطرة على المدينة وإبرام معاهدة سلام مع العثمانيين واعترفت بموجبها بالوضع الراهن.

ونظراً لكون الموضوع متشعباً، فإنه من الطبيعي أن يفتح المجال لطرح العديد من الأسئلة والتي تمحورت فيما يلي:

- بم تميزت العلاقة السياسية والعسكرية بين البنادقة والعثمانيين أثناء حصار مدينة سالونيك؟
- أوضاع مدينة سالونيك خلال هذه الحقبة؟
- كيف تمكن العثمانيين من السيطرة على مدينة سالونيك؟

دوافع اختيار الموضوع:

لقد دفعت الباحث عوامل كثيرة إلى اختيار حصار مدينة سالونيك وسقوطها بيد العثمانيين بين عامي 1422–1430م، ومن بين هذه العوامل نذكر:

- الاطلاع الواسع على الحقبة قيد الدراسة ، من خلال البحث المقدم دراسة سقوط سالونيك عسكرياً، وعجز البندقية عن إيجاد أي حليف يقف إلى جانبها ضد العثمانيين، الذين إما ركزوا على مصالحهم الخاصة، أو تعارضوا في مصالحهم مع البندقية، أو أصبحوا أتباع للعثمانيين.
- موقع منطقة سالونيك الجيواستراتيجي في العالم وأطماع العثمانيين للوصول إلى الغرب من خلالها.

أهمية البحث وأهدافه:

موضوع الدراسة (حصار مدينة سالونيك وسقوطها بيد العثمانيين بين عامي 1422–1430م) من الموضوعات الهامة، التي تناولت بالبحث الصراع بين البنادقة والعثمانيين على مدينة سالونيك والتي تعد من أطول المعارك وأطول الحصارات.

وتظهر الأهمية أيضاً أهمية مدينة سالونيك السياسية والعسكرية بالنسبة للعثمانيين، والتي مثلت المحطة الأولى في خطط طموحاتهم في الغرب.

منهجية البحث:

للإجابة على هذه التساؤلات والإلمام بجوانب الموضوع، سيتم إتباع المناهج العلمية الموضوعية استناداً إلى الوثائق والمصادر المعتمدة العلمية المتوفرة، وعلى أساس أن التاريخ خبر ورؤية.

الهجمات العثمانية الأولى على سالونيك وتسليم المدينة للبندقية عام 1430م.

بعد نهاية الحرب الأهلية العثمانية التي خرج منها منتصراً السلطان محمد الأول 1413–1421م، دخل في علاقات جيدة مع البيزنطيين الذين ساندوه ضد أخيه في الحرب الأهلية العثمانية، إلا أنه مع ظهور مراد الثاني 1422–1451م تغير الوضع ففي الجانب البيزنطي كان يوحنا الثامن باليولوجس 1425–1448م الوريث والوصي على الإمبراطور المريض مانويل الثاني، والذي لم يكن على علاقة حسنة مع مراد الثاني ودعم مصطفى شلبي كمنافس لمراد وزوده بكل ما يحتاج من عتاد إلا أن مراد الثاني استطاع تحقيق النصر على مصطفى وكان مصمم على إنهاء وجود الإمبراطورية البيزنطية ولذلك عمل على فرض حصار على القسطنطينية عام 1422م من دون أن يحقق أي نتيجة تذكر[1].

أمام اخفاق مراد الثاني في دخول القسطنطينية عمد إلى حصار مدينة سالونيك ودمر ضواحيها[2]، ووفقاً لأسقف المدينة سيمون 1416−1429م كان قد أرسل يطلب المساعدة من القسطنطينية إلا أن القسطنطينية كانت ضعيفة ولا تستطيع تقديم أي مساعدة، وكانت منشغلة بمشاكلها الداخلية، وبعد عدة مطالب من أسقف مدينة سالونيك أرسل الإمبراطور قائد عسكري إلى المدينة لم يتم معرفة هويته جاء من دون دعم عسكري أو مالي، حيث اقترح هذا القائد إنشاء صندوق دعم من المواطنين لدعم الدفاع عن المدينة، إلا أن هذا الاقتراح قوبل بمعارضة شديدة، خاصة من الأرستقراطيين الأثرياء، الذين رفضوا تحمل تكلفة الدفاع، كما رفض عامة الناس هذا الاقتراح لأنهم كانوا في حالة من الفقر هم يحتاجون فيها من يقدم لهم المساعدة[3].

عندما انتشرت الأخبار داخل المدينة بأن العثمانيون عرضوا تسوية سلمية بشرط أن يغادر حاكم المدينة أندرونيكوس المدينة قام العديد من المواطنين بأعمال شغب لصالح الاستسلام للعثمانيين، وفي تلك المرحلة أقنعت مجموعة من الأرستقراطيين حاكم المدينة أندرونيكوس بالسعي لطلب المساعدة من البندقية، وهذه المبادرة ربما اتخذت من دون الرجوع إلى العاصمة القسطنطينية ودون مشاورتها[4]، وفي عام 1423م تم إبلاغ البندقية بنية أندرونيكوس تسليمها مدينة سالونيك، وكان الشرط الوحيد الذي فرضه أندرونيكوس هو احترام الممتلكات والامتيازات التي يتمتع بها سكان المدينة والمحافظة عليها، بالإضافة إلى حرية التجارة، وعدم التعرض للكنيسة الأرثوذكسية داخل المدينة، وتعهد البندقية بالدفاع عن المدينة ضد الهجمات العثمانية[5].

يذكر المؤرخ بيسيدو سفرانتز Pseudo−Sphrantzes مؤرخ القرن السادس عشر بأن أندرونيكوس قام ببيع المدينة مقابل 50000 دوكا وغالباً ما قبل العلماء هذا البيان حتى منتصف القرن العشرين، إلا أنه لم يتم ذكر ذلك في أي مصدر آخر، كما أنها ليست موجودة في الوثائق الأصلية المتعلقة بهذه القضية، كما أوضح الباحثان كونستاتينوس ميرتزيوس، وبول ليميرل[6]، من ناحية أخرى أنه تمت الموافقة من قبل المبعوثين من البندقية على استسلام المدينة مقابل تقديم مبلغ 20000 من إيرادات المدينة كإعانة سنوية لأندرونيكوس مع تقديم مبلغ 40000 دوكا بشكل فوري عندما يطلبها أندرونيكوس[7].

عندما وصل العرض إلى البندقية كان قد تم انتخاب فرانشيسكو فوسكاري عام 1423م دوقاً على المدينة، الذي كان مؤيداً لموقف أكثر عدوانية ضد التوسعات العثمانية[8]، إلا أن غالبية مجلس الشيوخ داخل مدينة البندقية كان يفضل الحلول السلمية مع العثمانيين خشية منهم على مصالحهم التجارية، التي قد تودي الحرب إلى الاضرار بها[9].

كانت البندقية قد اتبعت منذ الحملة الصليبية الرابعة سياسة السيطرة على القلاع والجزر البيزنطية المنهارة، والتي وفرت روابط تجارية قيمة للبندقية مع الشرق[10]، وكانت لبندقية تنظر إلى مدينة سالونيك كهدف توسعي ممكن، ولا سيما أن

القسطنطينية بدت على وشك السقوط بيد الأتراك العثمانيين، ولذلك كانت البندقية قد سعت منذ عام 1419م إلى إعادة تأسيس قنصلية لها داخل المدينة برئاسة جورج فيلوماني، وبعد وفاته عام 1422م تم تعيين شقيقه ديميتريوس[11].

أرسل مجلس الشيوخ في البندقية عام 1422م مبعوث إلى أندرونيكوس يعلموه بقبولهم عرضه، كما أرسلت البندقية مبعوثها إلى القسطنطينية للحصول على موافقة الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني[12]، وفي الوقت الذي أرسلت فيه البندقية مبعوثيها إلى كل من أندرونيكوس حاكم سالونيك والإمبراطور البيزنطي عملت على تعزيز دفاعات المدينة، كما أرسلت مبعوثها جيورجيو بروفيدوريتوري إلى السلطان العثماني لإبلاغه بسيطرة البندقية على المدينة مسوغاً ذلك لمنع سقوط المدينة بيد مسيحيين آخرين قد يكونوا على عداء مع السلطان العثماني، في الوقت ذاته، كان مبعوثين آخرين يرتبون إجراءات السلام بين السلطان العثماني والبندقية من ناحية، وبين السلطان العثماني والإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني من ناحية أخرى[13]، ومن الواضح أن الإمبراطور البيزنطي مانويل وافق على الاقتراح بتسليم المدينة إلى البندقية، حيث أنه في 14 أيلول عام 1423م دخلت ست سفن تابعة للبندقية مصحوبة بسفينة بيزنطية إلى ميناء سالونيك، وتم استقبال البنادقة من قبل سكان المدينة بترحيب والذين كانوا ينظرون لهم كمنقذين ضد الخطر العثماني المحيط بهم، عمد حاكم البندقية على الفور إلى إرسال التعزيزات اللازمة للدفاع عن المدينة المحاصرة من قبل العثمانيين بحوالي 5000 جندي كما أرسل المؤن اللازمة[14].

على الرغم من ذلك كانت ماتزال أعداد كبيرة من السكان داخل مدينة سالونيك تؤيد قرار الاستسلام لصالح العثمانيين، فقد أظهرت كتابات متروبوليتان سيمون أن عدداً من سكان المدينة فروا إلى العثمانيين[15]، وقد شملت عمليات الفرار بعض النبلاء من الأسر الأرستقراطية.

خلال ذلك توفي الإمبراطور البيزنطي مانويل 1425م وتولى الحكم بعده ابنه يوحنا الثامن 1425-1449م[16]، ولكنه تربع على عرش إمبراطورية مقطوعة الأطراف لا تضم سوى القسطنطينية وضواحيها وبعض الأراضي الضيقة على البحر الأسود[17]، وكانت الإمبراطورية البيزنطية قد وصلت إلى درجة كبيرة من التدهور حيث قلت مواردها وانتشر فيها الفقر، ولم يكن بمقدورها سك العملة الذهبية واكتفت بضرب العملة الفضية طوال عهد الإمبراطور يوحنا وخليفته قسطنطين[18].

مع زيادة الضغط العثماني على المورة لم تجد بيزنطة لديها القدرة على الدفاع أو تقديم المساعدات لمدينة سالونيك الأمر الذي دفعها للتنازل عنها للبندقية[19].

ذكر فرانتز أن بيزنطة قد باعت المدينة للبنادقة قبل ذلك أيضاً في عام 1403م بعد استردادها من العثمانيين ولتوضيح ذلك يمكن القول أن بيزنطة قد استردتها ثانية أو أن البندقية كانت قد تولت أمر الدفاع عنها فقط لذلك تم بيعها عام 1423م[20] لتتولى الدفاع عنها.

وقد أظهر سكان المدينة ارتياحهم لهذا الأمر في البداية، خاصة بعد أن عانوا الكثير نتيجة غارات العثمانيين المتكررة عليهم[21]، وقد تسلم البنادقة المدينة في عام 1423م بعد أن تعهدوا باحترام عادات وتقاليد السكان، وحمايتها من غارات العثمانيين وأن تجعل منها بندقية ثانية[22]، وعلى الفور أرسلت إلى المدينة دوقاً وقبطاناً ودعمت استقرارها في المدينة[23].

يذكر المؤرخ البيزنطي المعاصر دوكاس في كتاباته أنه بعد حقبة قصيرة من سيطرة البندقية على مدينة سالونيك قامت البندقية بسجن أربعة أرستقراطيين بارزين بسبب ارتباطهم بالعثمانيين، فقد تم نفي الرجال الأربعة أولاً إلى جزيرة كريت، ثم إلى البندقية نفسها، وبعد سقوط سالونيك عام 1430م بيد العثمانيين تم إطلاق سراح الناجين منهم[24].

أن قصة المؤامرة التي سجلها المؤرخ المعاصر موروسيني حول قيام أندرونيكوس بتسليم المدينة إلى الأتراك، وبحسب ما أورد بأنه تم اكتشاف المؤامرة عام 1423م[25]، رفضها رونالد نيكول ووصفها بأنها افتراء[26].

الأحداث الدبلوماسية والعسكرية بعد تسليم مدينة سالونيك للبندقية:

ثارت ثائرة السلطان مراد الثاني عندما علم ببيع سالونيك، ورفض أن تبيع بيزنطة جزءاً من أملاكها[27]، وفي الحقيقة حاولت البندقية الاستفادة من وضع بيزنطة المتدهور إلى حد بعيد، فبعد أن تم شراء سالونيك حاولت الحصول على آخيا Achaia كما شرع الإغريق من تلقاء أنفسهم في الانضواء تحت لوائها فطلبت كلاً من آجين عام 1451م وسكوبوليس عام 1453م، ومونمفازيا عام 1462م حماية البندقية[28].

لذلك لم يخف العداء للبنادقة فعندما توجه إليه سفيرها أمر بالقبض عليه وإيداعه السجن[29]، وكانت البندقية تسعى منذ البداية للحصول على موافقة الدولة العثمانية في سيطرتها على مدينة سالونيك من خلال إرسالها سفيرها إلى العثمانيين جورجيو عام 1424م، الذي أخفق في مهمته وتم إلقاء القبض عليه وسجنه من قبل السلطان العثماني مراد الثاني[30]، حيث رفض العثمانيون قبول تسليم المدينة للبندقية معتبرين أن سيطرة البندقية على المدينة غير قانوني بسبب حقهم السابق في المدينة من خلال الفتح[31].

تم تلخيص الموقف العثماني من خلال رد السلطان العثماني مراد على سفراء البندقية الذين يسعون للسلام كما سجله المؤرخ دوكاس: "هذه المدينة هي ملك لجدي بايزيد من خلال قوة يده، فقد انتزعها من البيزنطيين، ولو أنَّ الرومان سادوا عليَّ، لكان عليهم أن يصرخوا إنه ظلم لكنكم لاتين من إيطاليا، لماذا تخطيتم تلك الأجزاء، لديكم خيار الانسحاب، فإن لم تفعلوا ذلك سآتي أليكم[32].

عندما وصل خبر اعتقال جورجيو إلى البندقية، تم ارسال مبعوث آخر إلى العثمانيين من أجل إطلاق سراح جورجيو، ومحاولة إقناع السلطان العثماني بسيطرة البندقية على سالونيك والمناطق المحيطة بها مقابل تقديم جزية سنوية بين 1000 إلى 2000 دوقية بالإضافة إلى توزيع هدايا سنوية وأموال على كبار رجال السلطان، كما أعطيت تعليمات

مماثلة لقائد أسطول البندقية بيترو لوريدان، الذي أبحر إلى سالونيك ووجدها تحت الحصار فقام بمهاجمة مدينة غاليبولي، كما عمل على محاولة إثارة معارضة بين الحكام المجاورين للعثمانيين وإعاقة مرور القوات العثمانية في الدردنيل، أرادت البندقية من خلال تلك الأعمال أن تبين حقيقة أنها لم تكن ترغب في الحرب، وابلغت القادة العثمانيين عن طريق بيترو لوريدان قائد أسطولها بأن تلك الأفعال كانت نتيجة سجن جورجيو وحصار العثمانيين سالونيك التي حصلوا عليها بشكل قانوني[33].

هكذا كان نمط الصراع المستمر لمدة ست سنوات بين العثمانيين والبندقية في محاولة كل من الطرفين فرض سيطرته على سالونيك، ففي الوقت الذي فرض العثمانيون حصارهم على المدينة، محاولين تجويع من فيها لإجبارهم على إعلان الاستسلام، عملت البندقية على أرسال أكثر من سفارة إلى العثمانيين لتأكيد حيازتها للمدينة ومحاولة الحصول على اعتراف العثمانيين بذلك من خلال عرض تقديم مبالغ مالية سنوية لدعم جهودها الدبلوماسية، ومن جهة أخرى سعت البندقية لمحاولة الضغط على السلطان العثماني من خلال إثارة الاضطرابات للعثمانيين في البلقان، ومحاولتها التحريض من أجل إعداد حملة صليبية جديدة ضد العثمانيين، إضافة إلى إرسال أسطولها لمهاجمة مدينة غاليبولي الواقعة تحت سيطرة الدولة العثمانية، وفي المقابل عمل العثمانيون على محاولة الضغط على البندقية من خلال شن الغارات على الممتلكات التابعة للبندقية في منطقة بحر إيجة[34].

نتيجة الضغوطات المتزايدة على البندقية حاولت استرضاء السلطان العثماني من خلال دفع جزية سنوية قدرها مائة ألف أسبرا Aspra، وهي قيمة الجزية التي اعتاد حكام سالونيك من البيزنطيين دفعها قبل ذلك، عندئذٍ اعترف السلطان بهذا الوضع مقابل تعهد البندقية بأن يكون في المدينة قاضي عثماني وألا يواجه التجار العثمانيون أية صعوبات عند دخول المدينة[35].

سالونيك تحت حكم البندقية.

كانت موافقة السلطان العثماني لسيطرة البندقية على مدينة سالونيك مجرد كسب للوقت فما أن عقد معاهدة صلح مع المجر – عدو البنادقة – مدتها ثلاث سنوات[36] حتى اتجه لتصفية حسابه مع البندقية التي زادت الجزية إلى ثلاثمائة ألف أسبرا[37]، أي أن الجزية قد زادت ثلاثة أضعاف أملاً في إرضاء السلطان العثماني.

ليس من شك أنَّ هذه الأعباء المالية جعلت البندقية – إلى جانب انشغالها بحروبها مع نابولي – غير قادرة على الوفاء بما التزمت به لإنعاش اقتصاد المدينة، وقد ترتب على ذلك اتساع الهوة بين المحكومين وحكامهم الجدد[38]، هذا إلى جانب الخلاف العقائدي الذي زاد من حدة الخلاف بين الطرفين، كل ذلك جعل البندقية تشعر بخسارة هذه الصفقة، ومع حلول شتاء عام 1426–1427م، اقتربت الظروف في المدينة المحاصرة من نقطة المجاعة، وقد أُجبر سكان سالونيك على العيش على الخبز وحده، وحتى هذا الأمر أثبت أنه يمثل مشكلة، فقد اضطرت السلطات لطلب المزيد من شحنات القمح من البندقية عندما كانت الإمدادات منخفضة بشكل خطير، وجعلت ظروف "الفقر المدقع والموت والعوز" السكان أكثر قلقاً، وحتى أولئك الذين رحبوا سابقاً بالبنادقة بدأوا يترددون في بقائها داخل المدينة[39]، وقد كان من

نتائج قلة المواد الغذائية تعرض دفاعات المدينة للخطر، لأن العديد من الحراس المرتزقة على الجدران الذين دفعت لهم البندقية القمح بدلاً من النقود، انشقوا إلى الأتراك عندما تأخرت حصصهم الغذائية، وأصبح هذا الوضع أسوأ بشكل تدريجي، ومع حلول وقت الهجوم العثماني الأخير في عام 1430م، لم يكن لدى العديد من الجنود أسلحة لأنهم باعوها مقابل الغذاء[40]، وفي وسط هذه الظروف وصلت قوات السلطان مراد بأعداد كبيرة وتم توزيعها أمام الأسوار المواجهة لليابس لحصار المدينة.

بدأ حصار المدينة في السابع والعشرين من آذار عام 1430م، وحاولت البندقية رفع الروح المعنوية لسكان المدينة فأرسلت بعض سفنها إلى ميناء سالونيك محملة بالمؤن والرجال لمساعدتها لمواجهة الحصار[41]، وعلى الرغم من ذلك تعالت أصوات سكان المدينة بضرورة تسليمها خوفاً مما قد يحل بهم عند دخول العثمانيين المدينة عنوة[42]، وقد أدت عمليات الحصار إلى هجرة جماعية من المدينة، حيث باع المواطنون القادرون على المغادرة ممتلكاتهم وهربوا إلى القسطنطينية، وغيرها من الأراضي اليونانية التي تسيطر عليها البندقية، أو إلى العثمانيين[43]، من بين السكان الذين تم الإبلاغ عن هجرتهم بين 20000 إلى 25000 شخص، أو حتى ما يصل إلى 40.000 شخص، حسب المصادر الإيطالية المعاصرة، تشير التقديرات إلى أنه لم يتبقى سوى 10,000−13,000 نسمة بحلول عام1429م/1430م[44]، وكانت قد حاولت سلطات مدينة البندقية وضع حد لذلك من خلال منع السكان من مغادرة المدينة، وحظر جميع المبيعات، والرهون العقارية، ونقل الممتلكات، سواء المنقولة وغير المنقولة، ومنع تدمير المنازل وغيرها من الممتلكات والأشجار، وكان قسم من الناس الذين غادروا المدينة يأملون في أن يشكل التدمير رادعاً لأولئك الذين ظلوا وراءهم[45].

كان السلطان مراد الثاني مدركاً الوضع السيء داخل أسوار المدينة ومدى حالة الفقر والجوع التي وصل إليها السكان، كان قد أرسل ضباطاً مسيحيين يعملون تحت خدمته إلى المدينة للتحريض على التمرد ضد البندقية مما تسبب في مزيد من حالات التمرد والاعتقال داخل المدينة، ويذكر أناغنوستس في كتاباته أن عدد السكان في ذلك الوقت كان قد انخفض وأصبح هناك انقسام واضح بينهم بين من يؤيد دخول العثمانيين المدينة بشكل سلمي، والذين دفعهم كرههم للبندقية إلى تشكيل قوة خاصة تدعوا لقتل كل من يرفض الاستسلام للعثمانيين، في المقابل كان هناك من يدعوا إلى المقاومة والتصدي للهجوم العثماني والوقوف في وجه من يدعوا للاستسلام.

سقوط مدينة سالونيك:

نتيجة تشديد العثمانيين حصارهم وازدياد حركات التمرد داخل المدينة كان مجلس الشيوخ داخل البندقية قرر إرسال عدة سفن عسكرية إلى سالونيك تحت قيادة أنطونيو دييدو لتعزيز الدفاع عنها، وذلك في 17 آذار عام 1430م، ولكن تلك المحاولة كانت دون جدوى، فقد أظهر حشد من المدافعين عن المدينة مدى حالة الضعف التي وصلت إليه المدينة سواء من حيث عدد المدافعين وتسليحهم ومن حيث رغبتهم في الوقوف بوجه العثمانيين، فقد تمكن السلطان العثماني مراد الثاني بمساعدة أحد الرهبان الموجودين داخل المدينة في قطع أنابيب المياه عنها فعانى سكانها من شدة

العطش[46]، وعندئذ تشاور البنادقة فيما بينهم وفكروا في التخلي عن المدينة لأن الدفاع عنها قد يكلف الكثير في حين أن الكسب منها ضئيل[47].

بدأ الهجوم العثماني على المدينة مع شروق شمس التاسع والعشرين من آذار عام 1430م، وقد قاوم المدافعون ولكن دون جدوى حيث نجح المهاجمون في إنزال الأضرار بأسوارها وعند أدراك البنادقة فشل جهودهم في الدفاع عنها لاذوا بالفرار ووقعت المدينة في أيدي العثمانيين[48].

حمل السلطان من المدينة الكثير من الأسرى وحول كنيسة العذراء إلى مسجد ودخل في خدمته الكثير من الشخصيات البارزة من سكان المدينة[49].

تعلم البيزنطيون والبنادقة درساً قاسياً على يد السلطان مراد، لذلك لم يفكروا في استعادة المدينة وأصبح شغل البنادقة الشاغل هو حماية بقية أملاكهم في المنطقة بإحلال السلام مع السلطان العثماني، وبناءً على المعاهدة التي عقدت بينهما في الرابع من أيلول عام 1430م بقيت المدينة في أيدي العثمانيين وبقيت أملاك البنادقة آمنة في ألبانيا والمورة[50].

انزعج الإمبراطور البيزنطي يوحنا الثامن في القسطنطينية عند سماعه بسقوط مدينة سالونيك بيد العثمانيين، وحاول إعادة ترميم حصون العاصمة القسطنطينية[51]، وفتح باب التفاوض مع البابا لعقد مجمع فلورنسا 1438–1439م[52].

خاتمة

في النهاية نذكر بعض النقاط التي توصلت إليها المصادر التاريخية حول حصار وسقوط سالونيك في الآتي:

1. كان التسلسل الزمني والأحداث المحيطة بفرض الحكم العثماني المباشر على سالونيك في عام 1390م موضوعاً للجدل، فقد أشارت السجلات العثمانية إلى "الاستيلاء" على المدينة، مما دفع بعض علماء الحديث، مثل كارل هوبف ، نيكولاي إيورغا ، أو ريمون يوسف، إلى القول إلى أن المدينة قد كانت تحت حكم البيزنطيين في هذه الأثناء .هذا الموقف عمومًا مرفوض من الدراسات الحديثة .بدلاً من ذلك ، يُنظر إلى "الاستيلاء الثاني" كجزء من سياسة أوسع لتعزيز السيطرة المركزية على الولايات الفاسدة من قبل بايزيد الأول، وهو ما يتضح في مكان آخر في الأناضول والبلقان في نفس الوقت.
2. كان البيزنطيون قد دعموا في البداية سليمان شلبي أثناء النزاع مع أخيه موسى، وعندما أطاح سليمان بأخيه شن في عام 1411م هجمات على سالونيك ووضع القسطنطينية تحت الحصار ، مما تسبب في تحالف البيزنطيين مع أخيه محمد، وأعطت السفن البيزنطية محمد وقواته حق المرور داخل البوسفور ، وقاتلت القوات البيزنطية إلى جانبه، وكانت القسطنطينية ملجأً لمحمد بعد فشل هجومه الأول على موسى في معركة أنسيز .

3. تأريخ سقوط المدينة كان موضوع العديد من التفسيرات الخاطئة، لكن التاريخ الصحيح تم توفيره من قبل جون أناغنوستيس، وتقرير من سلطات البندقية في نيغروبونتي عن سقوط المدينة، ورسالة يونانية وجدت في دير Vlatadesوهذا يتطابق مع بعض المؤرخين الغربيين والأتراك في الوقت ذاته، مثل مارك أنطوان لاوجير و لونكلافيوس، وكذلك بعض مصادر القرن العشرين أكدوا عدم صحة وضع سنة احتلال المدينة في عام 1429م، في حين quien جنيه وضعها في عام 1431م.

المصادر والمراجع

المصادر الأجنبية:

1- Phrantzes, Annales: Georgus Phrantzes (Sphranrzes) Annnales, CSH, ed. (Boon, 1838).p. 121.
2- Phrantzes, Annales: Georgus Phrantzes (Sphranrzes) Annnales, CSH, ed. (Boon, 1838).p. 67.
3- Ducas, Historia: Michael Ducas, Historia Turco-Byzantina, CSH, ed. (Boon, 1834).p. 197.
4- Anagnostes, Thessalonicensi: Ioannes Anagnostes, De Extremo Thessalonicensi Excidio Narratio, CSH, ed, (Boon, 1838).p. 490-510.
5- Phrantzes, Annales: Georgus Phrantzes (Sphranrzes) Annnales, CSH, ed. (Boon, 1838).p.192.

المراجع الأجنبية:

1- Schlumberger, Siege: G. Schlumberger, Le Siege La Paris et le Sac de Constantinople par les Turcs en 1453, (Paris, 1922).p. 380.
2- Ostrogorsky, State: G. Ostrogorsky, History of Byzantine State, Eng. Trans, J. Hussey, (Oxford, 1955).p. 497.
3- Pitcher, Historical: D. Pitcher, An Historical geography of The Ottoman Empire from
earliest Times to The End of The Sixteenth Century, (Leiden, 1972).p. 64. :
Stavrianos, Balkans: L. Stavrianos, The Balkans since 1453, (London, 1958).p. 51.
4- Menzies, Ottoman: S. Menzies, History of The Ottoman Empire In Europe, (London, 1877).p. 73.
5- Nicol, Centuries: D. Nicol, The Last Centuries of The Byzantium 1261- 1453, (Cambridge, 1993).p. 349.
6- Kinross, Ottoman: L. Kinross, The Ottoman Centuries, The Rise and Fall of The Turkish Empire, (London, 1977).p. 85.
7- Menzies, Ottoman: S. Menzies, History of The Ottoman Empire In Europe, (London, 1877).p. 73.
8- Vasiliev, Empire: A. Vasiliev, History of Byzantine Empire, 2, (Madison, 1971).p. 643.
9- Setton, Kenneth M. The Papacy and the Levant (1204–1571), Volume II: The Fifteenth Century. Philadelphia: The American Philosophical Society, (1978).pp. 12-19-20-21
10- -Fine, John Van Antwerp The Late Medieval Balkans: A Critical Survey from the Late Twelfth Century to the Ottoman Conquest. Ann Arbor: University of Michigan Press, (1994).p. 536.

11- Vacalopoulos, Apostolos E. History of Macedonia 1354–1833. Translated by Peter Megann. Thessaloniki: Institute for Balkan Studies. (1973).pp. 77-78-80.
12- -Magoulias, Harry, ed. Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks, by Doukas. An Annotated Translation of "Historia Turco-Byzantina" by Harry J. Magoulias, Wayne State University. Detroit: Wayne State University Press. (1975).p.171.
13- Necipoğlu, Nevra Byzantium between the Ottomans and the Latins: Politics and Society in the Late Empire. Cambridge: Cambridge University Press, (2009).pp.47- 48-49.
14- Mertzios, Konstantinos, Monuments of Macedonian History, Thessaloniki: Society for Macedonian Studies, [1949]. Pp. 30-34.
15- Madden, Thomas F. Venice: A New History. New York: Viking. (2012).pp.199-200.
16- Nicol, Donald M. Byzantium and Venice: A Study in Diplomatic and Cultural Relations. Cambridge: Cambridge University Press, (1992). p.361-362-363.

المراجع العربية والمعربة:

1- شارل ديل: البندقية جمهورية أرستقراطية، تر: أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر، دار المعارف، القاهرة، عام 1947م، صـ 135.

2- هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، تر: أحمد رضا محمد رضا،ج3، الهيئة العامة، القاهرة، عام 1991م، صـ139.

3- شارل أومان: الإمبراطورية البيزنطية، تر: مصطفى طه بدر، القاهرة، د.ع، صـ 259.

4- هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، تر: أحمد رضا محمد رضا،ج3، الهيئة العامة، القاهرة، عام 1991م، صـ139.

5- كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ط11، تر: نبيه أمين فارس– منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، عام 1988م، صـ 427.

6- سعيد أحمد برجاوي: الإمبراطورية العثمانية تاريخها السياسي والعسكري، بيروت، عام 1993م، صـ 64.

7- عبد الغني محمود عبد العاطي: معركة فارنا الصليبية، مجلة كلية التربية، دمياط، عدد17، ج2، عام 1992م، صـ 193.

8- خليل اينالجيك: تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، تر: محمد الأرناؤوط، بني غازي،

المصادر العربية:

1– بيرو طافور: رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي، تر: حسن حبشي، دار المعارف، القاهرة، عام 1968م، صـ 157.